

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الإبداعية

مكتبة الأسرة
1999

حصاد الهشيم



ابراهيم عبد القادر المازني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ابراهيم عبد القادر المازني

حصاد الهشيم

مكتبة الأسرة



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه... هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل
- للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاضد ومازالت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد
بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع
والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك



٣٠٠ قرشا

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

حصاد الهشيم

حصاد الهشيم

مكتبة جامعة القاهرة

حصاد الهشيم

إبراهيم عبدالقادر المازني

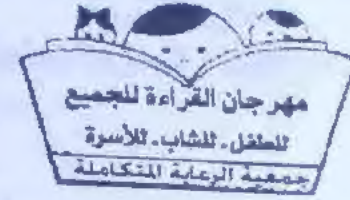
طبعة خاصة من دار المعارف
مكتبة الأسرة
بالإشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع
٩٩/٨٩٦٩
I.S.B.N. 977-01-6193-0

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام،
وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة
من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر
والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار
روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع
سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة
بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهاها شبابنا
صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة
سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل
والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

حصاد الهشيم

إبراهيم عبدالقادر المازنى

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان: محمود الهنڊى

المشرف العام:

د. سمير سرحان

مقدمة

أيها القارئ !

هذه مقالات مختلفة في مواضيع شتى كتبت في أوقات متفاوتة وفي أحوال وظروف لا علم لك بها ولا خبر على الأرجح . وقد جمعت الآن وطبعت وهي تابع المجموعة منها بعشرة قروش لأكثر ! ولست أدعي لنفسى فيها شيئاً من العمق أو الابتكار أو السداد ، ولا أنا أزعمها ستحدث انقلاباً فكرياً في مصر أو فيما هو دونها ، ولكنى أقسم أنك تشتري عصارة عقلى وإن كان فجاً ، وثمرة اطلاعى وهو واسع ، ومجهود أعصابى وهي سقيمة ، بأبخس الأثمان ! . وتعال نتحاسب ! إن فى الكتاب أكثر من أربعين مقالاً تختلف طولاً وقصرًا وعمقًا وضحولة . وأنت تشتري كل أربع منها بقروش ! وما أحسبك سترعم أنك تبذل فى تحصيل القروش مثل ما تبذل فى كتابة المقالات الأربع من جسمى ونفسى ومن يومى وأمسى ومن عقلى وحسى ، أو مثل ما يبذل الناشر فى طبعها وإذاعتها من ماله ووقته وصبره . ثم إنك تشتري بهذه القروش العشرة كتاباً ، هبه لا يعمر من رأسك خراباً ولا يصقل لك نفساً أو يفتح عيناً أو ينبه مشاعر فهو - على القليل - يصلح أن تقطع به أوقات الفراغ وتقتل به ساعات الملل والوحشة . أو هو - على الأقل - زينة على مكتبك . والزينة أقدم فى تاريخنا معاشر الأدميين النفعيين من المنفعة وأغرق ، والمرء أطلب لها فى مسكنه وملبسه وطعامه وشرابه ، وأكلف بها مما يظن أو يجب أن يعترف . على إنك قد لا تهضم أكلة مثلاً فيضيق صدرك ويسوء خلقك وتشعر بالحاجة إلى التسرية والنفث وتلقى أمامك هذا الكتاب فالعن صاحبه

وناشره ما شئت ! فإني أعرف كيف أحول لعناتك إلى من هو أحق بها !
ثم أنت بعد ذلك تستطيع أن تبيعه وتنكب به غيرك ! أو تفككه وتلفق
في ورقه المنشور ما يُلَف، أو توقد به نارًا على طعام أو شراب أو غير ذلك !
أفقليل كل هذا بعشرة قروش ؟

أما أنا فمن يرد إلى ما ألفقت فيه ؟ من يعيد لي ما سلخت في كتابته
من ساعات العمر الذي لا يرجع منه فائت ، ولا يتجدد كالشجر ويعود
أخضر بعد إذ كان أصفر ، ولا يُرَقع كالثياب أو يُرفى ؟
وفي الكتاب عيب هو الوضوح فاعرفه ! وستقرؤه بلا نصب ، وتفهمه
بلا عناء ثم يخيّل إليك من أجل ذلك أنك كنت تعرف هذا من قبل وأنت
لم تزدد به علمًا ! فرجائي إليك أن توقن من الآن أن الأمر ليس كذلك
وأن الحال على نقیض ذلك !

واعلم أنه لا يعينني رأيك فيه . نعم يسرنى أن تمدحه كما يسر الوالد
أن تثني على بنيه ، ولكنه لا يسوئني أن تبسط لسانك فيه إذ كنت أعرف
بعمومه وماأخذه منك . وما أخلقتني بأن أضحك من العائين وأن أخرج لهم
لساني إذ أراهم لا يهتدون إلى ما ييغون وإن كان تحت أنوفهم !
ومهما يكن من الأمر ، وسواء أرضيت أم سخطت ، وشكرت أم
جمدت ، فاذاكر ، هداك الله ، أنك آخر من يحق له أن يزعم أن قروشه
ضاعت عليه ! - أولى بالشكوى منك الناشر ثم الكاتب .

القاهرة في ٢٨ سبتمبر ١٩٢٤

إبراهيم عبد القادر المازني

على تخوم العالمين

(١)

الصحراء^(١)

بيتي على حدود الأبد - لو أنه كان للأبد حدود ! - وليس هو بيتي
وإن كنت ساكنه ، وما أعرف لي شبر أرض في كل هذه الكرة ، ولقد
كانت لي قصور - ولكن في الآخرة !! - بعث بعضها والبعض مرهون
بحينه من الضياع ، ووقفت معلقًا بين الحياتين ، كما سكنت على تخوم
العالمين !

ولغيري الأحراز والأملك ، ولكن من الصعب أن يتصور المرء أن
« أرضًا » ملكه - ملكه كيف ؟ ؟ يستطيع أن يزرعها إذا شاء ، أو يبنى
فوقها إذا أحب ، ولكن هذا ليس إلا نوعًا من الارتفاق . فأما أن يفهم
العقل على وجه مقبول جلي أن هذه القطعة من الأرض - هذه القشرة
المنتشرة على كتلة العالم ، هذه الطبقة المتصلة بطبقات دونها - ملكه !
فمما لا أصدقه ولا أدركه !! وتصور أن جبالاً من الجبال ملكك ؟ ! جبالاً
أشم شامخًا تتجاوب في مخارمه الأصداء ، وتصارع كتلته الراححة الرياح
والأنواء - ملكك ؟ لأصدق من ذلك وأقرب إلى الصواب فيه أن تقول
إنك أنت ملكه !

(١) عند هذه الصحراء تفتقر مساكن الأحياء عن مقابر الموتى . وليس في الصحراء
مقابر .

وإلى يميني الصحراء ، وإلى يساري .. الصحراء ، وفي كل ناحية
يرتمى في فجاجها الطرف .. الصحراء ، وفي الصدر .. لا أدري سوى
أنه قواء !!

وفي كل يوم أهبط إلى ساحل الحياة وأترث على حفافها برهة أشهد
عبابها المتدفق ينهزم على الرمال ويتكسر على الحصى والصخور ويقذف
بأشلاء غرقاه ثم يرتد ليؤوب بسواهم ، مطوئين في أكفان أثباجه ، محمولين
على نعوش من مريدة أسواجه . ويمد أن أفضى حتى العين من التأمل والشهود .
كأنني موكل بعد الموتى وحساب البيود ، أكر راجعاً إلى صحراواتي !

والقمر يضيئها كما يضيئكم أبناء الحياة ! ويسط على رمالها الصفراء
نوره الفضي اللين اللألاء ، ويضربها ساري الطل ضربة الروضة الفيحاء ،
وتوامض بلوراتها الأنجم الزهراء ، وتطلع عليها الشمس وتغيب كل صباح
ومساء ، فما تميز « العناية » بين ممرعة وجدباء ، وكل شيء عند الطبيعة
ككل شيء سواء بسواء ، ولو نخلت منكم الدنيا لما أحست فقدكم لا الأرض
ولا السماء !

ويزحف الليل قأبرز إلى الصحراء ، فيلفني الظلام في شملته ، وتلطمني
الريح وتدفعني وترد من خطاي كأنما تريد لتصدني عن هوطها ، وأعود
كبعض ذراتها لا تراها العين ، ولا يحسها ولا يحفل بها كون ، فليت من
تخدعهم الحياة وتنسبهم ضالة أقدارهم يخرجون ليلة إلى الصحراء !

وماذا يعرف عن الليل من يسكن المدن ويعيش بين أضوائها الناصخة
للظلمة ، المضيفة لوقعها في النفس ؟؟ ما هنا الليل الطاغى العاتى يا من
ألفتم نعومة الحياة وطراوة العيش ! فوقك السماء لا تراها ولكن تحس أنها
دلت منك ، وأسفت إليك ، فلو رفعت يدك لدفعتها ، وتحتك الرمل

تغوص فيه قدمك وتريد أن تقتلعها منه ويأبى أن يدعها لك كأنما شوقه
طول الجذب إلى غرس ولو كان إنساناً !! ومن الريح في أذنك الرعد
مرسلاً دافقاً - هل رأيت (الدوامة) في الماء ؟ إليها تنحدر كل موجة ،
وصوبها يجري كل طاف وفيها يغرق كل محمول على متن التيار - كذلك
تكون أذنك للريح ! فيهما ينصب صغيرها ، وإليهما يجري مزمزما .
كأنما أضتا قطباً شمالياً يحجب الريح من الجهات الأربع ! فيالفرحة
الريح بطارق الصحراء !!

ويتجرد الإنسان فيها من اسمه ، ولا يعود فلاناً بن فلان - كأننا من
كان هذان الفلانان - بل بعضها وأهون ما فيها ، وتسقط عن
نفسه - كأوراق الشجر الداوية - عواطف الغضب والألم والمراح والأمل
والياس والندم والأسف والطماح ، وتسكن الشهوات الجائعة وتختفى
التبرعات المقلقة الطائشة ولا يبقى سوى طمأنينة وادعة ، كصفحة الغدير
المصقولة إذ يمسحها النسيم الوالى ، حتى والريح تعصف والظلمة
مسحكة .

ويحدث نفسه إذا شاء - بل هو لا يسهه إلا أن يحدثها - ولا ينكر
صوته ولا يستغرب أو يلحظ أنه تغير وأنه صار أشبه شيء بالصدى وأثباتاً
عن جوانب الغار .

ويغيبها في الليلة القمرء ...

وقد تراحف الناس بينهم فما عمروا منها فيما أرى خراباً ، ولا تحيفوا
منها طرفاً أو ضيقوا لها رحيباً ، هي أبداً صغير ، وهل يتقص من الأبد
كر الأيام والشهور ؟؟

والى يمينى الصحراء ، وإلى يسارى .. الصحراء ، وفى كل ناحية يرتضى فى فجاجها الطرف .. الصحراء ، وفى الصدر ... لا أدرى سوى أنه قواء !!

وفى كل يوم أهبط إلى ساحل الحياة وأترث على حفافها برهة أشهد عباها المتدفق ينهزم على الرمال ويتكسر على الحصى والصخور ويقذف بأشلاء غرقاه ثم يرتد ليثوب بسواهم ، مطويين فى أكفان أثباجه ، محمولين على نعوش من مربة أمواجه . وبعد أن أفضى حق العين من التأمل والشهود ، كائى موكل بعد الموتى وحساب البيود ، أكر راجعاً إلى صحراواتى !

والقمر يضيئها كما يضيئكم أبناء الحياة ! ويسط على رمالها الصفراء نوره الفضى اللين اللألاء ، ويضربها سارى الظل ضربة الروضة الفيحاء ، وتواضع بلوراتها الأنجم الزهراء ، وتطلع عليها الشمس وتغيب كل صباح ومساء ، فما تميز « العنابة » بين ممرعة وجدباء ، وكل شيء عند الطبيعة ككل شيء سواء بسواء ، ولو خلعت منكم الدنيا لما أحست فقدكم لا الأرض ولا السماء !

وتزحف الليل فأبرز إلى الصحراء ، فيلقى الظلام فى شملته ، وتلطمنى الريح وتدفعنى وترد من خطاى كأنما تريد لتصدنى عن هوها ، وأعود كبعض ذراتها لا تراها العين ، ولا يحسها ولا يحفل بها كون ، فليت من تخدعهم الحياة وتنسيهم ضالة أقدارهم يخرجون ليلة إلى الصحراء !

وماذا يعرف عن الليل من يسكن المدن ويعيش بين أضوائها الناصخة للظلمة ، المضبغة لوقعها فى النفس ؟؟ ها هنا الليل الطاعى العاتى يا من ألقتم نعومة الحياة وطراوة العيش ! فوقك السماء لا تراها ولكن تحس أنها دنت منك ، وأسفت إليك ، فلو رفعت يدك لدفعتها ، وتحك الرمل

تغوص فيه قدمك وتريد أن تقتلعها منه ويأبى أن يدعها لك كأنما شوقه طول الجذب إلى غرس ولو كان إنساناً !! ومن الريح فى أذنك الرعد مرسلأ دافقاً - هل رأيت (الدوامة) فى الماء ؟ إليها تنحدر كل موجة ، وصوبها يجرى كل طاف وفيها يغرق كل محمول على متن التيار - كذلك تكون أذنك للريح ! فيهما ينصب صغيرها ، وإليهما يجرى مزمزما . كأنما آصتا قطراً شمالاً يجذب الرياح من الجهات الأربع ! فيالفرحة الريح بطارق الصحراء !!

ويتجرد الإنسان فيها من اسمه ، ولا يعود فلاناً بن فلان - كأنما من كان هذان القلطان - بل بعضها وأهون ما فيها ، وتسقط عن نفسه - كأوراق الشجر الداوية - عواطف الغضب والألم والمراح والأمل واليأس والندم والأسف والطماح ، وتسكن الشهوات الجامحة وتختفى النزعات المقلقة الطائشة ولا يبقى سوى طمأنينة وادعة ، كصفحة الغدير المصقولة إذ يمسحها النسيم الوانى ، حتى والريح تعصف والظلمة مسحكة .

ويحلت نفسه إذا شاء - بل هو لا يسعه إلا أن يحدثها - ولا ينكر صوته ولا يستغرب أو يلحظ أنه تغير وأنه صار أشبه شيء بالصدى وأثباتاً عن جوانب الغار .

ويغيبها فى الليلة القمرء ...

وقد تراخف الناس بينهم فما عمروا منها فيما أرى خراباً ، ولا تحيفوا منها طرفاً أو ضيقوا لها رحاباً ، هى أبداً صغير ، وهل ينقص من الأبد كرا الأيام والشهور ؟؟

والمرء ينفض فوقها غبار الحياة ، وينضو عندها كل ثوب مستعار ،
وينسى أنه سعى وفاز أو خاب ، وأن عليه أن يعود كبرته إلى خوض قديم
العباب .

ويا عجباً لها ! أمبط إلى ساحل العيش كل يوم وأعود وبى حاجة أن
أمبط عن نفسى ما علق بها من الأوحال ، فأغشى الصحراء فأصفو من
الأخلاط والأوشاب ، وأرجع ولم يعلق حتى بثوبى التراب ..

(٢)

صفحة سوداء من مذكراتى !

أنا الساعة فى خلوة بنفسى - لا صبر إلا طيف الماضى - هذا ليسى ،
يعمر لى فبجاء الصحراء ، ويكظها بالأشباح الجوفاء ، ويحيطنى بخاشية
من الذكريات ليس لها انتهاء ، ويظرفنى بأحاديث أيامى التى تقضت ،
وأحلامى التى التسخت ، وهماى التى خثرت ، وبساتين آمالى التى
صوبت ..

رقدت على الرمال وجعلت حبنى قيد هذه السماء المجلوة التى لا تعرف
فنً إلا مطار ، وكان القمر طالعاً ولكنه باهت كلبى الضوء ، كالذكرى ،
بغرى بالوجوم ولا يُشبع فى النفس حرارة ، وهنا فوقى عصيفير حط على
صخرة ... هناك ! .. هناك حيث لم أكن أجلس وحدى ! .. وانطلق
يلرد .

أه لو علمت عصيفيرى أن صوتك كان يكون أسمى ، وتغريدك أحلى
وأشجى ... ولكن عينها لن تفتح على هذه السماء ، ومعها لن يرده هذا
الغناء .

والمرء فى خلوته يكون أقرب إلى الجنون إذا ذهبت تعتبر سلوكه ،
كما يقول ماكسيم جوركى ، لأنه يرسل نفسه على سجينها حين يأمن عيون
الرقباء ، ويقول أو يفعل ما يذله غير محشم . وقد أذكرتني كلمة جوركى
أنى أحياناً أجدنى أغنى ساخرًا من شخص لا وجود له إلا فى وهمى ،
أو أحك أنفى بأصبعى مكابداً من أتخيل أنى أعابته ، أو أخرج لسانى
لصورنى فى المرأة !

وكان العصفور أعدائى فرحت أغنى .. وما أنا بأخجل الصوت ولا هذا
من عاداتى ، وإن فى طبعى لاحتشاماً ، كثيراً ما ينفض على متعى ولذاذاتى .
غير أنى لم ألقت إلى صوتى ولا أحسبني حتى سمعته ، وإنما هو ذهول
عرائى فمضيت أرسل من الأصوات ما كان يظربنى حين يصافح أذنى
كأنما أردت لأستدنى به نائباً .. فخيّل إلى أنى سامع وقع قدمين تدلفان
نغوى ... ولكن الطيف مرّ بى ولم يترث ، واشتمل عليه ظلام الليل
كما طوى صاحبه ظلام الأهد !

وا أسفى عليك - ! - لا بل على - لم يبق منك إلا طيف يعتاد
ذاكرتى ! لا أثر على الرمال الخائنة التى كنا نمشى فوقها وترقد عليها ،
ونملاً أكفنا منها ، وندع ذراتها تتساقط خيوطاً من بين فروج أصابعنا !
ولقد نسيتك النجوم التى كنت تحبينها وتشيرين إليها بينالك وتعددينها ولم
تستوحش خلوى مكانك إلى جانبي تحت عيونها المتلاحمة - بل هى لم
تذكرك حتى يقال نسيتك - والقمر الذى كنت تأتسين بطلعه وتخالسينه
النظر من بين غصن شمرى الدجوجى المرنخى على وجهك تحت ضوءه
القضى اللين - لا يزال يتسم كالعهد به ابتسامة السحر والسهوم كأنه لم
يفتقدك !

كلا ! ما من شيء فيما أرى يحسن افتقارك كائنك لم تحب وجه هذه الطبيعة الخادمة الحس ، الميتة المشاعر ، التي تروعننا وهي لا تخفلنا ، وتسمينا ولا تذكرنا . حتى أنا الباكي عليك تعروني رعدة كلما تصورت ما يصنع الي بك ! شفتاك الحسان اللتان كانتا تستديران لتلقيا قبلائي ، ماذا صارتا الآن ؟ صديداً سائلاً ! وعيناك ؟ أليستا الساعة كهفين بشعين أعالج أن أطرد من مخيلتي صورتهما ؟ وأنتك الأشم المنسجم لعله في هذه اللحظة مرتع ديدان ومرعى حشرات ! وأناملك الغضة التي كانت تضاعط كفى عن أرق عاطفة وأحناء ؟ إيه ما أشنعها صورة وأحولها ! وماذا أنا الآن ؟ حتى من الأحياء لا يدرى الناس أنني مت منذ سنين وإلى قبر متحرك كشمشون ملتون ، أو جثة لم تجد من يدفنها أو صورة باهتة لما كنته في حياتي ، وما أعد فيمن لا يزالون على قيد الحياة إلا لأنني ينقصني أن تكتب لي شهادة بالوفاة ! ولقد كنت كما يتوهمني الناس الآن ، حياً تتدفق الدماء الحارة في عروقي ، فلما تأملت مصائر الخلق ركزت الدماء قليلاً وابتعدت ومات مني شيء ! ثم قضى ولدنا فأحسست ديب الفناء ، وضحي ظلك صافقت أرواح الحياة بين يدي وذوت نوارات آمالي تحت عيني ، وإذا كفى ملائى ببيت الزهر مما قطفت قلماً ، فشاع في الموت علواً وسفلاً . !!

ولبي لأقضى أيلامي على نحيب ما - أروح وأحيى وأكتب وأتكلم وأضحك وأكل وأشرب ، ولكني لا أرحو ولا أغضب ، ولا أحزن ولا أطرب ، ولا أهرب ولا أرغب لأنني لست أحيأ الآن !!

ولبي لغارق في لجج هذه الخواطر وإذا بفنائة رويد تعدو إلى وتناديني

باسمى ، فأفقت ورُددت إلى الدنيا ولكن كما يفيق المغشى عليه : بثلقت في كل ناحية ويسأل أين هو ؟ ويعجب لنفسه ولبن حوله ، وبذهنه بعض الكلال ، وعلى عينيه كالغشاوة ، ثم اعتدلت فوق الرمل ونهبت حواسي ومداركى بجهد وقلت « من عسى تكونين يا فتاتي ؟ » .

قال : « لقد ذهبت أملأ جرتي من بيتكم هذا (وأشارت إليه وكان بحيث يرى) كعادتي كل ليلة بعد أن تنقطع الرجل (١) ، ألم ترني قبل الليلة ؟ » .

قلت نعم (ولكنني لم أذكرها) .

فمضت في كلامها وهي تلهث وتلقى على الأسئلة ولا تنتظر جوابها « إنني كل ليلة أنسلل إلى البيت وجرتي تحت ملائتي وأدفع الباب برقي ، لماذا لا توصلد بابك ؟ ألا تخشى سارقاً ؟ ولكن لو كنت توصلده لتعلم علي أحياناً الدخول ولكنك أحجل أن أرعجكم كل ليلة من أجل جرة ماء ! وبعد أن أدخل وأضع جرتي في الحوض أتركها تمتلئ على مهل وأرود الحديقة ، ولكني والله لم أقطف منها شيئاً ، وإن كنت أحب ثمر الحناء ؟ وقد انتهرتني ليلة وأنا أتمشي تحسبني أريد أن أسرق ، فخفت وبكيت في الطريق وقلت كيف يسيء الظن بي ؟ نعم كيف أسأت الظن بي ؟ » فقلت « لم أكن أعرفك يا فتاتي فلا تغضبي وخذي ما شئت من الحديقة فما بها ما يستحق أن يفض به المرء » فأخضت إلى وأنا قاعد على الرمل ووضعت راحتيها على ركبتيها وأكبّت بوجهها على وجهي وحذقت في عيني وقالت

(١) شركة الماء تحظر هذا .

مبهجة العائب الخاسب . كيف لم تكن تعرفني ؟ أليس أحبيك كلما
 دلت ورأيتك جالساً في ذلك الركن المظلم تحت الكرمة ؟ » فتناولت
 وجهي بر كعب وحسنته بي في رفق وقبليها يد لم يكن ثمة يد من ذلك ،
 وبست لا معصي يا فتاتي . وقد كنت تريدني تمر الحياء فاحنيه كله ،
 يا عبيد عبيد . ولكن حيرني من ذلك على مكاني ؟ » وبهضت .
 فعدت بي التحدر وقالت « من دلتني ؟ : يا له من سؤال ! كأن الدنيا
 كلها لا تعرف ! ولقد وجدت بلبك الليلة موصداً فعلمت أنك خرجت
 إلى هنا فحسنت أبحث عنك لتفتحه لي فلبني أستحي أن أقرعه » قلت :
 حسنت . فعز بي هذه الصخرة . قالت : لماذا ؟ » قلت : « لتعدني
 من حرم . ولت أو هذا ممكن » إنها كثيرة جداً ! » قلت :
 نعم . وكنت كم عدت بحثاً وأشرت إليه بأصبعك اختفى واستسر
 حين لا شيء في سماء ولا أرض إلا غيبك ! » .

وبت أصبح هد . » وجعلت تب وتصفق حتى اختلتها إحدى
 من بين ومضينا إلى الصخرة ، وجلست وأجلستها على ركبتي وطوقتها
 مني . فحسنت هي تعد حرم . وأر كعب فاهد كما عدت واحداً ، وهي
 فرحة بلشمتي ، تردها مضاعفة حارة وتهز رأسها وتنفض شعرها ثم تلقي
 نفسها على دمي دة حري وسلف بعد . ووجهها بي السماء ،
 وشعرها يمد يدي بي لأرض . ومن دلت لا أدري كما ! ولكن الذي
 أدري أن مسي حسنها قد جعلت حرمي نسي كانت تمح في ظلام
 رأسي !

(٣)

الغريزة

مرت عشاءة - بي - فتاة
 والليل ساجر شاحب بادره
 فقلت : يا غداة أذكرتني
 أمثل هذا الحس لمأزل
 ألم يزل (كوييد) ذا صولة
 قالت : ومن كوييد هذا الذي
 فمت : هذا ولد مولع
 فتمنمت عائذة باسمه
 يا حسنها لو أن حسناً يدور
 كأنما أضناه طول الوجوم
 أحلام عيش تسخنها المموم
 في عالم الشر القديم العميم ؟
 يرمي فيدمي كل قلب سليم ؟
 تذكره مقترناً بالكلبوم ؟
 صيد أكيد نوري كعريم ؟
 من كل شيطان حسنت رحمة

يا بدر هل أبصرتها موهماً
 أم كنت في ليلة داك العميم
 بين دراعتي تعد حريم
 في شعل عد كحل عيونه

يا بدر ما أفشاك رغم الوجوم !

هاتف من جانب القبر

جمالك^(١) - لا تأسف على ولا تأسى

فإني ، تحت الأرض ، لا أحفل الحما
طواني الردى عن ناظريك فجاءة

وما كان ظني قط أن أسكن الرما
أرأى الصبي شمسى بعيدا معيها

فسرعان ما ولّى النهار وما أمسى !
وكنت سرور العين والأنف والحشى

فأصبحت أودى العين والأنف والنفسا
ولا تتجشم لى الحفاظ ، فإني ،

وقد مت ، لا أوليك شكراً ولا حما
وأدخل إليك الشمس من كل كوة

فما يمل العيش من يحجب الشمس
متسليك عني ، كل زهراء ناهد

وإن بقيت ذكرى تهمس بى هما
فما أنت بالباكى على ، وإنما ،

على فقد ما قد كنت طبت به نفساً
.....

(١) جمالك أى صبرك .

فى جوارها

ولتمنه ... !

لم أكلمه ، ولكن نظرتى
سأله : أين أمك ؟
أين أمك ؟

...

وهو يهذى لى ، على عادته
مذ تولى ، كل يوم
كل يوم

...

دنتى يسط من وجهى الفضون ،
والعمرى كيف ذاك ؟
كيف ذاك ؟

...

قلت ، لما مسحت وجهى بده ،
« أترى تملك حيلة ؟
أى حيلة ؟ »

قال : « ما تعنى بهذا يا أبناه ؟ »
قلت : « لا شيء أردته »
ولتمنه ... !

...

رفيق

يلازمني في جيئتي وذهوبي
رفيق من الماضي أليف شحوب
أقول له « قدمت يا صاح فاحتجب »
فيفتر عما « كان » ثغر حبيب
وما بجميل منه تنقيص حاضري
بأن عليه منه عين رقيب
« قد كان قدماً ، حاضراً » لا يمضه
شريك ، ولا يشكو حساب حبيب
• • •

ما الفرق

نوفت طوداً لم نكن^(١) تتوكل
وأصعلت فيه جاهداً أتتقل
خلأ ، فوق ، جنبه عبقريّة
تعاوى به طوراً ، وطوراً تجلجل
من اللأ كم صالت وجات بمثله
عمالقته الدنيا الذين تحملوا^(٢)

(١) لم نكن . هي . . .

(٢) تحملوا ، أي (رغلوا) . وفي الأساطير أن العملاقة كانوا يقاتلون بالجمال .

ولم تك تهواه ، فكنت أروده

وحيداً ، ولا أشكو لا أتملل
فكيف غدا من بعدها جد موحش
ولم تك تغشاه معي حين أفعل ؟
• • •

في القسطاط

أيا بلدة القسطاط ما أنت بلدة
ولكنما ذكرى لمؤتف الخفض
طواك قضاء الله في الأرض حقبة
وأشرك الإنسان نقضاً إلى نقض
خطوط ، وأنقاض ، كما جاهد الفتي
ليحيى ذكرى ، وهي تمنع في الفمض
خرائب من حول ، وفي النفس مثلها ،
وأهول منها ، ويل بعضي من بعضي
وكم خلت نفسي بعض أدراس نؤيها
فأقصررت حتى كان يفرعني نبضي
فضيت بها ليلاً طويلاً قصيره

وهل نقصر الليال من شدة محض ؟

فوا أسفاً ، لو ههنا كنت لأنتي

قصيراً على الليل ذو الطول والعرض

لأوحشتي لما غلت منك رقعتي ،

ولم توتسي ذا وحشة في حشى الأرض !

أأسفة للموت ؟ أم أنت يا ترى

أراحك منى الله ذو اليسط والقبض ؟
° ° °

الأسى

كنت ... مع حزين ، ولم أكن

قلبي ، وإن حفت مآقي ، باكيًا

ولست أرى الدنيا التي كنت روحها

ورجانها تأسى عليك ولا ليا

... تأسى ... عرف عين عمرة

يرد مهبها القلوب الضواليا

... حفت ، وهفت ، وحسرة ،

وتقلبك الأحلام حمراء دامية
° ° °

صورتها

تأمتها حتى تحرك ساكن

من الشعر والعين والرأس والصدر

أصبح هذا الحسن قبحاً وجبناً

على أوب الأدب من سه المسرى !

ويمسى صديقاً كل ما كان من قوى

وماء شباب مستحير ومن سحر

فيا يؤس للبوغاء يغفر وجهها

ويكحل جفنيها ويلصق بالنحر !

وللدود ، يقات ، الليالى ، بحسها

ويتركها كوماً من الأعظم المحر ...
° ° °

شؤم الخيال

أرى رونق الحسناء فى ميعة الصى

فيوضع بي شؤم لحيان ونفد

ويشهدنيها فى التراب مرمة

وقد عاها غول الخمسة موق

(١) الإصباح ولأدب ... ويمسى لى ...
شؤم ... حبيبها ...

النجاح

قال أحد كتاب الروس - ولست أذكر اسمه لأرويه - كان بمدينة كذا رجل ضعيف العقل . وكان الناس لا يسكنون عن حوص في أمه . والتحدث بتخلف ذهنه وغلظ عقله فكبره ذلك وساءه وأحب أن يغير رأي الناس فيه . فلم يزل يعمل فكره حتى هذه طوب التفكير . فسير ما هو خلاق أن يبعده أمنيته ويحقق له غايته ويرغبته . وحدث له صديق كمد لقي واحداً من معارفه وإخوانه يستسخر رأيه ويستجعله . فإذا ذكر أمامه كتاباً ورأى أنه يستحيده قال له هذا كتاب سحيف ليس فيه معنى ولا وراءه محصول وإنك إذ تستحسه وتستحيده تنس برأيك فيه على تخلفك عن عصرك وتأخرك عنه .

وإذا امتدح أحد صورة على مسمع من سري له . شفق ولا تعتمد قائلاً ليس في هذه الصورة شيء يستجاد ويكمد حديث يده ويكرت ها تشيت أنك متأخر عن عصرك . وهكذا ظل صاحبنا يستحي على ما يستحسه الناس ويتهمهم بضعف العقل ويرميهم بالتقصير . وشحف عن الزمن ويجهل ما عني عليه من الآراء وأخذ من الخلق . فبمضوب عنه وهم يحللون من سقاطهم وعثراتهم حتى أكبر عقله ورأى أفرعهم وقاحه وراعتهم جرأته ..

وبلغ من نجاح صاحبنا في ما قصد إليه أن صاحب حربة . سنكبه وسأله أن يوافيه . أنه في الأدب والعلوم والاحتماع ! فنهجه عن حصته التي سمها لنفسه وهي نفص كل عمل ويرمي مستحيديه بالتخلف وعدم الامتلاء على أحدث الآراء التي أسحها العصر ! فصار قوة لا يملك إهمها

الكتاب والمنصور والمصورون وسائر الفنون . وقد أراد واضح القصة أن
يشرح لنا على سر من أسرار النجاح . ولم نرد نحن بإيرادها أن نذهب
إلى دعوى والتجسس لأزمان في الحياة وأنهما وسيلة النجاح ولا وسيلة
للخسارة ، ولكننا أردنا أن نقول إن الحياة شيء حسن له فضله ومزيته ،
بكم ، على ذلك ، ثوب يحسن أن يخلعه المرء إذا شاء أن يفوز بحقه ويظفر
بما هو أهل له . فقد تكون أقوى الناس استعداداً وأكثرهم مواهب وملكات
وأقدرهم على الاضطلاع بالأعباء والقيام بخطرير الأمور وجلال المساعي ،
ويحرمك الحياة أن تجني ثمرة تعبك وزهرة غرسك . وليس في الخجل
معنى في الحياة أو نتيجة إلا أن الناس يملأون بطونهم وأنت جائع ،
ويحبون وأنت واقف بالباب ، ويتقدمونك وأنت متردد !

عند ذلك ، نزلت نفسك دون المنزلة التي تستحقها ، لم يرفعك
من ذلك ، بل نزلت عن رتبة يدعوك عما هو دونه أيضاً ويحزنونك
من ذلك ، لا تراحم على طيبات الحياة شديد ، والجهد والتنازع
والصراع ، لا تصاف محالاً للعمل فلا تصدق من يشيرون عليك
بأنك والوداعة ويصحبونك بالاستحياء ، فإنه لا حياة في الحق ولا خجل
من السعي إلا حزن من سخطه من لأعساء ، وأحس هؤلاء النصحاء
أنهم سيق بالسيق فأشاروا عليك بالتقاعد ! ويستبدوا بالفوز فزيتوا
في ذلك ، وساعة السب يرى من حول كيف تدعى عن قصائدها وخاس
منها ، وهي قد أتت كل الرذائل والمقاييس والحساسات ؟ وكيف
تدعى تنبؤ العقل من مقاصد وشرف المنافع وهي فائدة الصدور بالحق
والمصيبة ؟ كيف تصاهر به هذه العفة عما هي بيد الغير وهو شاغل
شعب مقاصدها ، من سمع هذه ، كيف نزع منها بعض عطفها على أم
نعمه وحسن نيتها ، هي قد أكل فلها الحسد والاحتقار ؟

وكيف تقاوم كل حركة رقي وهي تباهي بأنها مولد الآراء الحديثة ؟
وكيف تقاوم بما تستمته من تلاع الرقي وأنجاد الرفعة وهي تجر رجلها
وراء أصغر الشعوب ؟ وكيف تشدق بمبادئ الحق والعدل وهي تغلب
الضعفاء وتسترفهم وتسلبهم حريتهم وتنتهك كل حرمة وتفجر في كل
عهد وتنقض كل وعد ؟ والناس يسمعون هذه الدعاوى الخلابية وتسحرهم
فتنتها ويصدقونها ولا ينتبهون - ولو نبهتهم - إلى أن اليد لا تكسب
لما يجري به اللسان !! - وإذا كان هذا مبلغ التيجح بالباطل فماذا عسى
ينبغي أن يكون مقدار الجرأة في الحق ؟

لو كان في هذه الدنيا موازين لا تغل شعيرة تزن أقدار الناس والأمم
وتقسم الحقوق بالعدل والقسطاس لما عادت بنا حاجة إلى النصيح بالمغامرة
واطراح الحياء والخجل ونقض غبار التقاعد والخمول ، ولكن ما نستحمه
وهو بتقديرك وحدك دون سواك . فمن أفحش الحق أن تدع لمرء
مركولاً لا تصاف حصمك . نقول خصمك لأمر كل شيء وكل أمر
خصوم على الحقيقة - وما من أحد إلا وفوزك بشيء أو سيقك إليه ، يحرمه
إياه فهو مضطر إلى مغالطتك فيه وصرفك عنه ومعالنتك بالقوة عيب في م
تجدي معك الحيلة ، وعلى قدر سعي المرء وما يملك من الجهود يكون
استحقاقه ، لأن الحياة هي الحركة والجهاد لا النوم والتواكل ، وما حق
من يقعد ويفتح فمه أن يملأ الزمان تراباً !!

شكسیر فی اللغة العربیة

تاجر البندقیة

(١)

ما هو الابتكار ؟ سؤال نحس بالحاجة إلى الاجابة علیه لما ركب الناس فی أمره من الخطأ ، ودخل علیهم فیہ من الوهم ، حتی صاروا یفهمون من الابتكار أن یأتی المرء بشيء جدید لا صلة قریب ۛ یأشیق ولا حمة تسب بینہ و بین الحاضر المکتفہ . فإذا قیل « فلان » شاعر أو كاتب مبتکر ، توقع جمهور القراء وعامة الخواص منهم للذین لا قیل لهم ، لسبب ما ، بالتقصی فی البحث والتدقیق فی النظر - أن یفجأهم الشاعر أو الكاتب بما یختلف عن کل ما قرأوه أو سمعوا به اختلاف إلیاس عن سب ۛ ودهوا یطالبون هذا الشاعر أو الكاتب بأن یكون ، کالغنیوی لا یسبح خیوط بیته إلا بما توثیه إیاه أمعاؤه .

ولکن الطبیعة مقتضدة غیر مسرفة ، وهی لا تكثر للفظ لمحہ الناس وأرادوا أن یفهموا منه معنی معینا یحالف قوتیها ومسبها ولا یسبح ۛ ضیق الحیاة الفردیة وقصر الآمال الشخصیة . فیهی شیء یلا أن یحصر نعصه اشعراء أنكرهم دینا . ونعجبی كلمة لأمرسور شد فیها سوج شاعر فی قومه بظهور البطل فی بلد المعركة ، وعصواں بومکة وسمی مرمی کابه فأسوق ما فانه بحروفه وکس هذا معدد الشنبه ولبس نعور مه عی تصور حقیقه الواقع وعلى إصلاح الخطأ اشائع . فکما أن الشغل مدی بعره من سانیقه ومعاصریه ، ولظروف الأحوال ، نادوات نقد وندوة

الحرب ويجانب من أساليبها ويلغاب نار الحماسة وتتركز الخواطر واستجماع شتاتها ، وإنما يكون فضله في حسن استخدامه لذلك كله ، والانتفاع به على أصلح وجه وأكفله بالنجاح ، وفي حذقه وأستاذيته في توجيه الجهود وتصريفها ، وفي قدرته على الاستيلاء على النفوس بما رزق من قوة انجذاب ، كذلك ليس على الشاعر أن يخلق مادته ويوجد من العدم بضاعته . وإنما يلقي الطين مهياً ، والحجر منحوتاً ، والقاعدة مرصوصة ، فينبغي على هذه بدالك ويخرج لك مما وجد بناءً ليست قيمته في انقطاع شأنا من مبلغ اتساع الأفق وبعد المدى والاحاطة . وماذا عساها كانت حكمة من أسرار لو أنه كان على كل فرد أن يخلق مادته التي يستخدمها ؟

... لا يشاء كبر تحرب لا ينتفع بها أحد ، تضعب فيها الأعمار ولا تكون فيها عائلة على الفرد ولا على الجماعة . ولكن الطبيعة لحسن حكمة من هذه حكمة صبيغة ونرفصها ولا نسمح بالعظمة للفرد إلا مستحضنة من قوى الجماعة وقائمة على جهودها . وماذا كان يستطيع فكس ؟ لا نسأل ثم سنألف أن الطبيعة لم ترحل له تيار الحياة ولم حرج كيد ومالون وجرجن وجونسون وشاهمان وديكر وهيوود ومدلتون وورورد ويل وهورد وماسنجر وبومنت وفلتشر ؟ بل ماذا كان يصنع ... لكن المسح في عهد ظهوره مستولياً على هوى الجمهور ؟ بل ... لا نريد نخسب منه كل نكت الروايات التي لا يعرف أحد تاريخها ولا حفظ الزمن أسماء واضعها أو مؤلفها أو منفعيها ، والتي ظلت زمناً هي ملك غثاس للمسح بأحد منها كل شاعر ونحور فيها كما شاء قللمه واستوجب زمت ؟ ؟

... كان يتبعه مع حفظه حقوق تأليف لنواع الأفراد الذين يكون من حسن ظاهمه أن يشهروا بعد انقضاء عصور الاستباحت والظلمة .

كان بها لا تحب أن تغمط الجماعة حقها أو تسلبها فضلها . ولكن تاريخ فن الشعر مع ذلك هو تاريخ الجوز الفرد على حق الجماعة . ومن ادعى يحظر له أن يعزو شيئاً من فضل شكسبير أو هومر أو ايسكيلاس إلى غيرهم ؟ لقد كان الشعر الأول أغاني تشترك فيها الجماعة كلها وكان الشعر - إذا صح استقراؤها - ينظم في ظروف اجتماعية وينشد في اجتماع القبيلة أو العشيرة كلها وكان الرقص والغناء والموسيقى شيئاً واحداً وكانت الألفاظ لقل شيئاً إذ كانت العاطفة أسبق إلى إيجاد التعبير عنها من الفكر ، ولم يكن التأليف معروفًا في هذه الدرجة من تاريخ البشر ، ثم أخذ الفرد يظهر لما أحس أن له عواطف وخواطر خاصة به وحده وأن له استقلالاً عالياً ، وصار على قدر ظهوره واستقلاله اختفاء الجماعة وغموض أثره حتى صارت طائفة تجتمع لسماع قصيدة تُنشد أو تُغنى وهي لا تحس أثرها فيها بعد أن كانت فيما خلا من العصر هي المؤلفة لها ، شأنها في ذلك كشأنها مع رجال السياسة والحكومة . ولا ريب أن جماعة نصير زمناً مشاركة للشاعر في حالته النفسية ، ونكتها لا تلت أن سيد دأمر السى الماهر ويروح يوحى إليها . وإن كان ما زال يستمد منها . ويعتد عن مشاطرته هذه الحالة النفسية ويحى فيها راقد مشاعرها كما يرس سره الصوت فتجاوب بأصدائه أركان الكهف . وهذا نظور صيغى في مدينة معاهها « كل له عمل » أى الانخضاء ، ومتى انتقل مركز انتقل في حياة الجماعة ، بعد أن تتألف تأليفاً سياسياً ، انتقل معه المركز الأدبي ، ولكن أثر الجماعة لا يزول وإن كانت لا تدريه ولا تحسه وقد لا ينس أحد الانتظن إلى تقدير مبلغ هذا الأثر إلا بعد جيل أو أجيال .

...

قدما هذا على سبيل التوطئة للكلام على رواية ، نحر استدفية . انتهى

مستقلها وباطت أمرها بثلاثة صناديق : ذهبى . فضى . وورصاصى .
 حملت فى الأول منها حمضة ميت ، وفى الثانى رأس هزأة أنه . وفى
 الثالث رصمها . ومن اختار « الأخير » أصبحت له حليمة . وقد جاء فى
 هذه الحكاية ما يجيء عادة فى أمثالها : إن حبيب الفتاة هو الذى ألهم
 لصواب ففكرت به واختالت لانقاذ صديقه من تبعة ضمانه لليهودى بأن
 تربت برى عالم قانونى وقضت على المرأى .

صدق الأستاذ المترجم فإن مصدر القصة ايطاليا . ولكنها لم تكن قصة
 واحدة ، كما جعلها شكسبير ، بل عدة قصص جمع هو شتاتها وألف بينها
 من حمسة مصادر على ما يظن الشراح أولها « جستار رومانورام » وهى
 « حكايات رومانسية » ومنها قصة الضمان ورطل اللحم والوصول
 إلى وسط الضمان بنفس الحيلة . وثانيها « ال بيكورونى » وهى كالأولى
 قصة من قصص بردت فيد . فصلاً عن حكاية الضمان ، حادثة تبادل
 « ثالتيها » الخطيب « لسلفين وفيه فصل عن يهودى يريد فى
 « رطل لحم رجل مسيحى » ورابعها « قصة جيرونوتوس يهودى
 » وفيها زيادة على ما سبق أن اليهودى « يشحذ مسكينة » استعداداً
 لنقص رطل اللحم . وخامسها « يهودى مالطة » مارلو ، وفيها نظير لعلاقة
 « مسيحى وجسكا اليهودية » وذلك أن براباس اليهودى ، فى رواية
 « مسيحى مسيحى » وتصور لأخيه ، ومن المعروف أن مارلو كان
 « كبير فى صدر حياة شكسبير .

هذا إلى مصادر أخرى عديدة لا يعقل أن يكون شكسبير قد اطلع
 عليها . ومهما يكن من الأمر فإن الثابت الذى لا معجاز إلى الشك فيه هو
 أن شكسبير لم يخلق حكايته . ولكن ما قيمة هذا ؟ وكيف يفض من قلبه
 الشاعر ويظاً من منزلة التى نبأها وحده ؟ ؟

إلى القصص . حكايات . تصحح له باب التمثيلية لا بأحداها حصير

ولا يتأطا حساب . وهى كالحجارة ملقاة فى طريقنا جميعاً ، ولكن ليس
 كل أحد بمستطيع أن يخرج من أحداها رواية كتاجر البندقية . فإن كان
 أحد يشك فى ذلك فما عليه إلا أن يجرب ! هذا أصل القصة موجود فى
 أكثر من كتاب واحد ، وتلك رواية شكسبير قرية المنال ممن شاء ، فليأخذ
 هذه وتلك وليضع هو رواية مثلها ليقبس عجزه إلى قدرة شكسبير
 وجبرته !

وليس فضل شكسبير ومزته فى أنه ما من خصلة من خصال الخير
 أو الشر إلا أحسن تصويرها ، أو كما يقول الأستاذ المترجم : « تجد الطمع
 فتقول لا يصور بأدق من هذا . نجد الجبن فتقول لو تمثل رجلاً ليكان
 هذا . تلمح الحق فتقول كأتنى بفلان وفلان وفلان وقد كشف كل عن
 جزء من الحق الذى فى قلبه . واجتمع من الثلاثة الأجزاء هذا النوع التام
 من الحق ، بل النوع الأتم . وهكذا الحكم فى كل ما تصدى شكسبير
 لانهاره بمظهره البشرى »

نقول ليس الأمر كذلك لأن النفس الإنسانية ليست خزانة مرصوفة
 فيها الفضائل والذائل - أو الصفات - كما ترصف الكتب بحيث تستطيع
 أن تترع إحداها من بين أخواتها ثم تصورها كأنها شىء قائم بذاته لا صلة
 بينه وبين أخواته . وإنما النفس ميدان لتنازع الغرائز والعواطف . والمزية
 كل المزية فى رسم الخلق أحداث من تفاعل هذه العرثر والعواطف وصدت
 وهذرات البيئة والسنة . حذ متباً لك ذلك شيلوخ فى هذه الرواية التى هى
 موضوع كلامنا والتى عليها مدار البحث :

يهودى فى القرون الوسطى - ومن ذا الذى لا يعرف ما كان يعانى
 اليهود فى تلك العصور المظلمة ؟ - مهدد فى كل ساعة من عمره ، ككل

بناءً جدته ، بأن يحرق حيا وأن يُسقط عليه ويُهب ماله ويُنفى ويُسرد
من ربه وعذبه . وبه نجا ، خسر طالع من ذلك ، فهو ليس بمسحاة
من الامتهان والسب والضرب واللعن ، ولم يكن اليهود إذ ذاك أقل تعصباً
ومقتاً لأديان غيرهم ، ولا أكثر تسامحاً من حيث العقيدة والجنس .
لكنهم كانوا الضعفاء الذين لا حول لهم ولا سلطان . يضطربهم الحرمان
من ... الاجتماعيّة المباحة لغيرهم أن يقصروا همهم على استبقاء المال .
... ، ما تعلم شيلوخ ، من طول الاضطهاد واليأس من الانصاف .
... بنظره بالخروج وأن يداجي وأن يكتم ما ينطوي عليه من مقت وتحفز
... لا يجري لسانه إلا بالمعسول من الأنفاظ . وإذا تغلثت منه كلمة واشية
... نفسه وبما ضُمت عليه أضالعه من التزوع إلى التمرد على هذا
... عاد فصح من خصمه في الذروة والقارب . انظر هذا الحوار
تلى استدعاه طلب الاقتراض منه ، والذي كأنما أراد به شكسبير أن يليح
مفرداً بنية اليهودى وإسراؤه الانتقام :

« انطونيو - من المحتمل أن أسميك كذلك مرة أخرى ، وأن أبصق في
وجهك ثانياً ، وأن أطردك برجلى أيضاً . فإذا كنت مقرضاً هذا المال
فلا تقرضه كأنك تجامل به صديقاً . ومتى كانت الصداقة تستولد للمعدن
العاقرة ؟؟ ولكن أقرضه عدوك حتى إذا فصر في الوفاء كنت في حين من
إلزامه العقوبة .

« شيلوخ - انظر كيف تعصف ! أريد أن أكون صديقاً لك وأن أقال
حك ، وأن أنسى المعائب التي لطحتني بها ، وأن أقضى لك حاجت
الرامة ، وأن لا أنقضاك دافعاً من الربا على مالى . ومع ذلك تنى
تستمع إلى !! » .

وهو لهذا أيضاً سئ الظن ، يخشى كل شيء ، ويتوهم اعداء من كل
ناحية يطعن إليها غيره ، ولا يثق حتى بيته ، لأن سوء المعاملة أفسد عليه
نفسه ، ولذلك تراه يخشى أن يكون بينها وبين خادمه لونسولوت اتفاق
أو مؤامرة ، ولا يكتم قلقه لدعوة مسيحي له أن يتعشى معه .

« ولكن لماذا أذهب ؟ .. انهم لا يدعونى عن حب » وبصلب إن سته
- إذ يذهب - أن تحكم ابيضاد الأبواب والوافد التي يسميها « آذن بيته »
ويخبرها أن تظل بوجهها من الكوة إذا هي سمعت طبلأ أو رمزاً يد بصوف
« أولئك النصارى البلهاء » ، ويؤمن أنه قد لا يلبث أن يعود كد من عذابه
أن يراقبها مسترباً . فيا لها من حياة ليس فيها ذرة من الطمأنينة !

وليه للمرأة الذى حب المال عنده سواء والسحود . حتى نقد حار
قايوم الأخلاق عنده قانوناً مالياً ! « انطونيو » رجل طيب « أى قادر على
الداء إذا اقترض ! وليس كان بكره انطونيو لنصرايته فهو أشد كرهاً له

سبح يا ستور انطونيو ! كثيراً ما قرعنتى فى الرثاوت (المصفق)
من أعمال المالية ومرباتى ، ولقد احتملت ذلك أبداً صابراً وكنت أقبله
برفع الكتفى . إذ كان الصبر شعاراً أمتنا . وطالما نعتنى بالكافر والكلب
نعتور ، وبصفت على عبائتى التى تنطق بيهوديتى ، وكل ذلك لأننى
سترى مالى الذى هو ملكى . فالآن يظهر أن بك حاجة إلى معونتى :
تلى يقول : « شيلوخ ! أنت ملقاً من المال » أنت تقول ذلك . أنت
... فى حسي ... ، وسببى ... كـ ... انكسب العرب ...
عنة بيتك : المال طلبتك . فماذا ينبغي أن أقول لك ؟ ألا ينبغي أن أقول
« أعد الكلب مال ؟ أمكن أن يقرض الكلب ثلاثة آلاف دوقى ؟ أم
يكون على أن أغنى وأقول بلهجة العبد وصوته الخافت وذاته الهامسة :
« يا سيدى الجميل ! لقد بصفت لى وجهى يوم الأربعاء المنصرم ، وطردتني

« لأنه قبله يقرض المال بلا ربح ويسقط قيمة الربا هنا بيننا في البندقية »
« لقد سوى بين المال وإنته لما فرت به وجعل يصيح : « بنيتي ! دوقياتي !
وبيتي ! فرت مع نصري ! » را دناليري المنتصرة ! » ولكن حب المال عصى
حتى على غيرة حب الآباء للأبناء ، فصرخ وبه من خسارة المال مثل
حبور : « أنت سي مبتة عند قدمي وفي أذنيها الماستال ! » .

وقد يرح به ما لاقاه من صنوف الأذى والتحقير فترعت نفسه إلى الانتقام ، واحتج له احتجاجاً قوياً غصيحاً مقنعاً يشعر القارئ أنّ في مראה مقتله لأنطويو احساساً قوياً عميقاً بالعدل مخرجاً بهذه المראה . وهل تكاد تنفصل الرغبة في الانتقام عن الشعور المتغلغل بوقع الظلم ؟ إن شاء الله تعالى .

ثم ليحس عطفاً على هذه الروح المتمردة تحت هذه العبادة « اليهودية » - روح استمرها إلى الجنون الألم من تكرار الاستشارة بلا مسوغ ، ودفعها إلى مدح صريح ثقل الظلم بالالتجاء إلى الانتقام عن طريق القانون .

ثم شكسبير أراد إثارة هذا العطف حين أجرى على لسانه هذه العبارة ليدفع رداً على يسايير النصراني إذ سأله ماذا تفعله بضعة من لحم الأنطويو

جداً . تحذرها صفاً نسلك ! وحسبي بها قوتنا للليل انتقامي
إدا لم تصلح قوتنا لنشيء آخر ! . لقد جلب على التحقير ، وحال دون
كسلي نصف مليون ، وسخر من عسائري وهزأ بمكاسبي ، وامتن
دمي ، واعتذر أعمال . وقتئذ أصدقائي وأصب على أعدائي . وما دافعه ؟
و يهودي " أنيس لليهودي غيبك " أنيس لليهودي يدان وأعضاء وحسب
أحبس ومعدب وعوقف ؟ أنيس صغامة كطعام القسراتي ؟ ألا يحرقه
نفس سلاح " ونفسه من الأدوية ؟ ويشفيه نفس الهواء ؟ ويكر عليه
جرحه ؟ أمي غيبك ونفسك ، كالمصاصة سيء لسواء ؟ وإذا شككت
ألمدي " إذا حشمتنا ألا عسكت " وإذا حشمتنا ألا موت ؟ وإذا أدين

ألا نثار ؟ وإذا كنا مثلكم في الباقي فتحن مشبهوكم في هذا ! ما جزاء اليهودي إذا أذى نصرانياً ؟ الانتقام ! وإذا أساء نصراني إلى يهودي فماذا ينبغي أن يكون حراؤه على ما سن النصراني ؟ به الاستفهام ! وإني دعوتني بالندالة التي تعلموني ، وسيفدح الأمر أن لنا لم أحقق الدرس الذي تلقيناه عليكم « (١) » .

وجدير بمثل هذه الحدة في طلب الانتقام أن تنبه راقد المواهب وتبعث
كامن الذكاء ، ولذلك ترى شيلوخ متحفز الذهن ساهد القلب يعصف
بكلّام خصوصه بحججه الدامغة المحتدّة على مثال مبادئهم وأساليبهم . انظر
كيف يفحم الدوج :

« الدوج - أى رحمة يجوز لك أن ترجوها وأنت لا ترحم ؟

• شيلوخ - أي عقاب أخشى وأنا لم أصنع شرًا ؟ إن بينكم من هم
أرءاء كثيرون يستخدمونهم كحميرهم وكلابهم وعاضد في أعمال حقيرة
مذنة لأنهم مما ملكت أيماهم بالشراء . فهل أقول لهم " اعتقوهم وروحهم
ورثكم ؟ لماذا يتصبون عرقًا تحت ما يوقرون به من الأثقال " تك
أفرتهم وثيرة كافرثكم . ولننعم حلوقهم كذا ويكد من لأصعنة "
لو قلت لكم هذا لأجنته " إن الأرقاء منكنا . وكذبت أجكم ! " رص
اللحم الذي أطببه (من انطوبو) قد انتعته شمس غار وهو ولد
عنه . فإن أبيتم على ذلك فواححتنا لقوانينكم ! وما أصعب أومر سديفة
وأعمرها ! . إني أطلب الحكم ! تكلموا ! هل آخذة ؟

وهو ككل الصغماء المضطهدين ، إذا تمكن طفلي ولم يرحم . ومن

(١) القطع المنقولة من الرواية من ترجمتنا نحن عن الأصل الانجليزي

هنا كان رفضه مرة بعد أخرى أن ينزل عن رطل اللحم وأن يأخذ دينة مصعداً أو مثله أصعاً كثيرة . ولكن شيلوخ ليس بوحش ! وإنه لإنسان تعجبك منه نعمة قومية صادقة . لا يذكر قومه إلا واصفاً إياهم بأنهم « أمثا لمدمة » وليس بفضه للتصاري شخصياً بل العامل فيه جنسى . ومظام الفرد عنده متسربة في مظالم الجنس كله . ومع استهوالك أن يذهب شيلوخ إلى المحكمة مستعداً بسكينته وميزاته ، واستيشاعك شحنة السكين على بعد كتب نحدد من كل إحساس بشرى - مع كل هذا ، وعلى الرغم من . نحن في سهر قصيته ويخرج من المحكمة مصادرة كل أمواله كأثر لرجل مظلوم !

هذا هو شيلوخ كما صورته شكبير . وإلى جانب هذه الصورة الثامنة . نعد - مرة ماذا عسى أن تكون قيمة المصادر التي أخذ منها هيكل الحكاية العريان ؟

المدينة الفاضلة

ودرو - مور ! وتوماس ولسن !

ودرو - ولسن رجل حالم أو إن شئت فقل كالي يتسحب نظام لأهم ويترجم به ويرى فيه أصل الشر ورأس البلاء ويود أن يبدل منه ، وأن يبدله من نساذه صلاحاً . فهو من طرار توماس مور صاحب « البيوتونيا » وهو كتاب لذيذ ظريف تذكرنا به ويمؤلفه ما يبدله ولسن من المجهودات لإعادة تنظيم العالم على قواعد الحق والعدل والحرية - نقول « كتاب لذيذ ضريف ولا نخشى لائمة العار فيه لأننا لا نتقصه وإنما نعنى أن محاولة فرد إصلاح ما في الدنيا من خلل لا يمكن أن يكون إلا فكاهة يضحك من حرائرها القدر - ولكنها على هذا فكاهة جلييلة تبعث الرجاء وتنشئ الأمل في تحقيق ... المستحيل !! ونظام حياة الأمم ليس من صنع صانع ولا وضع واضع ، ولكنما يتكون على الأدهار والأحقاب - كجزائر المرحان وهو يتحول ويتعدل لأن الحياة قائمة على التطور ، مبنية على التغير ، لا لأن إنساناً هنا أو هناك أراد هذا أو أشار به . وقد يظهر من حين إلى حين رجل يكون من دقة الاحساس ولطف الإدراك بحيث يشعر بتيار الزمن واتجاه التدفق في مجرى الحياة فيعالج العبارة عن هذا الذي تولته مشاعره ، وتعلقت به مداركه ، ويحاول أن ينطق بلسان الحوادث . ويكون من قوة الخيال وفرط الاعتداد بالنفس بحيث يحسب أن نطقه هو الصحيح ، ومهمه هو الصواب . ومن هذا النوع ولسن ومنه أيضاً توماس مور .

والناس يعلمون عن الأول ما فيه الكفاية ، أما الثاني فلا يعرفه إلا أهل الاطلاع الواسع ولذلك نورد هنا ترجمته باختصار .

ولد مور في عام ١٤٧٨ أي في عصر النهضة العلمية ، وذهب إلى

أكسفورد ثم انتقل بعد عامين إلى لندن لدراسة الحقوق . وفي الحادية والعشرين من عمره انتخب للبرلمان فلم يلبث أن أحس به زملاؤه . وفي ١٥١٥ أرسل إلى البلاد الواطئة (هولاندة وبلجيكا) وظل شهوياً في أنفوس وبروكسل يفاوض رسل الامبراطور شارل الخامس . وهناك عرف (إرسم) والتقى بزميل صباه يتر جيلز وإليه أهدى كتابه ، ثم صار رئيس مجلس العموم في عام ١٥٢٣ ولما سقط الوزير ولزى صار مور أكبر رجال هنرى الثامن ، فأراد الملك أن يطلق من زوجته فلم يشايحه مور على رأيه فذهب ضحية ذلك .

وقد توخى مور في كتابه أن يصور الدنيا كما ينبغي أن تكون لا كما كانت في أيامه ، وأن يصف المدينة الفاضلة الكاملة كما هي في ذهنه . وكان محققاً جداً في ذلك لا هزلاً ولا مدلساً ، ولكنه اتخذ كتابه على الرعم من هذا ذريعة للزراية على الحياة الاجتماعية . والكتاب غاص بالغمزات وما لا يد في فهمه من الاحاطة بأحوال زمانه ، ولكن كثيراً مما يعيب به عصره وينميه على زمانه واضح بين لا يحتاج إلى إعنات روية أو مراجعة . من قوله « ولما كانت كل الأمم الأخرى - يعني غير يوتوبيا - لا تفتأ ترم الخانقات أو تنقصها ، فإنهم - أي أهل يوتوبيا - لا يخالفون أمة كائنة . ككذلك تحدث في رأيهم عديمة الحدوى ، وإذا كانت روايت بآسنة لا زالت بين الناس فليس لمعهود وإنما عود عمل كبير أو نفع » . من هذا « أن يميل ويس من حالمت حخته في الرهد في المخالفات . حجة مور .

« أنه الكتاب عاذا عن رواية حديث حوى بين مور وصديقه جيد من ناحية وبين ثالث يدعى « فانييل صادفاه في أنفوس ، وهو بحالة غار من يوتوبيا بعد أن لبث بها خمس سنين . على لسانه وضع المؤلف وصف

هذه البلاد السعيدة ! وحكومة يوتوبيا مؤلفة من نفر يختارون لسنة واحدة ويمثل الواحد منهم ثلاثين أسرة ولكن ولايتهم الحكم لا تميرهم عن ميرهم من أهل البلاد . وواجباتهم المفروضة عليهم كبيرة . غير أنهم مع هذا لا يختلفون عن سواهم في أساليب حياتهم .

والحياة الاجتماعية في يوتوبيا أساسها الأسرة ، وهي تتكون من عدد لا يقل عن عشرة أشخاص ولا يزيد عن ستة عشر ، فإذا تجاوز عددهم الحد الأقصى نقل بعضهم إلى أسرة أخرى .

وأهل يوتوبيا لا يستعملون النقود فيما بينهم ، وليس عندهم بيع ولا شراء لأن الخير وفير وكل امرئ واجد ما يشتهى . وإنما يستخدمون المال في الاتجار مع الأمم الأخرى - وفيها معادن ثمينة ولكن أخف لأنسب وأتمها تصنع من الذهب والفضة ، وكذلك الأغلال التي يقيد بها لأرقه حتى لا يزهى الناس بهذين المعدنين أو يقبلوا على احتجائتهما !

والاسترقاق في يوتوبيا مباح كما هو في جمهوريه أفلاطون . ولأرقه يُخدون من المجرمين ومن الأغراب الذي أغرتهم مزايا حياة في يوتوبيا بلتحاعها ، وهم يقومون بالأعمال الدنيئة القذرة ويكون منهم القصابون ، لأن أهل يوتوبيا لا يرتضون أن يدخروا شيئاً لأن دبح حيوان من شأنه أن يبلد الاحساس بالرحمة التي هي من خير ما ولد مع الإنسان . ولا يسمحون لخروج أن ترتبط حياته بشريك سقيم عنيل بسلامه يعيش حتى يعيب أحدهما اللحد وفوائسهم قبيلة وليس عندهم محامون !!

ولم يغفل مور أمر الحرب ، فقد جعل أهل يوتوبيا يدهون إلى ضرورة الذأب إذا استوحشت الحال ذلك ، غير أنهم لا يرون في الحرب محداً يحنى . أو ثمرة نحسى ويعتمدون أن مما يفرصه عندهم التوحش أن يقاتلوا إذا اعتدت أمة على حارتها أو حاولت إكساد تجارتها ، ويحجبهم أن

يجرّزوا نصراً دائماً على أعدائهم فلا يزالون في الحرب أهل رفق وإلقاء على خصومهم ، وإذا لم يكن من القتال بد فعليهم أن يذيعوا في بلاد العدو الوعد « باجزال العطاء لمن يقتل الأمير وغيره ممن أوقدوا نار الحرب » وهذا عدا ذلك يعتمدون الاحسان إلى الأسرى ليتألفوا قلوبهم « ولأن أكثرهم لم يقاتل عن رغبة في اهراق الدماء وإنما ساقته إلى الحرب طفوى الأمير »

أما من حيث العقيدة فهم يؤمنون بالله ، ولا يرون من حقهم أن يتصدوا لأحبه بعصب من حري أو معتقد . وحتام الكتاب رراية واستطالة على نظام الاجتماع الذى يترك الناس طبقتين : أغنياء متبطلين ، وفقراء متوجدين .

وهذه خلاصة وحيرة صورة الحياة الكاملة فى رأى مور . وقد يلاحظ أن مثل هذه الآراء والصور إما تظهر فى العصور التى تؤذن بتطور كبير ولعل القارئ بعد هذا يتساءل ، وما معنى « يوتوبيا » وأين هى ؟ فنقول . معناه . لا وجود له « وكذلك الكمال فى الدنيا لا سبيل إليه .

ديوان العقاد

ترجمة شيطان . من نار إلى حجر

فى حومة السياسة الآن ركبة قصيرة الأجل ، يرصد فى خلالها كل فريق أمله ، ويحشد لما بعدها قوته ، وغداً سنشيع من الطفل وحصيل ، ومن أنواق الدعوة إلى أقدم النضال . فما علينا لو اهتمنا هذه الفرصة وكفصا مكر فى حلبة الأدب ؟ فى ميدان خالص لوجه الإنسانية قامة ، لا تتلحج فيه إلا القوى النزاعة إلى الكمال ، ولا تشرب فيه العيون إلا من مثل الجمال والجلال ؟ ؟ نعم ماذا علينا وأى بأس من ذلك ؟ أليست حياة الأدب خاصة ، والفنون عامة ، هى طبيعة كل نهضة سياسية وجمعية ؟ أين فى التاريخ أمة وثبتت إلى الحياة القوية دون أن يهينها لأدب أسب ؟ أليس الواضح الذى لا يحتاج إلى إيالة أو تدليل أنه لا بد أن يقطع المرء بر وجوده ، ويعرف نفسه ، ويدرك صلتها بما حوفا ، ويطلع على حبيب حياته ، قبل أن يسع مجموع الأمة أن يقدر وجوده وحقوقه بين أمته وأنداده ؟ لا ريب أن هذا كذلك ! وإنما لمن أعجب انفسه أن يصطر حجة إلى الدفاع عن نفسه وتسويغ عمله فى مستهل كلام له يهم به على لأدب حتى فى وقعة المعركة السياسية !! وكان حسب كل ما أن يسأل عنه أية حيلة شاعت مثل الحياة العليا بين الجماهير الساذجة ؟ وكيف شغعت من النفوس كل خلية ؟ وما الذى أعد القلوب لأحبياء الأمل قومية على هواها ؟ ولعمري أن هذا لبعض ما يؤديه الأدب لأنه عنى فى آثاره كما هو أساسى فى بواعثه الأولى . ومن ترى يسكر علينا قوتنا هذه ممن يعلمون أن مجرد انتفاء الأمية بانتشار القراءة والكتابة يكمل لشعوب الأحاد بأسباب النهوض ؟

وكانى بالقارئ قد طالت به الفاتحة وشقى صبره فأحب أن يخلص
منها إلى الخاتمة ، والعبرة بها ! أليس كذلك ؟ فهو يقول « وماذا بعد ؟ »
بعد أن أتناول العقاد أصدر الجزء الثالث من ديوان شعره فى ثيف ومائة
صفحة رُحوف الدقيق وليس هذا كل ما قاله مد ظهر حزنه الثانى ولكن
طائفة كبيرة منه لا يسعنا أن نتناولها كلها قصيدة قصيدة ولكننا مجتزئون
بواحدة منها لغاية منجلوها للقارئ .

لأول مرة فى تاريخ الأدب العصرى - والعربى أيضاً - يرى القارئ
عبدًا فنيًا تأملًا قائمًا على فكرة معينة تدور على محورها القصيدة وتجول
وعن حد من ضمير ميرات الأدب الحديث وأكبرها . فقد كان الرجل يقول
نفسه مسوقًا فى قصيدته ساعت مستقل عن النفس ولكنك هنا ترى بناءً
منبسط تحت فكرته نسيب مفهوم وعة طبيعية مشروحة وأعمال الشاعر
تدحى فى حمتها وبخاصيتها ثم أفرغها فى قالب تحيره لها بعد الروية .
وعرضها فى أسلوب فنى موسيقى أبدعه لها .

فأما موضوع القصيدة - كما هو ظاهر من عنوان هذا المقال فترجمة
شيطان - .

سأله - من دى عقل لعيب
مى لأش به روى الرحيم
غسق الظلماء فى قاع مقر
عبرة ، فاسمع أعاجيب العسير
بهم سبيل لى لأش عقل فيها من يشاء فحار نادى الرأى أين
بعضى

يد أن الشر ما زال أريباً
ومسيل النى بمهود الجناب
لبن تراه حيث تلقاه ريباً
لبد الدهر ولا نزر الصحاب

فهبط أول ما هبط فى أرض الزنوج حيث :
لا ينام الظل فى أرجائها
وهمو ظل عليها قائم

فاحتقرهم الشيطان اللعين المزهو ، وسخر من قسمته « ومشى بغيره
فى غير طرب » إلى أن استقر به المقام « حول بحر الروم أو بحر العم »

ورمى أول فسخ فأصابا
ودعاه (الحق) واستلقى فنام
وأتاب الحق عنه فاستجابا
فإذا الحق لججاج واختصام
وإذا الحق طلاء الخبثاء
ورسن الواهن ، سيف المعتدى
ضلة الجهال ، لغز الحكماء
ذلة العبد ، عرام السيد

وتماذى اللعين فى شره « كلما أتيت زرعاً يتعاً » غير أنه استهدف
للتلف لمداخلته الناس من جهات الضعف فى نفوسهم ، ثم أنف من قسوته
أنما هو يأنف من إهلاكها :

ما له يفسد خلقاً عديموا
آية الرشد ؟ وهبهم رخدوا
كلهم طالب قوت ، والثرى
- ذل قوم أو تعالوا - مخصب
وقصارى الأمر فى هذا الورى
راسب يطفو وطاف يرسب

فكفر الشيطان بالشر الذى تدبره كفاء ، وودنت كفر شر من الكفر

سبحير « لأنه يرى الخير أهول من أن يستحق العناية بإراتته ورصد المكائد
به فلراشد والعاوى عده سيان » وعد الله منه ذلك ندماً وأدخله جنته
وعصوا من بعمة الله العحاب وانظروا كيف تلقاها الرحيم
فنزول الشيطان من الجنة « منزلاً يرضى به الفن الجميل » :
ونفيض الوصف لولا أننا
نصف الدار لكم يا داخلها

عن أن شاعر مع ذلك لا يسعه إلا أن يطيع قوة خياله وإلا أن ينزأ
في حكم شاعرية الصخمة ، فآلم بصورة حلابة من إبداعه في عش
متبوعات غير أن الشيطان لم تحلد نفسه الخبيثة إلى الخلد فكان « يزداد
من تسبيح فضا وطرقت الملائكة إن وجهه فرأت شيئاً عجيباً لم تألفه
كان ركاً في رفقة منها فوق السلسيل » مركباً يرحيه سلسال النغم
وم تددت لأمر ستموا وبموا نوم الأطفال غلب عليهم الملل ، وتساءلو
ندھشتهم وطهارة قلوبهم « هل الليل الذي يصيب أهل وادي جهنم هو
هذه الفترة التي تجلب النعاس للعين ؟

فانتفى العباس وقاد الجبين
صارخاً صرخة مقضى الملاك
أى واد ؟ قال وادي الكافرين ،
قال دع هذا فما أنت وذاك

سأل ملائكة كيف ترونها فقال أحدهم إنها للفائزون

قال لكني أراها كلها
وأراكم قبل ، أشقى ما يكون

قد غرو : كالخيش في هول لبرار » وساء لهم أن لا يخدمهم في الجنة
وأن يكر عبيد اسعددة ويسلمهم إياها ماكرها ، وبعض عليهم مقامهم

في الفردوس ، ويعلمهم ما لم يعلموه من الغضب ، ولطف الله فلم يرحموه
بالنجوم . ثم أوحى الله الوحي في جنته :

فإذا الجنة أمن وسكون
كسكون الليل في ضوء القمر
خشت حتى الشوادي في الفصون
وصفت حتى وريقات الشجر

وانجلي الموقف « عن جلال الله فرداً في علاه » :

وتنحي كل مشهود فما
ثم إلا الله والطاغى المرید

وحاقت اللعنة بالجاني الذي لا يندم ، وجهر اللعين بعصيانته ، وأخذ
يرره بكرياء لا تسمح له أن يطلب العفو أو يصمى حتى يوم إرجع
يستصغر الفردوس لأن له رحاء فوقها ولذلك لا يسميه فردوس ولا يعد
الرضى به نهاية السعادة كما أن الصب يرضى بحجره وليس حجره أقصى
ما ترتقى إليه الأمال وجعل يتسخط قيمته ويقول كيف يرضى بهذه فسمة
الحالدون ؟ أيعافون ذلك الشأو الذي فوقهم وهو لا يعاف ؟ أو يحبهونه
والجهنم نقص في مرتبة الحلود ؟ أو يضوبونه فلا يسوبه فيكونون من
المحرومين ؟ « فرأى الله من الرحمة بالخلق أن يخمد جذوته :

حين جارت فتنة الغاوى على
عصمة الأملاك في عزتها
عجل الله به ما أجلا
وحى الدولة في يفتتها

فمسحة سحرًا ! ولكن هل يروى القطع ؟ إنه لا يروى يستهوى العفون

في الدمي والتمثيل . ولم يأسف عليه إيليس بل عجب كيف طاش لسانه
وأخذته العيرة على الصراحة وشك في أنه شيطان صميم - :

أفرى شيطانة من قومنا
أغوت الأملاك فهو ابن ملك ؟

الأدب ينهض في عصور المشادة لا عصور اللين والأمن كتاب الفصول

مجموعة مقالات في الأدب والاجتماع ، وطائفة من الخطرات
والشذور في موضوعات شتى ، ينظمها في سلك واحد تيار الفكر الذي
أنتجها وما بينها من التناسب والاشتراك في المنحى : فمن نظرات في
فلسفة المعرى إلى نقد لسير الرجال وتقدير لحياتهم وأعمالهم ، ومن مقال
في الألعاب الرياضية إلى ساعات مقضية بين الكتب وآراء في الشعراء
وحارجاتهم ، ومن تحليل للإحساس بحمال الضيعة وتبين موضع صلاحة
في الإنسان ، إلى وصف لمغنى المجالس ، ومن « جولة في الماء محدودة
وجولة في السماء غير محدودة » إلى آراء في الأساطير وقد كتبت وبعض
لما يلقاه مثل شارل شابلن من الحفاوة في حيشما حل .

ولو شئنا ، وكان ذلك يلائم مزاجنا ويليق بمهمة النهضة بالأدب
وخريره ، لباهينا بامذهب الحديد فيه وبغوره على صروف الاستعداد حتى
فمت به وعالجت حنقه ، فقد خرج من كل ما حاص من معرث من هذه
الساعة . صادق الحولة تام الآراء ، مرأى من عيبين على وجه مخصوص
معدل الماضي البائد ، ومطيش الاستفال وما نعري به أدوار المقدمات لأغنية
من التعلق بالتصرف ومحاوره المدى المعقول ولحد نفسي على وجهيت به
من مور على الاستعداد السياسي الذي تعالبه الأمة ، ونخرج مررت به . وصبح
من أذاه مد سبر على فرض تشدها ، وعنت التحير لدى بأى إلا أن

وليس ما أوردناه من خلاصتها إلا هيكلًا عاريًا لهذه القصيدة التي تقع
في أكثر من ثلاثمائة بيت على هذا النسق البديع الرائع وقد كان الباعث
من وضعها ما انتاب الشاعر في أواخر الحرب وفي لبنان الحوادث المصرية
من الشك والغيظ للذين رجًا عنده « كل قواعد الرأي وشوها كل
نوع من لوجود الإنسانى فوق عنده أن الحياة ، كما قال سليمان الحكيم بعد
قص الریح ، وباطل الأباطيل » ولكن هذه الغيمة انجلت فعاد
في رايه الأول « في الحق والعدل معتقدًا أن الحق كائن في صميم الأشياء
وأن الوجود والباطل تقيضان لا يتفقان إلا كما يتفق الوجود والعدم » .
في هذا الكتاب خمسة عشر فصلًا التي دفعته إلى صوغ هذه الآية
فيها من بعد « وشي حق » إلى ساهى بها براعات الغرب . وإن
في فيهورها لتدليلا على انتهاء دور التمهيد الذي اضطرننا إليه ركود اللغة
وما عدة واتنا الآن في دور البناء الفنى ، وإذا كانت اللغة قد اتسعت
من حشنى من هذا سبق فبى من نصيب عن غيره من مور الشعر
نحمد الله ثم بفضل العقاد .

يقضى - لو استطاع - على ما لا يحب أو يخاف أن يظهر ، واستبداد
 التعصب حيال الجديد ، واستبداد الشهرة الذى يمكن صاحبها من تخطي
 الرقاب والاستعانة عن الاخلاص والصدق ، واستبداد الأغلبية العمياء التى
 يفتها العنثون والمخالون بالكلام الخلاب والعبارات الجوفاء ، ثم استبداد
 الجهل الذى يجعل كل ضرب من ضروب الاستبداد الأخرى ميسورة
 مستغلة

فاز المذهب الجديد على هذه وغيرها من صنوف العنت وضروب
 لاستبداد ، ولكن العراك العنيف الذى دارت ارجاؤه لم يستمر - كما يحدث
 كثيراً - العواطف الدنيا ولا شيئاً من الشهوات المردولة أو الطغيان الذى
 يحيل النصر فى آخر الأمر شراً من الهزيمة ، لأن دعاة هذا المذهب يفهمون
 الحجة على حقيقتها ، ويعلمون خفيته وحدها ، ولا يشدون سوى تنبيه خير
 فى صيغته بأسية . ولا يطلبون أن يرفعوا بير الجهل ويصكوا القيور
 برفه وبحر . يستندون غيرهم ويضعوا اللحم كأسلافهم فى الأمواه .
 وأنتهوا حول الأعصاة ، ولعنقات فى سبيل النفوس الناشئة لسائرة على
 يحتذى مرة مثال رجال الثورة الكبرى فى فرنسا .
 ما عاد المجد القومى على
 يد يونانوت ، ان أقاموا مقامه الاستبداد العسكرى ؟

... .. أن دعاة المذهب الجديد
 مستعدي شاة من شاة ومقاومة بالحجة الدامغة
 المذهب القديم لا يعول على حجة ولا يستند إلى
 عقل ، فكان وما يزال حسبه من المقامة الاعتماد على الجهل الناشئ وعلى
 عصبه حنايفه الخطيئة القديمة وعلى الضعوه الطبيعية
 من جمع حول النفوس عما أمت والقلوب

عما اعتنقت ، بالغاً ما بلغ ذلك من الخطأ والفضلال . ولاشك أن الأدب
 على الخصوص خطا خطوات واسعة فى هذا الجيل وأن تهصته هذه لم
 تكن فى ظل الحرية ! أفليس من المعجب أن يشأ فى مقدرات صاحب
 وأن تصبح هذه البلاد مهد الأدب والتهذيب فى الشرق على
 فيه من الأغلال ؟ ولكن هذه الطاهرة ليس فيها شيء من
 فذة نادرة فى تاريخ الأدب فى الأمم الأخرى . ووقع
 الاستغناء هو أن من المشكوك فيه حداً أن تستطيع
 القومى والرفاهية المادية أن تأتي جليلاً فى عالم الأدب والفنون . ولقد
 كانت أرمي وأمجد عصور الأدب فى احلثرا ورومية هي عصر
 كانت فيها هاتان الدولتان تذودان عن كياهما وتخصص
 عبيهما وينذرهما بالإلواء بهما . ألم يكن عصر اليصابات مقاومة مستمرة
 لعدوان اسبانيا فى الخارج ولشئى الحصوص فى الداخل ؟ لم يخرج فرحين
 وموراس وليفى وغيرهم من كتاب « العصر الذهبى فى رومية » حبيبه
 فى أباد الحرب الأهلية الكبرى التى جعلت أعظم مصير
 مشرة ؟ وتأمل بعد هذين ، ألمانيا أيام تفككها وخلافه . حين كانت
 ترهقها عشرات الحكومات الصغيرة المستبدة والأويحركات والامرات
 والأسفليات ومدن الامراطورية « الحرة » ؟ لم يكن فى باب بيت عهد
 من حر سوى الفكر . ولقد كان فردريك الكبير يفكر - لاخذ فيه - من
 رجاياه على أن يفعل ما يشاء وأن يدعهم أحراراً فيه يرشون وغيوب
 ما فرنسا فكانت منعصبة فى التوسع عارقة فى لحد نظريات سيمية
 سرقة لشهوة الفتع ، وأما احلثرا فكانت تثرى وتنعم حبيب واستدرد
 شهوة الرحاء المادى على حين كانت ألمانيا المقسمة شدة مصححة بر
 نعمها وتقعدها الدسائس والأحقاد الورثية دولة عقل
 « ملك السماء » كما شاء رومة ألمانيا ، حد سول رحتر ، أن يقول - وشبهه
 بهذا ما حدث فى إيطاليا قبل بيف وثلاثمائة عام حين أحرقت نعام
 سادة النهضة الأدبية والفنية فيما يسموه عصر اريستاس ومثل هذا

أيضاً وقع في بلاد الأغرقي قبل ألفي عام أو أكثر . وهذه الروميا غير
ذاتها ، فحببه من سحر في ظل الاستبداد القيصري مثل تولستوي
:دوستفسكي وترجينيف وجوركي وهاترياشيف - ولينين أيضاً !

وتعليل ذلك سهل . فإن عصور الأمن عصور طراوة ودعة لا تحفر
فكر ولا تستثير قواها الكامنة ، وعلى النقيض من ذلك عصور المشادة
التي تحرك غمق النفوس وترزق كل تياراتها ، وتنبعث رواقدها .
لما تتطلب طبيعة العراك من استمداد كل قوة . نعم إن عهد الاستبداد يقرى
لنفوس بالتألمس الفرار من الاحساس بوقع الظلم ومرارة العسف ، فيكون
الغضب من أسبابه . ولا يفرط في معاقرة اشبع الضئيلة واللذائذ
التي لا يكف سبب إلا النفوس الحدياء التي لا حير فيها من
الغضب . فلهذا عصورها تمل نفسها وما حولها ، ودرس هاتين
الغضب . وفيها عصبها من بعض ، ومعانحة جعل ظروف الحياة ومن
الغضب . وقد لا يسبح في الاستبداد إلا توحى ما يحسه أسلم الأعمال
التي معها . كدفع الرويت وهو ما جرى في أوروبا . ويظن المستبدون
أنهم في هذه ولا يلبس منها ! كأن تصوير ظروف الحياة ووقعها
في بعض ، يحرق عن كيف هذه الصورة لنفسه وجمع شتاتها وتقدم
التي لا تلبس في كثير من جماعته وحفرها في نشدان ما ينقصه
الغضب . وهذا حيث أن بعض الفياض كان يستمع إلى روايات
التي تسميها في غيره . ويصحب ويعجب نهارة الكاتب وصدق
عصره ، أدقة حسه . وفي كل شيء من هذه الروايات بعضها هي التي
تسبب من هذه الروايات ما نشأت في نفوسهم وسببت ! كما كان لويس
في عهد استبداد . في "صحك وإل كانت على حد
من أول بواغث الانقلاب الاجتماعي !

إذن فلا عجب أن يهبط الأدب في عصره . وأن تكون بهيئته قومه
خائفه تعثر على عذبه . وتنتج أدب شكلي أي ألقها السعيد . والاصحاب

التي مدتها السخافة والجهل ، وإن المرء لشعروه هزة جذل حين يرى كتاباً جامعاً كهذا الذي أخرجه أئوتنا الأستاذ العقاد وكتب به للمذهب الحديث نصراً جديداً ، وفوراً آخر مبيناً . ومن ذا الذي لا يفرح لتحرر العقل وخففى أجنحته فى الفضاء الطليق ؟

ولقد كانوا يعيبون على المذهب الجديد أنه يهدم ولا يبنى ، كأنما يمكن أن يبنى المرء قبل أن يزيل الأنقاض ويصلح الأرض ويعينها
ما عساهم أن يقولوا ؟ هذا كتاب كله بناء وتشيد ، فهل يفرح الحاحدون كفرحنا به ؟ لا نظنهم يستطيعون ذلك ! وما كنا لنطالبهم بما يقوت ذرعهم ويخرج عن طوقهم . إذن فليخصوا به إذا شاءوا !!

ماكس نورداو

(١)

رأيه في مستقبل الأدب والفنون

أصبحت يوماً على ذكر ماكس نورداو ، وأكثر ما أذكره إذا جئحت نفسي إلى الرضى واستشعرت التفاؤل ، أو إذا برمت بهتر الأدعياء وفسطائيتهم ، أو أكثرت من قراءة القصص ، فهو عدو دواء أخرج مد على قدر الحاجة ، وأكافح به وبأمثاله عدوى أساليب التفكير شائعة ، وأدفع فتور النفس ، وليس ذلك لأنه من المتطيرين ، فإنه على نقيص ذلك يذهب إلى التفاؤل ويلجأ به الأمل على الرغم مما يشهر به ويبعد من الأصمعة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية ، ومما يعرضه على قرانه من مظاهر الانحطاط والمستيريا في الفنون والشعر والفلسفة وهو قد يشد الإصلاح بقوة البيان ، ومرارة اللسان ، ودقة التحليل ، ويصوح السنين . لا متسخط ممن يكلفون بدم كل ظواهر الوجود المعروفة ولا يرون حياة إلا حالة سخيفة لا غاية لها ولا معنى فيها . غير أن تدوئه هد لا يعنى انقراء ولا يكاد يتردد له في حواسب النفس إلا صدى يذهب بأسرع مما جاء ولكن للكلام في هذا أوانا لا نستعجله .

ذكرته فامتدت يدي إلى كتابه الذى طلق فيه نظرية موريس ونوررو في الانحطاط ، على المؤنمين وبحال انقواء ليصحح ما يأخذه الجمهور عن كتاب والفنيين والشعراء من المثل العليا للحمل والآداب وفتح مكتب من آخره فأحدث عيني قوله منكهة باستقبل البعيد لشعر وغور

قوى دفعه تستخدمها لإنتاج ما ليس في الغالب من العايات الأولى هذه
 العواطف التي لولاها لأض الإنسان كتلة من اللحم والعظم لا خير فيها
 ولا غناء عندها كما بين ذلك لوردانو نفسه في كتاب آخر . ولا بد من تحريك
 هذه العواطف تحريكاً حديداً في بادئ الأمر ليستمتع المجموع من الفرد . وأنت
 قد تعلم أن العادات والأنظمة الاجتماعية ليست إلا أقتية ومسارب تتدفق
 من عواطف شتى ويستمتع بها ويتأذى تسجيرها . أليست عاطفة الحب
 هي أصل نيل نداء سوع عامة وفي نظام الزواج خاصة ؟ وعاطفة الرحم
 ليست هي معب مد نظم الاحتماعى على ما فيه من مظاهر الأثرة والظلم
 ... من شئمة من تعاطف الذى هو أصله ؟ ثم أليست الأثنية هي
 صل القضية ؟

والصبيغة البشرية ثابتة لا يلحقها نقصان ولا يطرأ عليها زيادة وهي مثل
 ... لكف قطع زجاجها الملون التي تمثل عواطفنا وأماننا
 ... إلى الخير والشر وغير ذلك وتزواج
 ... ولكن العناصر المكونة لها تبقى على حالها
 ... لا يطرأ عليها نقص ولا زيادة

... مستقبل سيكون قائماً عندها مس
 ... كانت الدنيا ومن ذا الذى يظن
 ... معصية قل أن يهتدى إليها الناحثون
 ... مسافرة متدافعة قل أن يوفق بيوتون
 ... كانت العين لا تلتد ما تأخذ من الألوان
 ... لأنهم فلم تستشعر العين لهذه الألوان
 ... ولا بعد أن قد على ما شدة هاهنا
 ... أن الاحساس بالألوان

والأنفام رهن بالنسب الحسابية والهندسية البسيطة أو الذكبة بين حركات
 الأثير أو المادة ؟

وغير منكور ولا مردود أن العقل مسيله أن ينشئ عن الشيء كل ما هو
 أخشى عنه ، وأن أبحاث العلماء قد صيرت أفق المدارك أوسع ، ومرامى
 الفكر أبعاد ، ولا شك أن أهل النظر والاجتهاد المخلصين قد أحصوا
 وسجلوا واجتلبوا المنافع واستدروا المرافق ، غير أنه مع هذا - عن قول
 شيللى - لا تعجز أن نتصور حال العالم لو أنهم لم يكونوا ولم يحشوا .
 أو لم يحشوا ولم يحققوا - لا يُعينا أن نتخيل العالم حديداً من حصى حديد
 والمصانع على تعدد شكولها ، ومن المعارف العلمية والاقتصادية والسياسة .
 ومن آراء الفلاسفة وعشاق الإنسانية . أليس كل ما كان يحدثه فقد حدث
 أن العالم كان يمضى فى هذره القديم وخلطه الأول وعنهيبه نسفة فرد
 أو عدة قرون أخرى ؟ وإن عدداً من الرجال والنساء والأطفال كان يرمى
 بالكفر والالحاد والمروق ويعرق ؟ ولكنه من وراء الطاقة أن يتصور مرة
 حال الدنيا لو أن الشعراء لم يكونوا ، والفنمين لم يخلقوا ، ولم ينشأ
 شعر العبرانيين ، ولم يستأنف الناس دراسة الأدب الاعريقى . ولم يتعمق
 فيهم شعر الأديان القديمة البائدة مع عقائدها . وبالجمله خلق العالم من
 كل أسباب الحياة . أكان عقل الإنسان يعيش من رقاده شيء لولا هذه ؟
 أكان يتاح له أن يحيط بما أحاط أو أن يخوض حيث حاص ؟

ومعلوم أن الآداب والفنون إنما أتت النفس أولاً من طريق انصاع
 والحواس ثم من جهة النظر والروية ، فهي أمس بقوانين الطبيعة رحماً وقوى
 لديها ذمماً ، وأقدم لها صحة ، وأكد عندها حرمة . وليس هذا الرقى
 إلا تطوراً فى الحق . والفرق بين حياة الإنسان فى عهده الحدث وبينه
 فى ما سلف ليس فى الكيف ولكن فى الكم ، وفى المفاهيم وليس فى
 الصفات الغريزية . هذه هي القضية المبرمة الثالثة . فإن قلت : عدداً عماك
 تقول فى محترعات العصر الحاضر وفى امتلاك الإنسان رق الطبيعة بها ؟

القوة الدافعة ومقاومة الجماهير نظرية الحاجة

قال ماكس نورداو في كتاب « المتناقضات » :

« من حيل الكلامين أن يقسموا الإنسانية إلى شطرين : رعية كبيرة وطائفة قليلة من الرعاة ، ولكن من الخطأ أن نقول إن بضعة عقول خاصة هي القوة الدافعة الوحيدة وأن تصور الجماهير كأنها العفة المعتصمة ولا يسعى إلا أن أعترف أني ظلمت ربما طويلاً أشاطير الفلاحين وحطائهم ، وكنت أذهب إلى أن الجنس الأبيض كره يحسن أن يترك ومستوى العصور الوسطى ، بل إلى ما هو وراءها أو قبلها لو أن عشرة آلاف الذين هم أمهر معاصري وأذكاهم ، والذين يحيل إليهم عدد مدنيتنا الوحيد ، فصلت رؤوسهم عن أجسادهم . غير أنني الآن لم أعد أعتقد هذا الرأي وذلك لأن اسمي صفات الإنسانية ليست ميراث تتوارثه قليلين دون سواهم وإنما هي صفات أساسية موروثة على أساس جمعي . شأنها في ذلك شأن الأعضاء والأنسجة والدم ومادة لدن الجسم . ولأشك أن لبعض الأفراد نصيباً أوفر ولكن لكل فرد حصص من هذه الصفات .. صور لنفسك طائفة من الأوساط العادية ليس لهم موهبة عقلية حصة أو معارف فنية غير ما يعيده امرء من مطبعة مقدمات صحف أو أحاديث المحاليس ، وهبهم تعطلت بهم سفينة وقدوف بهم حصص من حرية حرءاء . فمادام يكون مصيرهم ؟ لا شك أنهم في ردى لأمر يكونون أسوأ حالا من مستوحشى البحار الحويبية إذ كانوا لم يعودوا أن يستخدموا مواهبهم الطبيعية ولا يدرون أن في الوسم أن يتناولوا صعدهم دون أن يقدمه إليه الخدم ، وإن الأعداء يوحدهم في حيث لا أسواق . ولكن

قلنا لك ليس من قصدنا أن نتقصها ، وما تنكر ما لها من شرف المثل وحسن الحصر وحسن التأثير ، وإنما نروم أن نبين لك أنها لا تدل على مزيد حتى لا نرى من حصر وحشود ، واستأثر بها رسماً واستبد ، ذلك لأن الاختراع والاكتشاف إنما يؤدي إليهما النظر وحسب الاستطلاع المركوزان في الطبائع المركبان في الجيلات ، وهما خاصتان في الإنسان لم تزيلا في كل من من لأشهر وكر عليه من الأدوار ، ولئن اخترع اليوم نظيرة وكشف عن الكهرباء ، لقد اخترع قديماً المساكن والثياب وقطر النار . فالخاصة الإنسانية والقدرة الطبيعية اللتان أفضتا إلى الاختراع والاكتشاف ثابتتان لم يعدمهما الإنسان في زمن من الأزمان وإنما الذي يقع عليه الاختلاف وتباين فيه العصور ، الأعداد والكميات وما كانت هذه تنكسب الإنسان الحديث مزية تحيله عن أصله وتخرجه عن فطرته .

وقد نسي نورداو فيما قاله عن القصص الخرافية - أن الزمن إذا كان حراً حتماً تتبدل مكانيات الروايات السيكولوجية وشاعت على نحو لا نظير له في ما مضى ، ولم ينبج من تأثيرها ولا قاومه حتى العلماء مثال : دار نفسه الذي وضع عدة روايات وإن كان يقول إن أهل الجدد لا يرونها حقيقة بالعناية !

« نحن نرى هذه الحجة يوم هي لا ساعة وإذا بالبرق يبعث إليه نيراناً من تحت الأرض والاعاق وقد كان عسى أن يقول في مثله ! « لا في الدنيا من أسرار والغاز لم يستطع العلم أن يحلها !

« ... أن أسمي هذه الحجة في مستهل الكلام عن نورداو وما يصنع مقال واحد حديث ، فإن الرجل لم يدع نادياً من أبواب القصر وانسحب إلا بعد أن قد مضى منه إلى معناه من ... وهو يذهب ...

هذه الحالة لا تطول ، وأخلق بهم أن يفتنوا إلى ما كان خافياً عليهم من
عوسهم وأن يوقفوا بعد ذلك إلى اختراعات مهمة ، فيظهر لهم أن لأحدهم
مهارة حسنة عظيمة ، وأن الآخر مواهب فلسفية ، وأن ثالثاً قد رُزق القدرة
على التنظيم ، فلا يلبثون أن يعيدوا في خلال جيل أو جيلين تاريخ التقدم
بأسى كنه ، وما كانوا قد رأوا الآلات البخارية - وإن كانوا على الأرجح
لا يعرفون عن وجه الدقة كيف تركيبها - فسرعان ما يهديم التفكير إن
أصل المسألة فيصنعون لأنفسهم آلة من هذا النوع .. وهكذا في غير ذلك ،
يصبح هؤلاء الأوساط صوراً مصغرة من تيوتون ووطنس وهلمهولتز ،
وجراهم يلز لأهم بين ظروف المدينة كانت تعوزهم تلك الفرصة التي
أتاحها لهم الجزيرة الجرداء .

بغور نورداف في ذيل هذه ولا أحتاج إلى عناء كبير لأعتقد أن في
البحر غنى شيوخ ، مواهب يمكن أن تجعله عاملاً كبيراً في تقدم
العلم .. كل ما يحتاج إليه الأمر هو أن يضطر أن يصير كذلك . كما يمكن
حدد حد من أعصاب الأشجار إذا ذُليت وغرست رؤوسها في الأرض
، كرهب هذه طريقة على انتصاص الغذاء اللازم لها من الثرى .

وبعارة أخرى يقول نورداف : (١) إنه ليس ثم قوة دافعة من شواذ
الأفراد وغنى معدنية من كنه الجماهير و (٢) إن الصفات الإنسانية
خُترت فيها ثمن جميعاً وإنما تفاوتت الأنصبة و (٣) إن الضرورة
مدعة الحد وسمت التفكير العميق وأم الاختراع و (٤) إن تاريخ
نرمي الإنسان حقيق أن يتكرر هنا على وجه محتمل وهذا هو مالا خلاف
يسر وبه فيه . وفي كلامه فيما عدا هذا مواضع للنظر .

إذ صح أن من الخطأ أن يذهب أحد إلى أن المتفوقين هم القوة الدافعة
وأن الجماهير غلبة معترضة . فليصور القارئ حال الدنيا - دنيا الإنسان

كيف تكون وأي رقى يحدث إذا لم يظهر فيها أناس يمتازون بجرأة أو أمل
أو إرادة أو عقل ، أي بنصيب أوفر من نصيب الرجل العادي من المواهب
والمكانات والصفات الإنسانية كما يقول نورداف . لا علماء يخدمون النوع
بما يحصون ويقيدون ويستنبطون ، ولا أدياء أو فنيين يوقفون الحواس
الراكنة ، والمشاعر الخاملة ، ويملأون الصدور ، ويحركون الطبيعة
البشرية ، ويستحثونها على نشدان الكمال والتماس تحقيق مثل عينا التي
يرعون إليها ، ولا يفتحون العيون ويوقفون القلوب على عظمة التحلل
والأبد وحق ، ولا زعماء ولا قادة يغرون الناس بالمدح . ماذا تصير حياة ؟
هشيماً يابساً ولا شك . وأخلق بالجنس الإنساني إذ أن يعود كغيره من
أحاس الحيوان . وأن يروح الآدميون ولا عمل لهم في الحياة سوى الصعد
وتشراب والتناسل . لا يتميز بعضهم عن بعض إلا بضخامة الأجساد أو
ضآلتها ، ومتانة العضلات أو رخاوتها ، وحنة الأنياب أو كلالها .

ثم ليتصور القارئ بعد هذا أن الجماهير الإنسانية لا تقاوم ولا تنف
غلبة في سبيل سعى ، ولا يحتاج الشواذ الأفاذا أن يحروها ويعالجوها
بمختلف الوسائل وشتى الأساليب لتبعضهم وتسايرهم ، بل تجيب كل
مهيبة ، وتعنت كل جديد ، وتلبى كل دعوة . ونضرب مثلاً متطرفاً
بعض التطرف لتعين القارئ على تصور الحال ولحصص في ذهنه مثال
ما ندعوه إلى تخيله . فنقول إن الحج في الإسلام أشق قواعده والذي
لا طاقة لكل امرئ به ومن أجل هذا لم يحتمه الشارع تحميلاً لا مفر منه
ولا معدى عنه بل فرضه على المطيع دون طاهر العجز عنه . فهذه رحلا
ما قام يدعو إلى دين هو كالإسلام في كل مادي وجل من أحكامه وأصوله
أدله وأوامره ونواهيه ولا يختلف عنه إلا في إسقاط الحج وغريمه على
ساعه . أنقل الناس يسرعون إلى الدخول في هذا الذي ليس فيه من جديد

على الحقيقة والذي لا يختلف عن الإسلام إلا في هذه القاعدة وحدها
ولا نقيض في المسألة بل ندع للقارئ إتمام هذه الصورة التي رسمتها
معالمها الكبرى .

ولو أن الجماهير تبذل قيادها لكل مهيب بها لعاد المجتمع ريشة فر
مهاب الرياح لا استقرار له ولا انتظام ، يساق ويدفع إلى كل ناحية ،
ويتقدم ويتأخر في كل اتجاه . لأنه لا يكون في هذه الحالة على الأفراد
ممتازين إلا أن يفكروا ويريدوا ، ولا على جمهرة الناس إلا أن يترجموا
خواطرهم إلى العمل ، ويخرجوا إرادتهم في صورة محسوسة ملموسة كأن
كانت هذه الفكرة أو الإرادة . ولا أدري حينئذ لماذا يكبد الرجل الممتاز
مع نفسه ويكتنه تفكير ويعالج انصاج الرأي وليس ما يدعو به إلى
العمل ، الأمر لا يكلفه إلا أن يريد فيكون ما أراد ؟ ونورد نفسه لا يحترق
من الأمر ليس كذلك . وهو يقول في موضع آخر من كتاب المنطق
في حكمة جود وسرد وماذا غير ذلك مما يتهم به الرجل العادي ،
إنه لا يبادر إلى التسليم أمام حملات الرجل العبقري ؟ ألا إن هذا هو
مشاؤنا ؟ من نحن هنا نسعى أن يبارك الرجل العادي . فإن ثقله أو زنه
منه لا يسير معه بجمعه وعد من الجهار الرياضي أو صمد
من الناس به حجة رجل ممتاز استند أن يحتج قوته وأن يصاعف
بها من لا يستطيع من شئ الأمور ابتعث الأوساط على الخزي
وحسب معجزة هذا مديح فلا يزال بحرب حتى يفور بالبحاح .

وهذا صحيح بل مقدمة اني يتقدها الحديد هي ان تكشف من
مربته انظر نفسه وهي كذلك انصاف لا لا يحج إلا الأصلح والشر
وأي القوة الخفية وفي حسب اللازم من ملائمة الاستعداد له ، ولا
لا يكون الأصلح لأن صلاح ملائمة ، لا الفصل ، شرط البجاح

وليس على القارئ ليدرك مبلغ المقاومة التي تبذلها كتلة الجماهير إلا أن
يفكر في بقاء التغيير الذي يلحق الأنظمة من معاشية وحكومية وقانونية ،
وكيف أن فيها الكثير من المسخطات ومن بواعث الألم والكرب والضيق .
وكيف أن المرء مهما كان رأيه في العرف الذي أمده حتى ، ومبوع استفاد
واعتماده بنفسه ، لا يسعه على هذا إلا النزول على حكم الجماعة في كثير
من العادات . وما لذي يصون القانون ؟ أم قوة حكومية أم أي قوة
أي قوة العادة والعرف ؟ والقانون نفسه ماذا هو إن لم يكن رأى الجماعة
في صورة أوامر ونواه ؟ والأنظمة الديمقراطية أليست مضهر من مضهر
فروع الجماعة إلى مقاومة الفرد الذي تحدثه نفسه بتسييرها كما يشاء .
وتأمل كيف كانوا في الأرمنة السالفة يخرقون أهل لا بدح ويختصمون
حاضيه آفاقاً مؤلفة وهم يشتوون ! لا شك أن الحيل به دخل كس في
هذا ولكن ذلك لا يحيل المسألة عن أصلها .

• • •

ورأى برودارد قد تاح انقضاء وحكامه في اعتبار حجة كل حجة .
وعسرة مبعث الفكر ومدعاة الحد ، وقديماً صورته أيوسور .
احظوظ وزوجة «دمبورجاس» - صانع النعام ومكينه - ومقدر كسب .
وجعدوا سلطانها الأعلى ، وسطوتها التي لا ترد ولا تدفع وجعدوا
فوق رأس الآلهة أنفسهم ، وعزوا إليها حروب العمائقة التي دارت رحاها
بينهم في قديم الزمان قل أن يلى الخب - حكم نعام ومثو لأرض بدور
من معرظا الذي في حجرها . وكان المضربون لقدماء بعدها أحد باب
أنه يحضرون مولد كل آدمي . وثلاثة الآخرون هم الروح حارس وحفظ
• • • وكان للضرورة أو الحاجة في لغة كورثة معد يشترها
العلم . إياه ، ولا يؤذن لأحد أن يلمحه وقد وصفه هورس في حدى

قصائده بأنها « رائد الحظ ورفيقه » وأنها تحمل في كنفها التحاسية مسامير
هائلة ورصاصاً مصهوراً ، رمزاً لقوة الشكينة والثبات .

وانها لكذلك إلى حد لا سبيل إلى المبالغة في بعد مداه ، ولكن من
الاغراق في رأينا أن نزعها أصل كل اختراع ، وسبب كل اكتشاف ،
وسر كل فكر ، ووحى كل عمل . ولا شك أن الإنسان أحسن الحاجة إلى
ما يقبض له وترد وتخذ ثبات ، واضطر إلى المساكن فناها وأراد التحصن
والوقاية فشادها طبقات وأحاطها بالأسوار . واحتاج إلى ما يعجز الحيوان
عن تربيته ويغفده عن تكبره على مطاودته فاخترع السهام واستعملها ضد
خصومه وعدائه ، ولا ريب كذلك في أن الحاجات الجوهرية التي تُعين
صحة الإنسان على مقاومة الطبيعة ، أو تجعل الاحتفاظ بالنفس أسهل .
بأنه لا بد من ضرورة ولكن من العلو أو من السهو أن يحد
منه في ما يصور أن حاجاتهم هي عين ما نخس الآن من
حاجاتنا . فليس حياتهم على حياتنا . فاللار مثلاً لا غنى للإنسان
عنها والحياة بدونها لا ندرى كيف تلوم . وعلى أنها جوهرية في حياتنا
لا نرى أن الحاجة هي التي أغرت الإنسان القديم بالتماسها والتفكير فيه
حتى يحدس بها معه أنه كان لابد له من شدان الدفء بشكل من
الأساليب . سيب ومساكن واعدو والوث ، والحركة على العموم .
ولكن هذه من دفعه إلى أن كان محض اتفاق لا عمد فيه ، وإن كان بعد
منه من دفعه إلى أن كان إلهاماً بآكل اللحم بيتاً كالحيوان ولا تحسبه
شعاً بوجع الحاجة إلى الشيء فتسوى طعامه وطهاه . بل جاءه ذلك وما
هو إليه اتفاقاً . وأنشأ في عقب هذا ، الاختراعات والاكتشافات الحديثة
التي يفتح بعضها بعضاً ، والتي يكون من السابعة ولا شك أن مزعم الإنسان
حتى في حاضره الخافل تلج فيه الحاجة إلى تشداتها .

وعلى أنه يسعى أن يعبر بين حاجه الجماهير وحاجة الأفراد المتتارين

الذي لا يحتزؤون بالواقع ولا يقنعون بالحاضر والدين تسبق عقوضهم ومضالبي
نفسهم ، عصورهم . هؤلاء هم أول من يشعر بالتقص ويضبط الضرورة
وقبل وطأة الحاجة ، وهم الذين ينهبون الجماهير إلى ذلك ويشعروا
ما يعورهم ، ولا يرالون بها حتى يتبته في نفوسها مثل أحسنهم مصعب
ما يطلبون . وقد مرت بالأهم عصور ركود كثيرة انقطع فيها مدد العظماء
والمثاريين فقيت الجماهير حيث حلفها آخرهم . ولست على هذه حجة
التيهية بالجمود حتى تداركها الله . وقلما ينجح أول ممتاز يظهر كل
الحاج ، وحسبه من الفوز أن يقطع حجراً أو اثنين من جبل هذا الجمود .
ثم يأتي بعده من يواصل عمله ويتقدم خطوة أو خطوتين أخرى في التعبد
وفي زحرة كتلة الإنسانية وفتح عيونها المنعمضة ، أو المفتوحة كالنعمسة .
وفي تنبيه مشاعرها وإذكاء نار الحياة فيها . وهكذا حتى تنهض الفرصة
للمجدود من المثاريين فيلغى كل شيء حاصراً مهياً لظهوره . ووجهه كان
في وسع الجماعة المزلقة من الأوساط أن تستغنى بحظها من القيمة
الإنسانية الأساسية ، وأن يضطرها عدم وجود المثاريين إلى استخدام ما لها
من مواهب ، وانضاج ما رقت من قدرة وملكات ، إذ بدت في السرح
هذه الفترات ، فترات الركود والكلال والجور ، التي تطول أحياناً عدة
قرون حتى تتأخر قوة دافعة ممن يظهرون بعد ذلك من المثاريين وسويغ
وعصماء . على أن باب التخريج والتفسير هنا واسع ، ومجان التحليل الكلامي
وحجب ، وهو يعتد إلى غير غاية ، ولكن الذي لا يسعنا أن نؤمن به هو
أن الحاجة وحدها هي أصل كل رقي ، وأن العظماء ليسوا قوة دافعة تنفجر
أريج والعتت من بزعة الجماهير إلى الاحتفاظ بالتقديم . وإن الإنسان
تأسس يمكن أن يُفسر قسراً ، والمثل الذي صرته يورد حلال . ولكن
بعد سبب غيره من الأمثال المقولة من دائرة إلى أخرى ، ولا يحسن أن
نعدا والسات محتفان ، وإن اشتركا في صفة الحناء وهي كثير من
منهرا .

أرى القارئ من السد التي أوردناها من كلام يورداو أن له

« متناقضات » ! فبينما هو ينفى مقاومة الجماهير إذا به فى موضع آخر من الكتاب عينه يعترف بهذه المقاومة ويعللها ويذكر نفعها ، وكأننا به يعجز قدرته على نصر الموقف الذى يقفه ، ويسحره بيلائه وتفتته بخلافة منطق وقوة حجته ، فيمضى إلى أبعد من المدى ، ويسوقه تيار علمه وقدرته إلى حيث يأتى عن موقفه قبل صفحات . ولعله بعد معذور ، فإن وجوه الدرس كثيرة وللحجة أكثر من صفحة واحدة .

التصوف فى الأدب

عمر الخيام - أمن المتصوفة - ترجمة رباعياته

نريد « بالتصوف » ما يطلقون عليه فى بلاد الغرب كلمة « مستيزم » وحى كلمة من أشق الأمور أن يعالج المرء تعريفها على وجه دقة . كانت تدل على حالة من حالات الفكر ، أو الاحساس ، تبدو مقرونة بمحاولة العقل الإنسانى أن يتعلل إلى حقائق الأشياء وأن يستحى صعيد الرتبة ، أو الاستمتاع بنعمة الوصول إلى الذات العلية . ولاخص به والتسرب فيها ، ومن هنا ظهر التصوف فى الفلسفة والأدب ، وفى الدين كذلك .

وهذه النزعة عريقة فى العقل الإنسانى ، وليست بالشاذة ولا النادرة . ولكن الناس ليسوا سواء فى قوة الذهن وقدرته على توضيح ما يعرض له وحالاته ، ولا فى صلابة الإرادة التى تعين على مواصلة الالتفات . والمرء إذا لم يرق القوة والإرادة استراح إلى الأحلام . واستسهل أن يضيق لحبيه المعبود ، إذا كان هذا أقل كلفة وأيسر مؤونة . وكان لا يتفانى مرء من الجهد ما تنقاضه الملاحظة والورن ، على أن المرء لا يكاد يكون حبير فى ذلك ، فإذا عجز الإرادة التى تؤتبه القدرة على الانتدب ستهدف لأخصاء ، وغاص فى لحج من العرافات . واعتل رأيه فى الصلوات الكثرة . بنظواهر احتملافة . وفسد حكمه على الوجود وصفات الأشياء وعلاقتها . ولم يستطع عليه أن يأخذ إلا صورة مشوهة غامضة بعام الحارحى ، وسعف تميره ، واختلط الخلال بالبال فى حواضر دمه إذا صح هذا .

التعبير - وماج بالمختلف والمؤتلف منها ، وبالواضح والمستبهم ، وعلا
لحواسر حكيم نصاها - بلا كاخ ، وراحت تظهر أو تختفى من
نفسها ومن غير أن يكون لإرادة عمل ما في تقويتها أو نفيها ، واستد
احتفاظ الوعي بجمهرتها في وقت معاً أن تتكون من خليطها فكر
مضطرة غير صادقة في تصوير العلاقات بين الظواهر . وقد ضرب نور
في حد تصدد مثلاً ندمي الرجل الضعيف قال : كل من حاول في
مصمة أن يستحق صاهرة بعيدة يستطيع أن يحضر لنفسه الصورة التي يري
عالم الفكر لذهن الرجل الضعيف . انظر ثم ا كتلة مظلمة ا أى شيء
هي ؟ شجرة ؟ كوة من الدريس ؟ لص ؟ حيوان مفترس ؟ أبيضى أن أمراً
أم يجب أن أحمل عليه ؟ ويعود العجز عن استبانة الشيء - الذي يحزوا
لا يراه مدعاة لأشعة الخوف والقلق في نفسه . وهذه هي الحالة التي
يكون غيب غفل رجل الضعيف تلفاء ما يأخذ وعيه ، فيروح يعتقد
بشيء مائة شيء في وقت معاً ، ويصل ما بين الصور التي يخيّل له
بسيها بين الحاضر الذي كان مشارها ، على أنه يحس مع ذلك أن
عاقبة لا معبودة ولا معن ، ولكنه مع هذا يؤلف من أشات ما لم
ده ، فكرة تنافض كل تجربة ولكنه مضطر أن يتزها من الصواب متر
غيرها من آراءه وخوفه إذ كانت كلها قد شأت على هذا النحو
هذه حالة من نفسة شيء يحاول انراء معها أن يرى ، ويحسب أنه يرى
التي . ويضطر أن يؤلف فكرة من حوصر نفسه وتسر من وع
وحيث أنه يربط علاقات مسبقة بين الظواهر الواضحة والظلال الغام
الغائبة - هذه هي الحالة العقلية التي تسمى التصوف .

فهي حالة مرجعها إلى ضعف الإداة ضعفاً تمنع معه الفكرة من
الانتماء إلى مواصلة الملاحظة والتعبير ولكن هناك برعاً آخر من

التصوف لم يفت نوردوا أن يلتفت إليه ، وقد عزاه بحق إلى الاضطراب
في حساسية الذهن والجهاز العصبي ، وهو اضطراب يُنتج التصوف العملي
ويفضي إلى الهذيان والغيوبة حين يبلغ من عنف حركة الحرة الممنح من
الذهن أن يعطل عمل سائرته . ويعود المرء وهو لا يحس ما حوله لاستغراق
بخطر واحد أو طائفة من الحواسر للوعي كله وتمتج العظة والألم
ولا شأن لنا بهذا الضرب من التصوف .

وقد لا نخطف كثيراً إذا قلنا إن التصوف في بلاد الشرق متفرع من
مذاهبها السائدة ، وإنه عبارة عن الاحساس الديني في حينها ظهر ، وكه
في الهند غيره في فارس مثلاً . وذلك أن البرهمية التي تقول بتأليه الكون
ووحده ، والبوذية التي تذهب إلى العدمية - كلاهما ينكر حقيقة العالم
نظاهم ويدعو إلى التسرب في الغاية العليا ، وكلاهما يعصف بالاحساس
قيمة الشخصية الإنسانية ، وقد علل الأستاذ أندرو برنجل باتيسون -
شيوخ التصوف في الهند بطبيعة الاقليم وما يغري به المناخ من تسلية
واغترور ، وبأن فرط الخصب في حياتي النبات والحيوان هناك يولد لاحساس
قيمة الحياة . أما الصوفية الفارسية فأقل حدة ، وهي ألطف وأرق ، وانسيعة
الأدبية فيها أعم . والمنطلع على تاريخ الأدب الفارسي يجده بعد تقرون
عاصع مشبعاً بروح البائيزم (وحدة الكون وتأليهه) ولكن لا غرت
لصوفي لوحدة الأشياء وألوهيتها يزيد ويضاعف التدذ الحمال الضعيف
والإنساني ولا يفتره أو يصرف عنه . وهذا ملحوظ في شعر حافظ والسعدي
وغيرهما ممن كثر في شعرهم النعي بالخمر والغزل تعساً خرجهم مفسرون
جرحياً آخر وأولوه بعير المستمد من لفظه فرعموا ما فيه من ذكر بذات
حسب رمراً لبعطة الاتصال بالذات العلية ، وادعوا أن الحمرة اسم مستعار
للمعد وأن نشوة الحمر هي ذهول الحس . ولا شك أن هؤلاء استعزاء

قصائد بحث عليها الاحساس الدينى فى أول الأمر ، وهذه تغلب عليه
لشيزم ، ونحس فيها حرارة الرعدة فى خلاص الروح واتصاله بالله . ومن
هذه الحالة بنى تعريبهم 'حياء' وتعريبهم بعد الطبيعة والجمال ومنع الأرض
عشنا وباطلاً - رد فعل للاغراق فى العماس للذات وإفراط فى إرضاء
الجسم ، أو لعلها الجانب الآخر للصورة .

ومن شعراء الفرس الذين ذاع صيتهم وسار ذكرهم فى الشرق والغرب
سهر الخيام . وقد حاول بعض النقاد أن يزوج به فى زمرة المتصوفة من
شعر الفرس وأن يبنى عنه ما يدل عليه ظاهر الفاظه ، وأن يخرج كلامه
من حرمه . ولقد يدع عنه تهمة الايقورية جهلاً كما سترى . ولكن
الواقع ، كما قال مترجمه إلى الإنجليزية فترجالد ، إن عمراً لم يكن أبغض
إلى أحد منه إلى متصوفة عصره الذين كان يسخر منهم ويركبهم بالدعة
والتعذيب . وعجز أن يهدى إلى شيء سوى القدر أو دنيا غير هذه .
بعد ما يقع حصوه فى ذلك . قبح بخضه المنقسم له ، وأثر أن يرفه من
نفسه من طريق الخواص على أن يوهن نفسه باستجلاء الغوامض .

على أنه كانت له موهبة تنأى به عن التصوف ، ذلك أنه كان رياضياً
عالمًا . كما يذكر له فى هذا كتاب تنقيحه التقويم السنوى تنقيحاً أصيبر
وهو من حديق . لأستدبة ، أضيق سال حبيول انورخ الاسليزى بالثناء
سبه . وقد كانت ماثمة من الحدود العلكية ومؤلف فى علم الحبر
تعريبية . وهو يوصى محله وعمته صسط الحدود والحصر ، وتعيق
شبح نسبه . وهو عمل يتطلب من الدقة والعناية
والتدقيق . لا يصعد أو يقدى عليه دهر المتصوف ومن المعجب
أن فترجالد ، بقصر بى دلاه هدا . لا حظير له أن يسوق هذه الحققة
ساقه لتبرلة الخيام من التصوف .

وأما - وأنا أكسب هذه السطور - « خيامان » ، الحيام الذى صورته
لها فترجالد فى مائة وأربع وعشرين رباعية أفاض عليها من روحه هو ،
والخيام الذى يرسمه الأستاذ أحمد حامد الصراف مترجمة من تعريبية بى
العريه نراً ، فى مائة وثلاث وخمسين رباعية أكثرها لا تجدده فى فترجالد .
والشاعر أحمد رامى مترجمة عن الفارسية شعراً ، والقليل المشترك مختلف
حتى لينتد المرء فى الجزم بأن هذه الرباعية هنا هى تلك هناك . وقد
كانت ترجمتنا الأستاذ الصراف والشاعر رامى دقيقتين - ويظهر لهما
كذلك ، فما نعرف الفارسية - فيخيل إلينا أن فترجالد عمد إلى تعريب
لشبابه فصاع منها واحدة استغنى بها عن التريديد والتكرار مثال ذلك .
أو الخيام - فى ترجمة الأستاذ الصراف - يكرر فى عدة رباعيات الدعوة
إلى قلة الأكثر ليومين : اليوم الذى مضى ، واليوم الذى يأت ، فيقول
مثلاً فى رباعية :

« ذهبت أيام العمر القليلة كالماء فى الوادى ، أو الريح فى نبيه .
لا أنعم ليومين من الأيام ، اليوم الذى لم يأت واليوم الذى مضى
وفى أخرى يقول :

« لا تذكر اليوم الذى مضى ، ولا تجزع من غد لم يأت بعد - ض
نفساً ولا تنقص عيشك » .

فيجىء فترجالد ، ويعجن هاتين الرباعيتين بما هو شائع فى كثير
الرباعيات ، ويخرج من هذا المزيج رباعية يقول فيها^(١) :

هات لى الكأس فما يجدى الفطن كيف بطوى تحت رجليه لرمس
قد قضى أمس ، ولم يولد غد فكفانا اليوم ، فاليوم حس

(١) قد ترجمنا من رباعيات فترجالد (Fitzgerald) رباعية من ترجمته بدقة فخر
وسما وأثبتنا الأصل إلى جانبها - المازنى .

ففتحها وجعلها هكذا :

بينما أحلم ، والفجر رطيب ، طرق السمع من الحان، مهيب^(١)
كأسكم ! من قبل أن تؤذنكم كأس عياكم بمحوم النضوب «

DREAMING WHEN DAWN'S LEFT HAND WAS IN THE SKY,

I HEARD A VOICE WITHIN THE TAVERN CRY,

"AWAKE, MY LITTLE ONES, AND FILL THE CUP
BEFORE LIFE'S LIQUOR IN ITS CUP BE DRY."

ولا شك أن نضوب الحياة أشبه بمعنى الموت من امتلاء كأسها .

ومن أمثلة هذا التصرف المعقول المحمود أن الخيام يقول .

« نحن ألعيب أطفال ، والفلك هو اللاعب بنا ، ذلك أمر حقيقى غير
مجازى ، لقد لعبنا مدة فى ساحة الوجود ثم ذهبنا إلى صندوق العدم
واحداً بعد واحد » .

وترجمها رامي هكذا :

وإنما نحن رخاخ القضاء — ينقلنا فى اللوح أتى يشاء
وكل من يفرغ من دوره يلقى به فى مستقر القضاء

فتناولها فتزجرالد ، وزاد التشبيه وضوحاً فجعله هكذا :

هذه رقعة شطرنج القضاء — ولها لوانان : صبح ومساء^(٢)
نقل المخطوط بها كيف يشاء ثم تطويها صناديق القضاء

IT IS ALL A CHEQUER-BOARD OF NIGHTS AND DAYS
WHERE DESTINY WITH MEN FOR PIECES PLAYS.

(١) من لوجستا نحن ، من فتزجرالد .

(٢) من لوجستا نحن عن فتزجرالد .

ALL. FILL THE CUP: WHAT BOOKS IT TO REPEAT
HOW TIME IS SLIPPING UNDERNEATH OUR FEET:
UNBORN TO-MORROW AND DEAD YESTERDAY,
WHY FRET ABOUT THEM IF TO-DAY BE SWEET !

ويظهر أن فتزجرالد راقه قول الخيام إن أيام العمر القليلة ذهبت كالدماء
فى لودى أو الريح فى البيداء ، ورأى هذا المعنى مكرراً فى بعض ما ينسب
لـ نجباء - وهو كثير فنظم فيه رباعية تحرى فيها أن يصدر عن روح
الخيام ، فقال :

كم بنزها حكمة العقل سواء وتعهدت بكفى النسياء^(١)
وتأمل : ها حصادى كله : جئت كالماء ، وأمضى كالهواء

WITH THEM THE SEED OF WISDOM DID I SOW,
AND WITH MY OWN HAND LABOUR'D IT TO GROW
AND THIS WAS ALL THE HARVEST THAT I REAP'D
"I CAME LIKE WATER, AND LIKE WIND I GO."

ومن أمثلة تصرفه الحسن أنه نقل قول الخيام :

سمعت هنقاً فى السحر من حاننا يقول : ايه يا أخا الشراب المفتور .
قم لنملأ الكأس بالخمير قبل أن يملأوا كأسنا .

وقد نظمها رامي فى هذه الرباعية :

سمعت صوتاً هائلاً فى السحر نادى من الحان : غفاة الشر
هو . « ملأوا كأس العقل قبل أن تنعم كأس المصير كعب القدر

(١) من لوجستا نحن ، عن فتزجرالد .

BESIDE ME SINGING IN THE WILDERNESS-
AND WILDERNESS IS PARADISE ENOW .

والرغيف كنصف الرغيف في الدلالة على الكفاف ، وليس وجوده كاملاً بالتوف حتى يكون تنصفه رقة حال ، وتخيل المرء أن القفر انقلب شبيهاً بما تشتهي النفس من نعم الجنة والعيشة الراضية ، أقرب إلى طبيعة الإنسان وأشبه بروحه من أن يذهب يفضل اجتماع هذه الثلاثة على مسك المنيف والعيش الرغيد ، وقد اكتفى فترجرالد بتصوير ما ينشده الشاعر لخيام - كما فهمه هو - في حياته ، زق خمر يسرى به عن نفسه فتخرج نسبة المواتف التي لا تفتأ تذكره بالحياة والموت والقضاء والقدر ، ورغيف يرمز به إلى القناعة ويدل به على أنه ليس مبطناً هم البعدة وما تخط به ، وديوان شعر أو كتاب في ذكره إشارة كافية إلى حياته العقلية ونفسية وإلى أن القائل - وهو شاعر - ليس مجرد حيوان ، واحتفظ فترجرالد بأساقية ، أو المؤتة ، ولكنه تلفظ وارتقى بها ولم يذكر صنعها ، وجمعها أشبه بالحبيبة تغنيه ، والموسيقى غذاء الروح ، وهي صنو الشعر ومن معده . ثم أثر الاعتدال في التعبير فقال : إذا اجتمع هذا صارت البيداء كئونها . الفردوس المشتبه .

وهناك رباعية قوية ترجمها كل من فترجرالد ورامى ، ولم يفر عنيها في ترجمة الأستاذ الصراف ، أما رامى فصاغها هكذا :

لن يرجع المقدار فيما حكم وحملك المسم يزيد الألم
ولو حزنت العمر لن ينمحي ما خطه في اللوح مر القلم

أما فترجرالد ، فتناولها من آخرها ليريد المعنى بروراً وتأكيذاً وليقويه فهو ، يقول :

HITHER AND THITHER MOVES, AND MATES, AND SLAYS
AND ONE BY ONE BACK IN THE CLOSET LAYS

ولا شك أن المعنى في رباعية فترجرالد ، أتم وأشد بروراً منه في ترجمة الخرفية الشربة لرباعية الخيام ، وأوضح منه في رباعية رامى . وانتشبه مستوفى من جميع بواحيه ، وهو فوق ذلك أجمل وأبرع ، كما عييه لا يرى أى ثاد لنقضاء أمام هذه الرقعة ؟ أم ترى القضاء عنده عابث يلاعب نفسه ؟

ومن أمثلة التصرف الشديد أن للخيام هذه الرباعية :
« كأس ، وخمر ، وساق في روضة ، خير من الجنة التي وعدتها .
لا تسمع من أحد حديث أئمة والشار - من ذا ذهب إلى الجحيم ؟ ومن
ذا جاء من الجنة ؟ »

ويظهر من هذه رصية أخرى تشبهها في الفارسية ، فقد وجدنا بين ما احتازه الشاعر رامى هذه الرباعية :

زجاجة الخمر ونصف الرغيف وما حوى ديبوان شعر طريف
أحب لى إن كنت لى مؤتسا فى بلقع من كيل ملك منيف
رباعية فترجرالد صنو رباعية رامى إلا أنها أكثر الزائداً :

وبعسى تحت أفان رطاب زق خمر ورغيف وكتاب^(١)
ونعتين ، هيرند اليباب مثل همى ، من فراديس رخاب

HERE WITH A LOAF OF BREAD BENEATH THE ROUGH,
A FLASK OF WINE, A BOOK OF VERSE AND THOU

(١) من ترجمتاغى عن فترجرالد .

أي يا ظمآن

ONE MOMENT IN ANNIHILATION'S WASTE,
ONE MOMENT, OF THE WELL OF LIFE TO TASTE -
THE STARS ARE SETTING AND THE CARAVAN
STAR FOR THE DAWN OF NOTHING - OH, MAKE HASTE

فماذا هو هذا الخيام ؟ ما هي الصورة النفسية التي تخلص لنا من
رباعياته هذه وأمتاها ؟

الخيام الذي يصوره فتزجرالد فيما اختار من رباعياته ، شاعر ، لا يرتقي
إلى الطبقة الأولى ولا يقارنها ، ولكنه شاعر له نظره وروحته والمهامه ،
في الترجمتين العربيتين عن الفارسية ، فهو يقصر عن ذلك ولا يرتفع
إلى مستواه ، فهو مثلاً ينهض إذا انبثق العجر ليسكر ، أو كما يقول لشاعر
رامى :

شقت يد الفجر ستار الظلام فانهض وناولني صبح المدام
فكم تحبنا له طلعة ونحن لا نملك رد السلام

ولكن فتزجرالد يهمل هذا الصبح ويضرب عن ذكر الخمر كراهة
به لاستقبال الشاعر جمال الفجر وهو مخمور ، ولحمر في كل رباعية
بما ترحم فتزجرالد علنها المفهومة الراجعة في مرد أمرها إلى أسنوب تفكير
شاعر ، فهو يشرب ، لأن الحياة وشبكة الروا ، وكأس العمر ككأس
شراب ما أسرع ما تنضب : ولأن المقام في هذه الدنيا قليل ، ولدهف
لا يرجع ، أو لأن الشراب يعش النفس ويشعرها بهجة الربيع ويضرح عن
عش ثوب الدامة الشتوى الذي يقوس الظهر ونحى القداة ، أو لأن احمر
رود له الحياة وتخل مرارتها وتخفف وقعها ، وتخل إليه رشوتها أنه متمتع
بما تشتهي نفسه وما هو محروم منه ، أو لأنها تبدو له أحياناً كالقند ، وهو
جاء من نسبة الحلد ، أو لأنها تحلو الصدر من الأسف على ما مضى

أبداً يسطر ، ما شاء ، القلم ثم يمضى - نافذ الحكم أصم (١)
ليس يمحو نصف سطر ورع لا ولا يفسله دمع سجم !

THE MOVING FINGER WRITES, AND HAVING WRIT,
MOVES ON: NOR ALL THY PIETY NOR WIT
SHALL LURE IT BANCK TO CANCEL HALF A LINE
NOR ALL THY TEARS WASH OUT A WORD OF IT

والابتداء هكذا أروع في تصوير القدر : فالقلم يخط في اللوح ، فإذا
خط مضى شأنه ونفذ الحكم ولم يجد في رد القضاء لا ورع
ولا بكاء !

وتم رباعيات لم نجدها في ترجمة الصراف ورامى وإن كانت قوية
وهي هذه كما نضمها فتزجرالد :

كرة تدب في كل اتجاه ما لها إلا الذي شاء الرماه (٢)
بد من ألقاك في ميدانه هو يلدى - هو يلدى - لا سواه

THE BALL NO QUESTION MAKES OF AYES AND NOES,
BUT RIGHT OR LEFT AS STRIKES THE PLAYER GOES.

AND HE THAT TOSS'D THEE DOWN INTO THE FIELD,
HE KNOWS ABOUT IT ALL - HE KNOWS - HE KNOWS -

يعنى الإنسان - لا رأى له في حياته ولا إرادة .

ثم هذه الصرخة الخارجة من أعماق القلب :

أندى سر بربوع الوحود ! أملهى بصحراء البيود
فجر «لاشيء» - فمجل بامجودا أفل النجم - مضى الركب إلى

(١) من ترجمتنا عن فتزجرالد .

(٢) من ترجمتنا عن فتزجرالد .

يرفع السر الذي حاول أن يباحه ، أو لأنه ، ليس من قدرة عقله المحدود
أو فهمه الكفيف عن استكناه سر الحياة ، فهو يصيح :

صحت - حيران - بأجواز السماء « أرى نيراناً به يهدى القضاء (١)
هبة تعثر في هذى الدجى ؟ » فأجابتنى « بمكثوف الذكاء ؟ »

THEN TO THE ROLLING HEAV'N ITSELF I CRIED,
ASKING "WHAT LAMP HAD DESTINY TO GUIDE"

"HER LITTLE CHILDREN STUMBLING IN THE DARK"
AND - "A BLIND UNDERSTANDING !" HEAV'N REPLIED

ولهذا عاذ بالكأس :

دلت بالكأس ، لعل بفمى « أستقى سر الحياة ، لأعظم »
فأشرت شفة الكأس « أرشف ! » ما لمت رجعة من علم !

THEN TO THIS EARTHEN BOWL DID I ADJOURN
MY LIP THE SECRET WELL OF LIFE TO LEARN:

AND I UP TO LIP IT MURMUR'D - "WHILE YOU LIVE
DRINK - FOR ONCE DEAD YOU NEVER SHALL RETURN"

ولا خير بعد ذلك في تساؤل أو تفكير . وماذا يصيب عدوه ويعذب
نفسه بالجدل والمحاولة ؟ ليس الأولى به أن يسكر ويصرب ؟ ليس هـ
خير من أن يخرج بالكأبة والأنسى وبلا محصور . أو - مر من شمر ؟ وهل
سبق العقل وباعد ما بينه وبين التفكير والبحث :

أحلاى لقد كنتم شهودى « من دار نقصد في غرسى حديد »
سبق العقل عفيماً وعدت « ست هـ نكره روجى وعفدى »

- (١) من لوجتنا نحن فخر جلاله .
(٢) من لوجتنا نحن فخر جلاله .
(٣) من لوجتنا نحن فخر جلاله .

أخوف من هوأت ، وتوقيه انعكس في الغد ، وما الغد ؟ قد يلحقه .
الأمس سدى يطوى فيه مسحة آلاف سنة ، أو لأنه يريد أن يغتنم في
هذه خبة أو ما نفى منها قبل أن يصبح تراباً في تراب ، فهو يشبه
حياة ثم يموت فيعصر قلبه قصر الأمل ، وتهوله رقدة المسوت الأبية
يصيح :

به دعى غنم هذا المدى قبل أن يطوى ترابى في الثرى .
حيث لا حصر ولا شدة ، ولا قبة ، كلا ! وما من منتهى .

AH MAKE THE MOST OF WHAT WE YET MAY SPEND
BEFORE WE TOO INTO THE DUST DESCEND.

DUST INTO DUST, AND UNDER DUST, TO LIE.
SANS WINS SANS SING, SANS SINGER, AND - SANS END

و لأنه قنع بعث الجدول لبحث يعد يجب أن يعنى نفسه بمعاودة هذا
بحث :

حصدت في عهدى غمار الجدل « وسمعت الشيخ يطلوه الولي (٢) »
عج ، كى كنت أغشى نداً « مخرجى - بعد عنائى - مدسلى »

MYSELF WHEN YOUNG DID EAGERLY FREQUENT
DOCTOR AND SAINT, AND HEARD GREAT ARGUMENT
ABOUT IT AND ABOUT, BUT EVER MORE

CAME OUT BY THE SAME DOOR AS IN I WENT
و لأنه يريد أن يدق في الكاسات ذكرى فصول التساؤل : من أين
حيث ؟ « أين من به » « لأن انعكس له بفتح له الباب الذى عالجه »

- (١) من لوجتنا نحن فخر جلاله .
(٢) من لوجتنا نحن فخر جلاله .

DO KNOW, MY FRIENDS, HOW LONG SINCE IN MY HOUSE
FOR A NEW MARRIAGE I DID MAKE KAROUSE;
DIVORCED OLD BARREN REASON FROM MY BED,
AND TOOK THE DAUGHTER OF THE VINE TO SPOUSE.

وإذا كان السيد الذي تشربه ، والشقة التي تلثمها يصيران
بلا شيء ، « لدى هو نهاية كل شيء - فما عليك ما دمت حياً إلا
تتصور أنك ما أنت صائر إليه - لا شيء - فإن تكون أقل من ذلك
وإذا كان قد انتهى إلى اليأس فهو لا يرى خيراً في أن ترفع بصرك
سواء متنهلاً ، متمسكاً بالنعوة ، فإن السماء مثلك لا حول لها ولا قوة
ولا هي تملك من أمرها إلا كما تملك أنت .

فهو يشرب الخمر - لا لأنه عريذ مستهتر ، أو بليد كئيف معز
نفس ، بل لأنه ، عالج نزع الحياة فأعياه وأضناه ، وحرقه ، وأرقه ، وأض
صوبه . واحتجاجه للحمر في رباعيات فتزجرالد اعتذار على الحقيقة
بصوى عن ادرك صحيح لقيمة هذه النعلة وأنها ليست أكثر من مسك
بحذر حسن ويفتر الشعور وبسبب العقل ويقلب نسب الأشياء أو بصمد
ما يجده المرء من وقعها .

ليس كذبت شرب الحياة للحمر فيما ترجمه الصحاح : الضروف
ش . ورعى شعراً عن الفارسية ، فهو ها سكير . عاقر الكائن في
محلى الحب نبلاً « كما يقول صديقاً رامى في مقدمته « في ضوء القمر
وسحر عند طلوع الفجر ، ومساء عند غروب الشمس على نغم الماء
والماء في ربيع ، على شدة بردى وعلى ضفاف القدير بين الزهر المبر
والمحو الحق ، فإذا دأب حرمته من الحمر بعد الموت طلب أن يعبر
نهاراً ، وأن بعد عنه من كدمها حتى إذا بلى جسمه تمنى لو تصاعق
لنك والدمج . وما حوف أسه السوء قال لا نهتم بالناقدين

بذلك قبل أن ترضى الناس . لا تظهر التقى واسحر من شترهدين . اعلم
أنه ليس في العالم إنسان كامل . وقد أحب من احب حتى تمنى أن
يكونها الصافي ، وأحب كأسها لشقافة وديها لملأ . وكان يجد السعادة
في مجلس الشراب بين الصاحب والنديم .

ويخيل إليك وأنت تقرأ رباعياته المترجمة إلى العربية عن الفارسية كأن
الخيام « كأولاد البلد » أبناء الحبل المأصى في مصر . ثم كان منهم أن
يجوا الليل بالشراب والطرب والأنس ، فإذا تنفس الفصح عادوا لمجاعتهم
وأشدوا الأستار وحجبوا الضوء وألقوا رؤوسهم على الأرض .

ولا تعد من هؤلاء أيضاً فلسفة ، فقد تسمع منهم قومه أن بعد نصيب .
وب أنما راصدة ، وإن العصفور في اليد حبر من أن عصفور على شجرة
بعد رأسي لا كانت الدنيا ، إلى آخر هذه الكلمات التي يحضر
يكاد تحرى على كل لسان ، والتي هي من الشيوخ ولاندرحت
لا تستحق تكريم الارتفاع بها إلى مستوى النظرات في الحياة

فهو يقول مثلاً فيما ترجم رامى :

في النديم السمع؟ أين الصبوح؟
فقد نفض الصم في حرج
حمر ونعم ووجه صبح
أو يقول :

طبعي التناسي بالوجوه الحسان
فأجمع شتات الحسنة وأندم بها
أو يقول :

لا تشعل السال بمأصى الزمان
عنه من احصى حده
ولا تأس بعيش قبل أن
فليس في سمع مني دمار

أو يقول :

الخمر في الكأس خيال ظريف
أبعد ثقل الظل عن مجلسي

أو يقول :

مذ ألدع الكون العليم السميع
عجبت لذحمار ، هل يشتري

أو يقول :

ثأ الذي عشت صريع العقار
بعد عن نصحي ، لقد أصبحت
في مجلس تحييه كأس تدار
هذي الطل كل المني والخيار

...

فهل نرى أن معاني هذه الرباعيات ترتفع عن طبقة المواريل والموشحات
لتي كانت تغنى في ليالي « الضمم » في الجيل الماضي ؟ وهل ترى الخيام
فيها إلا ، من بدع قح من ذلك الطراز الذي عفى عليه العصر الحاضر ؟
من ذلك الآفة والآفة هنا وفي أمثال هذه الرباعيات يشعرك مع
... من حسبه من ربيات فترجده ، وأنه الحنون من عجز الشع
... من ... في ... ودث المعجب التي يعاينها وكتيب الأسر
... في ... والخيام في رباعيات الصاحبين ، سكير ظريف ،
... حبيب ، حبيب حبيب ، وذكر الموت على لسانه معقول ،
... من ... لا تحس أنه يدور على غير الناس ،
... في ... غير ذلك ، وإحمال على خلافه ، هذه
... من ... ومرعب المواقف ، وحى من الحبور
... هذه ... اللهاتى ، أو اللاشيء ، الذي هو

من الأحياء فيما هداه تفكيره ، ولسخره لدعة تحس لت أنه قد حسنها ،
... المتكلف كى أليم ، وهو يضعك أمام ما انتهى إليه من حقائق مذة ،
... فضل فترجالد أنه أضاف إلى الخيام روح الاتون فتعادت مرة
... وتكافأهم والاستخفاف ويضع على كتفه شمس ماء أبرد ،
... إلى حباب العزح ضحكة ، ليعتدل اميرن ، ويقول بيح ... حمر
... الرباعيات الصاحبين هي الأصل ، ولكنها في رباعيات فترجده هي
... الذي يعنى عليه الشاعر آراه ، ولعل الحياء لم يكن كذلك ، ولكنه
... وأشعر ، ولا ذنب للشاعر رامى ولا للأستاذ ...
... للأصل ، وهما خليقان بالشكر على أمانيهما ، غير أن ...
... أن نقول إننا نؤثر تصرف فترجالد .

...

كلا ! ليس الخيام أيقوريا ولا شبهه . وعلى أن الناس كثير ما ...
... والوهم في أمر « أيقور » أيضا فاعل هذه الطبيعة ...
... بين الرحلين تكشف عن الحقيقة . ويعيننا ... على ...
... عقيدتهما ومذهبهما الأخلاقي . لا ينكر أيقور ...
... من الأرباب ، لكنه يكر تدخل الآفة ، ويقول ...
... عانتها عبء هذه الدنيا ، ولا تكلف نفسها حكمها وتسير أمورهم ،
... (أى الآفة) ليست إلا ما يتحده نظام الطبيعة
... من الإنسانية لا تتحكم في الإنسان ، ولا هي حفت ...
... وكلت غمطها وتسير أمورها ، وهذا عند أيقور لا يسوجب ...
... إنسان عن عاداتها غير أن هذه العبادة إن هي إلا ...
... للنعيم التام ، ولا يسعى أن لا يكون الدعث غلبها لا الأمل
... والخيام يذهب إلى عكس ذلك وغيبه ويقول إن العلم

سحر عن انوار كل شيء وان الأقدار صاغت آخر إنسان من أول طينة
أرض وبذرت في مبدأ الخليقة آخر ما يحصد في هذه الدنيا ، وكسبت
في أول صبح للوجود ما سوف يقرؤه آخر فجر « للحساب » ولا حيلة
لأحد في تغيير كلمة واحدة مما جرى به القلم .

أذا يسطر ما شاء القلم ثم يمضي - نافذ الحكم أصم
ليس يمحو نصف سطر ، ورع لا ولا يقسله جمع مسج

... من يقرر نظريته نقضه اختوم الذي لا مهرب منه ، ويأتي أن
عز مذهب الخلق من هذا العلم نظاماً مقدراً لا يتغير ولا يسع الإنسان
... لا يثبت ، وهو في هذا يخالف « رينون » الذي يدين بالقضاء
... ولا يقف أبيقور عند هذا الحد ، بل يتعداه إلى رفض الاضطراب
في دائرة العمل الإنساني ، وإلى القول باستقلال البشر عن الآلهة ، واستطاعة
إنسان كونه ... يقف بمسحة من المؤثرات الخارجية ، وأن « يعين

واحياء يقول بالقضاء والقدر ، ويذهب إلى أن أساس الكون ومحور
... إن الأقدار تحركنا كما نشاء أو دنخاخ في رقعة شطرنجها .

وليس لنا من إرادة ولا في وسعنا أن نستقل أو يكون لنا رأى في
حياتنا . إنما نحن ككرة يلعب بنا من ألقانا في الميدان .

عن أبيقور ... وهو أن الإنسان إذا مات في وانفصلى عنه ،
... ولا يرجو ثوابها .

ويقول الخيام :

جذت بالكأس لعل بقمي استقى سر الحياة الأعظم
فأشرت شفة الكأس « ارتشف ! ما لبت رحمه من عذبة

ولا شك أن مذهب أبيقور منافع لعلم ، وعنه الحق أنه لا يستصع
أو يهتدى إلى انتظام الارتباط بين الظواهر الكونية وربطاً يجعل كل
منها رهناً بما عداها ، ولا يجعل في الوسع أن يفصل المرء أحداً عن
سائرهما وأن يفهمها على حدة .

ما فلسفة أبيقور الأخلاقية فصرح ما لطف من أبيقور في شرح
السعادة هي الخير في الحياة ، وهي شحة منطقية لعقيدته . بيد أن مذهب
قد إلى الشهوانية البحتة الصريحة ، وإنما فعل ذلك أتباعه بعد حين
صدرت الأبيقورية والشهوانية لأباحية مترادفتين . وبسبب هذه السوء
م يقتنصه المرء من متع الساعة الحاضرة بل هي أقرب أن يكون عذبة من
عذبات الفكر تلازم المرء طول حياته ، وحالة سلبية لا إيجابية ، لا فدية .
أو إذا شئت فقل إنها أشبه السكون والاطمئنان منها بالاسترخاء . وبحيث
الاستمتاع عند أبيقور هو زوال كل دواعي الألم وأحرار الجسم منه وسرور
العقل من التعب ، فكان السعادة عند أبيقور دة حية رربية .
القلب ، وتخلو البال ، وانتفاء الآلام الجسمية والعقلية .

وأين من هذا الحياء . إنه رحل لا يستق على حذر من خلق . ثم
ومن السائل والمكبر ، لا السحت يهديه ولا الكأس منه ولا الكتب
... ورق الحمر ، وغير ذلك مما ذكر في شعره . مؤلفه حة مصر
... وانتفاء الآلام . ولقد صار الموت عنده حظراً محمياً لبعض
... ويكدر له صمو كل شيء . وانفزع من الموت هو أساس

مكبه والذي تقوم عليه كل نظرائه . ومن ذا الذي يقرأ له هذه الصرخة
الخارجة من أعماق فمه ويحظر له بعدها أنه استشعر الراحة لحظة واحدة ،
أنذوق سر ينوع الوجود
فجر « لا شيء » فعجل بامجود
نعم قد يمزح في بعض شعره ويتهكم بالعقل ويقول :

يا أتعلاي لقد كنتم شهودي حين دار القصف في عرسي الجديد
ضيق العقل عقيماً وغدت بنت هذا الكرم زوجي وعقيدتي
أنه تهكم الموجه الذي آله أن لا يهتدى إلى شيء وأن لا يحل للفرأ
وضحت الساحت على عجزه عن تخليص رجليه من شباك الأقدار وعن
لمح بارقة واحدة تجلو له بعض ما خباه الغد ، ومزح الآسف لاضطراره
يرتد إلى اليوم الزائل حتى ليتنى أن يقف على سر نظام هذا الكون
ليمزقه ثم يعود فيصبه في قالب أدنى إلى رغبة قلبه وهوى نفسه !

ومن ذلك سعادة لأيقينية أن يروض نفسه على توخي الحكمة
سعادته في معرفة بين الذات والآلام المقدرة وأن يتخلص برفق
منها . وهو قد يحتج به حذره ، ومن هنا كان الحرم هو رائد سعادة
في ما حذر . وهو قد يحتج بغيره أن يفتقر إلى الصفات وأساس الفضائل ،
من هو لا يحد . وفي نفس من عسفة « ولابد منه في التماس الملاد . وفي
من هو لا يحد . وفي نفسه سعادة . ومع أن الاحساس عده هو ويستنه
الذات بعبء الفوز بهدوء النفس والجسم وراحة العقل .

(١) للحد الضماد

والعقل عند الخيام لا يعنى عن الإنسان شيئاً لأنه كفيف أعمى .
صحت - حيران - بأجواز السماء « أى فبراس به يهدى القضاء
صية تعثر في هذى الدجى ؟ » فأجابتنى « بمكثوف الذكاء !

وأحسب الناس لما عجزوا عن اثبات استهتكه على كثرة ذكره محمداً
بحسب التفرد والحلوة بقمره الذي لا يعرف لأحد كثرة ليس من
منها على وحشة صدره وآلامه ، ذهبوا برغموه صوفياً وبينوا - محمداً
بني يذكرها من عصير الكرم ، وأن ساقيه من اللحم والدم « واستشهد
بكلام له يقول فيه إنه يعاقر الحمر لعله يرشف من شفتيه سر ينوع الحياة
أنه يلمح بارقة من سنا الحق في أحلامه يحضن مشف في بعد مقبلة
ولا شبهة في أن نشأته وكثرة غشيبه محاسن نفقاء وصوفية . وتنفقه
في صدر أيامه بالجدل الذي كان فاشياً في عصره - كل ذلك مقصود من
سعداده الفصري - ترك في نفسه أثر من الصوف مقبلة برده في
شعره إلى البحث في احساسه الديني . غير أنه على هذا مستغنى عن حرج
سيم العقل موفور الصواب ، وأن يفضل أن عت الكراميات وقد أشير
إلى ذلك في كثير من رباعياته منها :

صحت في عهدي غمار الجدل وسمعت الشيخ يتلوه الورق
غير أني كنت ألقى أليداً مخرجي . بعد عدي . مدحري

كأندرا حكمة العقل سوء وتعهدت بكفى سوء
وتمن ها حصادي كنه : حلت كده ومضى كاهوه

هذه هي الحقيقة رحل حر الفكر لا يبرر بفتح في شعره على تعثر العقول
صفتها وعلى تشدد المتعثرين من أهل عصره . وعلى شذوذ الصوفية

وهدياتهم . وإذا استعمل شيئاً من عباراتهم فإنما يتخذها أداة للنيل من
التصوف الذى ضيع فيه خير شطرى عمره ، والذى لم يستطع أن يعيش
مع ذلك بريئاً منه .

غير أنه مع هذا رجل متشائم يؤوس أعياء البحث فنكص وفر من
الميدان ولم يشعر أن عليه مهمة فى هذه الحياة ، ورسالة يؤديها إلى أبناء
الدنيا . ولو أنه أحس شيئاً من هذا لأغراه ذلك بالبقاء فى الميدان كغيره
من المثشائمين الذين يشبههم من بعض الوجوه مثل بيرون وشوينهور .

كروبوتكين

حياة ضخمة

قل من الناس هنا من يعرف شيئاً - قل أو أكثر - عن البرنس كروبوتكين
عالم الاشتراكي الروسى الذى جاءت الأنباء بأنه توفى بمدينة موسكو
لغاً من العمر ثمانياً وسبعين سنة وإن كانت شهرته قد طبقت الخافقين
وأثارة قد سارت فى العالمين . على أن خبر وفاته يفتقر إلى التأيد لاسيما
بعد أن نفته موسكو . وليست هذه بأول مرة حقت فيها أساطير - ف
سعيه فإن صح أنه حتى يرق وألساً الله فى أحد حتى يصل به إليه
وما جرت به أقلام الكتاب فى الاشادة بذكره واكبار أمره فليكونن فى
ذلك مسلاة له فى آخر أيامه وفكاهة يتعلل بها فيما بقى من عمره . لولا
أن لما قد يعكر عليه صمو هذه الفكاهة أو أكثر امادحيه يتصور به عقد
النساء لا حباً فيه بل كراهة منه لقرينته لينين !

ولا نحب أن نكون من المتعجلين حتى فى هذه !! فلندع ترجمته إلى
حينها ولنسق من حوادث حياته ومما لقيه من الناس ما له دلالة فى ذاته
فقد كانت حافلة بالتجارب للضحية التى ليس أقسى من امتحانها للصر
وعجزها للنفس والحسنة حميماً ولقد ذهب بحير نصربه سحر . واستبد
منظر لثنائى المعى ، ولكنه مع هذا لم يعرف عنه أنه شكى وتوجع أو بكى
ونفزع ، وكان يدهش الناس بمراحه وببساطه وإيمانه بفوز الحق فى روسيا
ومواها آخر الأمر . فهو من النوع الحقيق بالحياة الكفء لأهوالها ومن
مؤلف . بروديشين . وطه . كمر لا بدعصمه عب لأرمان ولا يريده

إلا رسوخ إيمان - ومن الطبقة التي تؤثر بمتانة الشخصية وبرزها أكثر
ثم تؤثر بأثارها العقلية .

وحيث من ضحوا بكل شيء في مصارحته ظلم القيصرية . والروسبول
أول من يقدرون له جهاده ويذكرون له بلائه ويجازونه إحساناً بإحسان
حتى يبين نفسه . وهو حصمه في الرأي وعدوه في المذهب وإن جمعهم
مخرج على النظام القديم - نقول حتى لينين نفسه عنى بتوفير أسباب
الحد من حق في شيخوخته . روى المستر « ميكين » وكان مراسل الشرق
يؤيد في روسيا منذ عهد قريب أن حكومة السوفيت همت أن تنسب
كروبتكين فترة به ضيقاً لأمرها أن لا يكون لأحد شيء من اأدبية
التي كان لينين أن لا يمسها أحد فقيت له وما كان أفعها له وأخرج
... ولم يقتصر لينين على ذلك بل رتب له جراية خاصة أكبر مما يسمع
لغيره من الناس ليعينه على استرداد العافية والاحتفاظ بالصحة المتداعية .
... لا أحد شيء لا سبيل لروسي عادي إليه . وظل في شيخوخته
... بتحصنه السواد الأعظم من أبناء بلاده ، وكان إذا عابته
... في مكتبته وتسامها في أعماله الأدبية . ثم إن ذخيرته من
... فكان يقضي الساعات الطويلة السوداء في نياز
... لا يعمل شيئاً ولا يجد حتى من بعده . ولما جاء الربيع ونسب
... من حد محدود ، سمع بعض العمال بما يقاسيه في صلاه
... من حمل سكر في ممره وحجزه مصباح . وكان قلما يخرج ، وبد
... الناس والاسفوف وأخبروا له عن أحلامهم له وحبهم إياه وسألو
... فبرئك ونفس بخيرة شديدة ودهشة كبيرة .

وإن يكن كروبتكين غنياً وإن كان من بيوت الشرف العريقة في

لروسيا ولكن بيته في اجلثرا مع ذلك كان يفتح يوم الأحد لكل اللاجئين
لغيرين مثله من سطوة الظلم القيصري . وروى الرواة الثقة أنه كان فلما
يصبح يوم الاثنين وفي بيته شيء يطعم . لأنه كان يشاطر الناس كل شيء
على أنه مع هذا كان يأتي أن يعيش على حساب الغير . كان يستطيع في
بعض الأحوال أن يعود إلى موطنه ويسترد أملاكه ولكنه رفض كل شيء
ور أن لا يعيش إلا بكده وكسبه يده . حتى إنه كان يقدر في
موسيرا صحيفة « الثورة » وثقلت عليه وطأة النفقات . لعدم صسعة لصبوه
وحمل يصف الحروف بيديه ليقصد ويتمكن من المثارة . وكان قوى النية
وكن السجن هذه ، وسمع بعض أصدقائه في احتسار أنه نسب حرمته
في القلب وكانوا يعلمون رقة حاله وتوهمته على نفسه ورهفته . عمل
فرحوه أن يقصد إلى مكان حسن الجو في الاحتسار أو غيرها . وجميعه به
من المنعجين به مبلغاً كبيراً وطلب إليه أحدهم . شرس روى أن لينين
عنده صديقاً ليتيسر له إذا شاء أن يتمم كتابه الذي كان قد بدأه في شغوره
... بشر كتابه في التعاون بين الحيوانات . وكان عرضه منه ثبات فذوب
الطبعي الذي أشار إليه داروين . وهو أن التعاون من مكبر عموم في
البناء كالشارع أو السامس . فلم يستطع كروبتكين أن يقبل عرضه .
... ولم يسمح لهم حتى باستيقانه لروحه وسهم .

وقد حدث كروبتكين أكثر لعات أوربا وسأله بعضهم مرة أنه يذكر ؟
... أن هذا يتوقف على الموضوع الذي يذكر فيه . وفيه يذكر الأشياء
أو مرسية أو لاجعيرية أو الروسية حسب ما عت أهله موضوع

ومع أنه مقيم في روسيا منذ سنة ١٩١٧ فقد انتقد نظام السنفى
... في ظله بصرح عبارة ونسأ للجمهورية الشيوعية مقدمة عن
... وحده بالمشر والاحفاق ولم يور في آخر أيامه إذا كانت

قد انتهت - متقد النفس وثأبها وإن كان هرم الجسم ولم تضعف مواهبه
ومدركه - وبطل معروف في تاريخ المذاهب الحديثة بأنه مؤسس « الشيعة
الموضية ». ولا ينبغي أن يخطئ القارئ فيتوهمه من القائلين بالعنف فإنه
إنما كان يرمى بدعوته إلى حمل من يدهم الأمر وسياسة الجماهير على
تعبير آرائهم وتطهير قلوبهم . ومن منا - كما يقول - يبلغ من حكمته
وصبره أن يحل له رعاة غيره ؟ ولقد عانى هو وأمثاله من عباء السوء
وصلاتها وعمليتها ما زلله في أساليبها العنيفة وأغراه بوسائل المسألة
فعده أن تجديد نظام الاجتماع واصلاحه يستلزم :

أولاً - تحرير المنتج من نير الرأسمالين لكي يتأتى الإنتاج المشترك والتمتع

تحرير من نير حكومة موضدة حتى يتيسر للأفراد أن يصيروا
ويصيروا طوائف منتظمة انتظاماً حراً متدرجاً مترقياً من حالة البساطة إلى
حالة التعقد حسب حاجاتها .

ثانياً - التحرر من نظام الأخلاق الكنيسى والإحتياط منه الأخلاق
التي تدعو إليها حياة المجتمع نفسه .

ومن رايه أن احساس التضامن والتماسك يخلق أن يعين أعمال الناس
على أن يكونوا - كما يرى - من جنس واحد كما يرى أنه وإن كان
من مجتمع من جنس واحد من جنس واحد اجتماعي . إن جمهور
إنساني من جنس واحد ومن جنس واحد من جنس واحد
بطريقة مائعة للمجتمع .

وأما فكرة عدمه فهي - كما يرى - هو قانون التعاون . وهذا
هو فكره من فكرة عدمه . شرح هذا الفناء والدفاع عنه

من يسحو نحو سمسر . وخلاصته أن قانون التعاون أهم في شئون الاجتماع
وترقيته من قانون تنازع الفناء .

وظاهر من موجز ما أوردناه من مذهبه أنه نتيجة رد فعل لاغراق النظام
قبضرى في ارهاق الروسيين وتقييدهم بكل أنواع الأعلاء وتضييق
جميع أنواع الظلم والعنت ، وواضح كذلك أن كروموتكين من الثوريين
الكمايين أو الفوضيين السلميين الذين حلموا بحل الأرض فرددوا من
صوائف القرى والمثلد الحرة المتعاونة وأن يخلوا ذلك محل النظام لايفورصى
قبضرى . ولقد راعته ثورات سنة ١٩١٧ وهرته وفتحت عيونه على خدائ
الأرضية غير أنه مع هذا كف عن كل معارضة لحكومة السوفيت . كما
أن أسلفنا قد استنكر منها « مركرة » القوة السياسية والصناعية وحتى
ضعف العبارات وأمرها على تدابير القمع التي رأت حكومة السوفيت
ضرورة للدفاع عن الثورة .

الجمال في نظر المرأة

اتفق لي في ليلة من ليالي العيد أن سمعت واحداً من مشاهير العرب يقول
مودة يوسف عليه السلام بصوت فيه من العمل ومن المحاكمة في معاملة
عمل الشيخوخة وتعويض ما فاتته بتغيير روح العصر، ومن التصلب المزدول،
ما أملتني وصدع رأسي، وإن كان جمهور الناس من حرق يشع حور
ظرياً وهو يجاريهم ويقارضهم صياحاً بصياح، ويكثر لهم مما لا يهتم
بمحوه من النغمات وموثره من التواءات الأصوات. والسرادق كنه حريف
يركان من فرط الجلبة بعد كل آية حتى تلا هذه الآيات:

﴿ورأودته التي هو في بيتها عن نفسه وعلقت الأبواب وقالت هيت
بك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون. ولقد هممت
به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء
إنه من عبادنا المخلصين. واستبقا الباب وقدت قميصه من دثر وأغيا سبيله
لدى الباب. قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسحقن أو عذاب
آليم. قال هي رأودتنني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه
قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين. وإن كان قميصه قد من دثر
فكذبت وهو من الصادقين. فلما رأى قميصه قد من دثر قال إنه من
كيدكن إن كيدكن عظيم. يوسف أعرض عن هذا. واستعمرى نذيك
بك كنت من الحافظين. وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز ترأود فتد
عن صه قد شغفها حباً إنا لراها في ضلال مبين. فلما سمعت بمكرهن
أسلت إليهن وأعتد لهن متكاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت

وكيف كان هذا وما علته ؟ وجوابنا أن الرجل أقوى من المرأة ومن أجل ذلك وسعنا أن يوحى إليها ويث في نفسها رأيها واحساسه شأن الأقرباء مع الضعفاء ، ولا يخفى أن للايحاء أثرا لا يستهان به في كل آرائنا وعواطفنا وأعمالنا . وأكثر الناس مدين بعضهم لبعض بسبب هذا الإيحاء . والقوى يستطيع أن يقل آراءه واحساساته ويزعته إلى الضعيف ، وأن يتغلب على مقاومته ، ويشي عزمه ، ويلين من جانبيه ، ويتسق له ما يختلط في ذهنه وتضطرب به نفسه على النحو الذي يريد تهيئا لمقدار قوته ومبلغ إربائها على ضعف صاحبه .

ولعل معترضاً يقول : إذا كانت المرأة من الضعيف بالقياس إلى الرجل سرعة في تصفها . ونحيث يتمكن الرجل من الإيحاء إليها ومن قسرها على مشيئته . فأي شيء تعلق كون الرجل يعود العوية في يد المرأة التي حبه . ويروج وهو طوبخ لها من سنانها ؟ فقول إنه لا شك في أن الرجل هو لأقوى وبه كذلك طبيعته تكوينه ، وتبعاً لما يزاوله من الكفاح ويألفه من مقاومة منتهية ما هو ضروري لحياته . ولا نعني بالقوة الحسدى من حيث يدها على الإطلاق ، فقد يكون المرء ضعيفاً ويكون مع ذلك قد حى سيب ولاحيال وحس التصرف وعلى تعادى الأخطار ، وسبع مدته وغنمه ما لا يسع سواه منانة الأسر وتذوق العضلات . وليس بصحيح أن كل رجل نعمة امرأة التي يحبها على أمره ، ولكن هب هذا هكذا فإن مدته فيه ؟ وما وجه العجب في أن تتضاءل قوة الرجل أمام قوة إرادة حيائه التي تسحر مدته بقاء النوع والاحتفاظ بمزايا الجنس ؟ أليست المرأة غنوه تجمع في شخصها كل ما يروق الرجل من المعاني الحسنية ؟ أليست هي أقرب مثال محسود ما يتصوره خياله من هذه المعاني ؟ فهو - كما قال صديقنا العقاد وحسن نكته في هذا - لا يراحم امرأة بل يقف أمامه

أحسها جامعة في شخصها لكل ما في هذا الجنس من قوة ولكل ما للحريرة حفظ النوع من سلطان على النفوس .

ولكن هذا الضرب من الاستسلام ضعف على كل حال ، ودليل على نقص الرحولة . نفهمه ونعطفه ولكننا لا نستطيع أن نغترمه ، لأن فيه لقاء سلاح الدفاع عن النفس . وليس من الاحتفاظ بالذات وصوب النفس في شيء أن يسلم المرء نفسه إلى مخلوق آخر يبيت رهن إشارته . وقد كان هذا دليلاً على شيء فهو دليل على أن الحريرة الحسنية قد ضقت حريرة حفظ الذات وغلبتها ، وإن مقدار الأنوثة في الرجل أرى على مقدار رحوته فيه نغاد أشبه بالمرأة وإن كان له شكل الرجال .

٠٠٠

ولو كنت مصوراً وبدأ لي أن أثبت على اللوح صورة الرجل الجميل في نظر المرأة ، لآثرت أن أرحع إلى الأصل في نشوء فكرة الجمال عند المرأة . وأن أثبت في وجه الرجل ما يناسب احساس المرأة بالحريرة السوية ، وما نتجت عنه بمطرتها الذكية من الصفات التي تنضجها هذه الحريرة وهذا لا يمنع أن أجعل له نصيباً من الحسن كما هو ممثل في خواص الرجل بل في الواجب أن يكون له حظ من ذلك ، لأن الذكور على العموم في كل حيوان أجمل من الإناث على عكس الشائع عند الناس - أو نحن معاصري الرجال نرغم ذلك ونستخلصه من المقارنات التي نحريها - وكفى على كل حال ما كنت لأجمل له محبا امرأة كاللواتي نحس أنهن فتنة العرس ومضى

الرجل والمرأة في الهيئة الاجتماعية

حول رواية غادة الكاميليا
خلاصة الرواية - بحث في موضوعها - الممثلون

الكاميليا زهرة نضيرة بيضاء أو حمراء أو شتى الاصباغ ، منبتها الشرق ،
وسه نقلت إلى الغرب : والرواية التي نحن بصددنا الآن من تأليف اسكندر
دumas الصغير ، ولعله بها أشهر من الكبير ، وقد أطلق عليها هذا الاسم
لأن مرجريت التي تدور على حياتها الرواية تحبها ولا تكاد تبتعد إلا بها .
وهذه أول رواية كبيرة تمثلها فرقة يوسف وهبي على مسرحها وموضوعها
غاية في البساطة وحسن السبك : فتاة من بنات الهوى المترفات اسمها
مرجريت (روزا اليوسف) يحبها أرمان (يوسف وهبي) من أمراء الشرفاء ،
وتحاربه هي حباً بحب واختلاصاً باختلاص ، وتغصى عن ضيق ذات يده
بالتقياس إلى خطاب ودها من مثل دى فارفيل (استيفان روستى) والكونت
دى حيرى (حسن فايق) وتذهب معه إلى ضاحية تقضى معه فيها شطراً
بعيداً من حياتها التي ينقصها السلال . وكلما احتاجت إلى مال باعت
عما تملك من حلى أو خيل أو غير ذلك مما يتعلق به هوى أمثالها من ربات
الحياة ومنع الغرور ، وحببها جاهل ما تصنع ، حتى إذا علم هم بالتصرف
فيما ورث عن أمه وكر إلى باريس لاتمام ذلك تاركاً إياها مع عذراء من
صديقاتها هي نيشيت (فاطمة رشدى) وخطوبها جستاف (مختار عثمان)
وكان والد أرمان (عزيز عيد) يعلم هذه العلاقة العرامية ويتسخطها ،
فذهب إلى مرجريت وصادفها في فترة غياب أرمان واتهرها لتوهمه أنها

فكاشفته بالحقيقة التي كتمتها عن أومان وأوته عقود بيع أمانها
 وحيوه وما إلى ذلك فأنس إليها بعد الاستبحاش ، وأطمأن إلى احلاصه
 وسو عاصمته ونجد ذلك دريعة قاسية حملها على التضحية بنفسها وحيه
 في سبيل ابنته التي ارتهن مستقبل زواجها بيت ما بين أومان ومرجريت
 من صفة . فمست على مضطر ووعدت أن تكتم السر ، وكبت هي إلى
 أن رسالة قطيعة وعادت إلى باريس حيث عاودت حياتها الأولى ، ولا
 كان أومان إذئذ الذكر والألم المر الفاجع بين العين والقلب . ويلاقيها
 عن من يوفوف على سر القطيعة فتبلى إلا وفاء بعهدا لأبيه . ورغم
 لوعده الكمال الذي بذلته وتزعم أنها تحب فارفيل الذي صارت خليلته
 فبببب على مشهد من صواحبها وأصحابها ، فتصيبها نوبة عصبية وتذهب
 من حجر من رفاق نصحية ، وفي كلمة منجاتها لو شاءت ، وتقتل عيب
 وندة من صهره لغرائه ، وفي هذا الدور يكتب والد أومان إليه دافقية
 من مرجريت برساسة يعلنها بها ، فتعزى بأحيلة الماضي وما تدفع من
 حبور من بينها . ويأبى القدر أن يوافقها حبيبها إلا في آخر أيام تيم
 متى من على مؤبد إلا أن يجعل هذا يوم زفاف نيشت ، وإلا أن تدعو
 . حبيب من بكيسة شهوده . وإلا أن تعذر من التحلف بأنها ستعود
 في خدمة ولا أن تأتي بعروس في حلة رفاها ومعهما يعلها السعيد به
 سبب من يوشك أن يقوم فيه الماتم . وإن مرجريت لتعلم أنها لا تفي
 دونه حب في يومه هذا ، ولكن رؤية حبيبها تعشها وتشعرها بـ
 حده حتى غالت مطبوعة بعودة حبيبها والتي يعالها القضاء المحتوم فتغير
 . حبيب دونه . ويستند قوة ولكن كلساد الشمعة شب وفد أنفوس
 على حده . هوى حبه هامدة بين درانيه .

هذه هي حلاصه نهاية التي وضعها دوماس الصغير في عام ١٨٥٢
 بعد أن صعد نفسه في ذلك أربع سنوات وهي ، كما يرى القارئ . دور
 من يدور به الحام . وفي المجتمع أن يصغر لها رلتها ، وأحسب أنه
 . أن يكون به ما من إنسان يكون كل ما فيه شراً . وإياك قد حدد

القصص المنبوذة ، لخروجها عن عرف الجماعة ومألوف أنظمتها . عناصر
 من الخير قد تخطتها فيمن يلتزمون هذا العرف والمألوف . وكلنا به أورد
 في خيال بين أثرة والد أومان واصرارها - برغم اجلاله لعاطفة مرجريت
 واعتقاده فيها الشرف وسمو النفس وعلو الروح . على أن تصحى نفسها
 من أجل ابنته ، وبين ما استطاعته مرجريت وحملت نفسها على مكرهه
 من الايثار والتضحية - بقول كأننا به تعمد هذه المقابلة ليحمل القرب أو
 السمعين المتفرجين على مشايعتهم إياه على رأيه ومحاراته في مدعاه
 ومسايرتهم له إلى غرضه . ولكن ما غرضه ؟ إن كان كل نفس فيها من
 الخير والشر عناصر ، ولها من الفضيلة والرذيلة حظوظ ، وإن فتح المحجب
 يكون دونه عفاف سر وحسن مختير ، فمن ذا الذي يحبره على محادثة
 بالعرف في ذلك ؟ من الذي يحسب أن النفس الإنسانية يمكن أن تكون
 منها شراً محضاً أو خيراً محضاً ؟ بل من ذا الذي يحظره أن يشرب يوحده
 صرف والخير يتجسد محضاً ؟ بل نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ونسأل
 من من الناس لا يعلم أن الزواج في صورته الحالية طارئ على المجتمع
 وبه لم يكن موجوداً في العصور الأولى التي مرت بالإنسان . عصور
 الاستبحاش التي اجتازت دورها الجماعات البشرية قبل أن تنشأ هذه
 الأنظمة المدنية القاسية المعقدة ؟ نعم الخير والشر صنوع يدومان معاً .
 ولا بيت كل منهما على حدة . ولا شك أنهما كعود الزهر فيه الورد
 اعطار والشوثة الواحزة ، والثابت أن الزواج بضم طاء طارئ حديث و
 كان نديم العهد . ولكن أليس له مظهر يقوم مقامه في حياة الإنسان
 لأول ؟ في عصور المحمية العظيمة حين كان كل امرئ مرسل على
 محبته ، مطلقاً وفق عريته ، دون ما كايخ من عرف مضطرب وقبور
 مشرع ؟ ونسأل قبل ذلك ما هو الزواج ؟ أليس هو صريقة لتصميم علاقة
 . حل بالمائة وما يترتب على ذلك من النتائج المتعلقة بالنسل ؟ أليست عاقبة
 عظم علاقة الحب خدمة للنوع ؟ وليس هذا فيما يعلم بالحديد في تاريخ
 إنسانيه . فأما الحب ، فهو فوام عريضة حفظ النوع ، وما هو بالنظر

ولا بالذى بعثت عليه حالة الاجتماع المنظمة الحديثة وهو ينشأ فى حيث يلتقى إنسانان من جنس . لأنه الوسيلة التى تتخذها الحياة لبقاء مظهر الإنسانى ، أو بعبارة أخرى هو الأداة التى تستخدم لحفظ النوع ، والحرم من مميزات - لا بل من لوازمه - الأثرة التى تتطلب الانفراد بالجنس وتنقضه الوفاء ، وليس الوفاء فى الحقيقة إلا مظهرًا لشهوة الملك والاحتيال . وهى شهوة عريقة فى الإنسان ، وما أكثر ما يرضن المرء بالتافه من الاحرار والأملاك لا اكرا له ولا تعلقًا به لنفاسة فيه ، بل كراهة منه لأن يجرده سواه ؟

وقد يصينا أن نصور ما أحسه الإنسان الأول - إن كان قد أحس شيئًا - حين ألمى نفسه فى عالم لا يعلم من أمره شيئًا ولا يفهم من مظاهره لا كثيرًا ولا قليلًا . على أنه لا شك أن الأجيال الإنسانية الأولى كسبت معنى ما يحيط بها من ظواهر الطبيعة والحياة شيئًا فشيئًا ، وإن غيبهم كانت تتعقب الدائرة الوضاعة بين طرفى السماء ، وأنهم لاحظوا نوار والنور اللذين يأبيان من حيث لا يعلمون وسمعوا حلجلة الرعد وأصداءه فى مخارج الجبال ، وشهدوا اتفاق ذلك وما تحدثه العاصفة من التحريب . وإن احساساتهم وحاجاتهم كثر وتضاعفت وتنوعت وألحت عليهم وألحت بهم . فاندفعوا فى طريق العمل والتفكير ، وساعفتهم العريفة . واضطروهم لفتح الشمس إلى الاستدراء بالشجر ونوشيج أغصانه وحاجهم فعل البرد فآتشوا حلود الحيوان ، ولما لم تكفهم العيران والكهوف الطبيعية . ولا وفاء حاجاتهم . صعدوا لأنفسهم ملاجئ فى أحضان الجبال . والنسور البرد ونفوا النار . وشجروا المحارة لينحدوا منها أداة أو سلاحًا . ونفوا إلى ذلك وسواه على مر الأيام ، وبالتدريج ، لا طفرة واحدة . ولحمهم لم يتعلموا الحب بالتدريج ، ولا عرفوا ما يميزه من الأثرة وطلب الاعتراف

جون سائر المخلوقات بسببه وباعته على كثر الحقب . بل لفتهم الغريزة ذلك مذ وجدوا على ظهر الأرض كما أودعت غيرهم من المخلوقات ما يشبه ذلك وركبت طبائعها على الذود عن صغارها .

فأبناؤنا الأولون كانوا يحتازون مثلما نحن نتزوج ، ويأبون إلا الاستئثار بآباءهم ، ويطلبون الوفاء الذى نطلبه ، ويقارون غيرتنا ويدافعون عن أسرهم . فأنثروا بهن من النساء دفاعًا عن زوجاتنا ، وليس من فرق على الحقيقة سوى هذا العقد الذى يكتب ويسجل وتنظم به علاقة الزوجية وما ينشأ عنها من النسل والميراث .

وعسى من يقول : ولكن الإنسان لا يأبى المشاركة فى الطعام فما ماله بأنما فى الحب ؟ فنقول ليس الغرض من الطعام ما عسى أن يحده الآكل من اللذات المستفادة من نكهته ومذاقه ، بل ما يؤدى إليه من الصحة . يكسب المرء من القوة التى يستعين بها على أداء مهمته فى الحياة . وليس له بعد ذلك غاية ولا ثم غرض آخر غير المساعدة على حفظ الذات . والقبيل منه يكفى حتى إذا توفر الكثير ، وقد تتلب عاطفة التعاون على السراع . ولعل المشاركة فى الطعام أشد أحيانًا للشهوة ، وأعون على صلة القدر اللازم منه ، وفى هذا ما يفرى بها ، ويجعلها مرغوبة ومطلوبة ، فالأنس المستفاد من اجتماع الأوداء ، والقبطة التى يحدتها ذلك ، ونبيه بعدة وشجدها بهذه الطريقة ، من العوامل المعنوية فى جعل المشاركة محبوبة أحيانًا ، ولكن الإنسان مع ذلك أخلص لطبعه من أن يرضى هذه المشاركة فى كل حال . ولنفرض مثلاً أن الطعام قل أو حدث فقط لسبب من الأسباب وطعى الجوع بالناس . أنظرن حينئذ أن المرء تطيب له هذه المشاركة ؟ ألا يحطف المرء ويستأثر بما تصل إليه يده ؟ ألا يقتل فى سبيل إشباع بطنه ؟ نعم قد تكون العوس أقوى من الجوع فيتغلب التعاطف

على سورة السغب وجنونه ، ولكننا إنما نتكلم عن أوساط الناس لا القلائد
 اسدري من الشواد الذين تسمو بهم نفوسهم وتحلق فوق حماهير الخلق
 ثم ماذا يرى الجود مما يمدح به الناس بصفة خاصة ؟ قد لا يكون الجود
 بما يدور عليه الثناء في العصور الحديثة . ولكن الأدب القديم حافل به
 فلماذا خطر هؤلاء الناس أن يميزوا بمدوحهم بالجود إذا كان ذلك عاراً
 صريحاً ؟ كـ حاتم الطائي مثلاً حالد الذكر لأنه كان ينحر دابة
 حبه غيرة ؟ ولما تعنى حاتمًا على وجه التخصيص وإنما شجده
 دأمة وأدبه من أحواد العالم المذكورين . ليس الأصل في الإنسان الكرم
 ولا الأبر ولا شئ مما يحرق هذا المجرى ، وإنما الأصل فيه أن يعبر
 بغير غيرة الكرم . غيرة حفظ الذات وغيرة حفظ النوع .
 كانت المشاركة أعون على ذلك فيها وإلا فلا شيء إلا الأثرة والأنانية في
 أقسى مظاهرها .

وبدأت مشاركة في الطعام معقولة أحياناً لما تعبر عليه من شدة
 معدة ومنه من لأس والعبطة فليس مما يتصوره العقل أن يكون من شأنه
 . من غنى عافية من الحب وهي حفظ النوع . ولا هي يمكن أن تنقص
 بعد غنى فيه . بل لا بأس وشرح الصدر وعبطة القلب ، وحسن العطف
 في مدح وقد جسد نداء من صدها في عبر صدره وتجواب قلب آخر
 . حب كـ شفا يشير شهوة الملك في نفسى المتحليين واستشراق
 منهم . بالآخر ، هذه طبيعة العاطفة التي نحن بصدها . وكذلك كان
 مدحهم فديف . كذلك هي الآن وعدا وفي آواك فماداً يريد دوس
 في شيء يعنى . بعد في زهابه ؟ أن لا نغم من المعنى شيئاً .
 حبه ومنه من اشتباك حواي بأنس أن يجعل أنفسهم كـ شمر
 كل أسس ؟ بل المتعالي . موحد في الدن عشا وإذا كان ذلك في

طبيعة النفس البشرية ، وطلب التحول والتفعل كالمحلة بين رهرات الحياة
 معقولاً فإن ذلك لا يسوغ البقاء ولا ينفي ضرورة العفة .

ثم نفعل ذلك رحمة منا بالضعيفات اللواتي يهوين إلى هذا الدرك
 ولا يستطيعن أن يقاومن المغريات أو يحتسبن حائل الرجال ؟ حسن أن
 يكون رحماء وأن تغفر الزلات ولكن لمن ؟ لمن يستحق ذلك ، لا لمن يريد
 أن تعيش عيلاً على المجتمع وحميلة على الحلق وأن تحرر أديب المعنى
 وتقضى أيامها في ظل البذخ والترف بغير حق وعلى حساب اشريفات
 حصنات - وإذا كان هؤلاء لا يطقن أن يغالبن المؤثرات وأن يعبرن على
 مغريات فهن ضعيفات قد يدرك الفرد العطف عليهن ولكن الحياة لا تحم
 ولا ترثي لأحد وليس في الطبيعة محل لنصيف

وقد يكون هوى أرمان في هذه الرواية مما يعجب المتأمل ويروق صعد
 نفوس والأعرار ، ولكنه ليس فيه شيء مما يعجب الرحوة ويقع من قلب
 المحل ذي القوة - هذا لا يفهم كيف يذيب الحب النفس ويحييها كالتقصير
 نال الذي لا يصلح لشيء أو الورقة الملوثة ، ويقعدها عن أداء مهمتها
 في الحياة والنهوض بفرائضها ، ولا يترك لها من عمل سوى الكاء ويعين
 أي التخثث المزدول .

• • •

هذه كلمة لم ير بداً من قولها عن رواية دومانس نتي شفت ه صديق
 الشهرة . فلسا ممن يوافقونه على فكرته التي بنتها فيها ، وأنتاه لأحب .
 لا ممن يحدون هذا النوع من الحب الذي يدوى النفس ، ويعصف
 بالرحولة ، ويسبى المرء فرائض الحياة . وقد كان تمثيلها بديعاً وأداءه اندى
 فتموا نادوارها جيداً . وحاء حسن التمثيل مسعداً لموضوع الرواية حتى
 معروف مآق كسره " والسيدة رورا اليوسف حفيقة أعظم أساء على

حودة تمتد على الفرع من أن دورها فادح طويل مرهق ، ولقد نال
في الفصل الثالث اعياية التي ليس وراءها مطمح وذلك حين يتوصل إلى
والد أومان أن صحى بنفسها وتبادل حبها داء لابتته ، وهي جالسة سرح
في عذب صرخ من نواصف الجائشة المتعارضة ، وبين يديها رهرة الكاسية
نشر غلاتها ولا تفي ما تفعل ولم تر أعظم ولا أبهر من قدرتها في حد
مض عيه حين يعود حبيبها وتعال دمعها المترقرف وتعانج أن تسم
وعسحت وفي صدرها انفاث جحيم من الأم تصارعه . ولو أنها أصافت
شيئا من السعال في الفصل الأخير إلى تمثيلها الذي لا يبارى وقطعت
كلامها لما وجدنا مأخذاً ما .

وأجاد يوسف وهبي أداء دوره وعرف كيف يجعل حركاته طرية
ملائمة لمواقفه ، وأعجبنا منه على وجه الخصوص اقتداره على تمثيل الزرقة
، لاحظنا نحن نظراته وبهيته حسنة في وقته أصدق ناطق بدهان
، حركة دور حزنه لا يقصر في ما اتوت حبيته من مهاجرة
والآنسة وصمة شدي مد نحو عنها ؟ كيف تمثل عرارة انسي
وبساحة نفس ومتمسك بحب الحبيب وفرحه بقربه إلا كم فعات
، هذه صفة به لا يحجب شئ في أن مستقبلها سيكون أنهر وأروع
نات ، قدرة عظيمة على تكميل الدور وتتم
وجه حيث شاءت عن كل كلمة أو حركة وكأن الأمر واقع والمست
حيند ، صفة التي تدل على استعدادها لتمثيل أنها مسي
حبيبها ، وهذا هو الواجب . فإن على الممثل أن يمدح
دوره ولا يحد من أن هناك أمراً يقدر به ، على عكس الحبيب
لا يسعه إلا أن يعنى بجمهور السامعين وإلا أن يلاحظ الشاربيهم سماع
من توجيهه وجهته التي

ونحب أن ننبه الأستاذ عزيز عيد إلى وجوب التمكن من استظهار
دوره ، فإن عدم الحفظ يضطر الممثل إلى جعل باله إلى الملقن ، فيصرفه
ذلك عن تجويد دوره ، ويحمله على ملء الفترات بين الجمل أو تبعاضها ،
حركات قد لا يكون لها محل ، أو تكون كثرتها وتواليها بلا مبرر سوى
سبل الكلام ، من بواعث الضعف في التمثيل ، وبه نحن مسلمة في ذلك
ولا إعجابنا بقدرته ، واعترافنا بمواهبه ، ورغبنا في تنزيهاها عن هذا العيب
لصغير الذي لا تستعصى مداواته .
وقد أطلنا فليقنع الباقون من زملائهم بالشكر منا لهم على ما تحدد
وأحسنوا .

الأدب والفنون

الآثار في مصر

الحجر لا يحس الحجر . هذا - فيما نظن - لا نزاع فيه . ولقد غير
به زمن المخطاط كانت فيه آثار الفراعنة والعرب وغيرهم ممن حنصت مصر
ذكرهم ، حجارة وكان الناس شبهها لا يتزلزلون إلى نظرة يلقونها عندها .
ورد أنظرها شيء يباليهم عجبوا للقدماء وما تجسموه من جهد ، وصاعبه
من وقت ومال في نقل هذه الحجارة ورصفها وتوطيدها وتثبيتها . وكان
أهل العرب يقدون إلى هذه الحجارة ويوسعونها نظراً وتلبراً وعجباً ،
يسمعهم أهل مصر عجباً وتهكماً واستخفافاً ! ويهرون رؤوسهم وهم
يقولون - وعلى شفاههم ابتسامة الفطنة الساحرة ! - « ررق العصف على
المحايين » !

فالآن تغير كل شيء . حلنا نحن وحالت الحجارة . نطقنا لنا ووعينا
مصرها ، وأرتسمت على ألواح صوانها معاد تدركها وتحركها وتحسنت
عقولنا وقلوبنا وعقولنا صوراً محبة قديم وعز ماذج نالدها لتعريفهم وكرمه
نفس إلى مثل الحياة التي أنعمها . وإذا جاءت وفود غرب إليها لمع
شدهم « حنوناً » بها ووجدوا من ينسأ من لهم في أصل المصريين
علاقتهم بالعرب الأقدمين نظرية لا يبعد أن يحققها ما يقال إنه ظهر في
بعض الآثار الشبيهة بآثار الفراعنة الأولين . ومن من المصريين ، يحرك
أما نفسه وأعمق أعماق فيه ما سمعه من العثور على حثث محطة على
شفاة المصريه في أمريكا ؟ من ذا الذي لم يشعر أن قامته اعتدت

لما صافح أذنه هذا النبا ؟ ؟ أى حجر ذاك الذى لم تشع فى جوانب نفس
الخيلاء وزهو الفخر ولم يحس أن أمته أخت الدهر ؟

ومن شاء فليفرض أن هذا الخبر طير إلى مصر منذ مائة عام أكان فى
ظنك أحد يعا به ؟ ؟ وإذا عبا أكان يعرب إلا عن إعجابه بهمة رجال
الغرب ، وصبرهم على التنقيب ؟ ؟

ألا لقد حلنا حقاً ! وهذا هو الذى يطمئتنا على حركتنا القومية ويذيع
فى نفوسنا الإيمان بها واليقين فيها والثقة بحسن مصيرها - لا شئ سواه .
وما كان يحج الأصوات بالهتاف بالاستقلال ، ولا اللجاجة فى المطالبة .
... يدوم من التصميم على نيته كاملاً غير منقوص - ما كان لهذا وحده
أن يقنعنا بأن هبتنا صادقة وحركتنا صميمة عميقة . فما رأينا فى تاريخ
... هتفه قديمه لم يكن يريدنا نهضة فنية . ولعمر الحق هل يحسن
أن يحس المرء بحقوقه وواجباته ووظيفته فى الحياة قبل أن يحس بنفسه
... حبه وفلسفته يعرف ماذا هو وماذا كان من شأنه ، وقبل أن يستشعر
هذا الاحساس والذكر فى نفسه الآمال ؟ ؟

(١)

فى معرض الفنون

... على شخص سياسة لا تشر صحة ، ولا تحدث صواب .
... لا حتى يعقد إلا فى الأوساط التى نعى بها ونهيمها وتقديرها ، ولا من
من يحددها فتنها وبعثها ، يعطون إن دلالتها ، وهؤلاء فى شئ أمه
مستوب ، ... ذلك لأن ما تصوروا يحلها من لم يدرسها إذ لو كان ذلك
كذلك ... شئت ... شئت ... الحفر وما بينهما إلا العادون بهما
... وحدهم وحدهم ... بخلافه واقع ... وشبه هذا ...

لن يقول قائل إنه لا يقدر الشعر ولا يفهمه إلا العارف ببحوره وأصول
الصناعة فيه ، ولا يطرب للموسيقى إلا واضعوها والواقفون على ضرورها ،
وغير كلام يرقص العقل وتكره الغريزة والدينية وإنما يقبل من غيبوها
فيها لاتصالها بفلسفة الحياة العالية وبأمرار الجمال العويصة .

ونضرب لذلك مثلاً بسيطاً قريب التناول لا يُحفى قلماً ولا يكدر
ذهن القارئ - صورة « الأمل » . لجورج فرغريك واطس وهى عبارة
عن فتاة على كرة ، وعيناها معصوبتان ورأسها مائل إلى قيثاره فى يسراها
لم يبق بها إلا وتر واحد تعالجه بأصابع يمينها ، والجو جهم والسماء
مملوكة . ماذا تفيدك قواعد الفن فى فهمها ؟ ؟ إن هذه القواعد ليست
فى الواقع إلا كالنحو فى اللغة ، وكما أن النحو وصفته أن يحسن كانت
من حطاً فى تعليق الكلام بعصه ببعض . ويدرك عن رفع التصوب وحر
يرفع . وعن جعل المبتدأ خبراً والحرف فعلاً ، كذلك قواعد الفن لا تفسر
... لا فى باب الصناعة على الأكثر ، لا فى محاله المعوى والروحى
... - نخور الشعر لا تخلق الشاعر إذا أعوزته روحه . كذلك قواعد
تصوير والحفر وحدها لا تحمل من المرء مصوراً أو مثلاً ولو كان فيه
ما كان الخليل فى العروض .

... هذه الصورة لعبون الناس تحدهم لا يسعهم إلا أن يدمروا خط
... والتجديق فيها وإطالة الفكرة فى معانيها حتى وثق لم يعد كثرهم
صورة صادقة . للأمل . وما قيمة هذا الاسم ؟ به رمز لمرم وحده إن
... وحسبك الصورة فيها الكفاية لعمارة عن ذلك شئ الغامض
... لا يراى المرء مدى الحياة حتى فى أعصب استعانت امرأته بالإيمان
... وإرادة الحياة . ولا ريب أن هذا تصوير رموى ، ولعله من أشق
... عالم النفس وأدناه دائماً من الاحفاق ولم يشأ بعد هذا الصبر من

التصوير في مصر ، ولكننا سنقتا المثل منه لنطعمن القارئ غير الفني ولنقول
فيه ونفتح فيه من روح الثقة بنفسه والاعتداد بذوقه إلى الحد المعقول
وإذا كان لا يستطيع أن يعرف وجه الاجادة والانتقان من ناحية الصنائع
وتصوره فيه يستطيع دائماً أن يلتذ جمالها ويستمتع بمعانيها ويحسن تأثير
فيها وبالبراعة في أداء فكرتها وإبراز الغرض منها .

• • •

وإنه آثار مرصه ساعة لا تتاح له إلا مرة في كل عام . فقد افتتح
معرض القاهرة للفنون المصرية « مدار الفنون والصنائع المصرية »
وفيه أعمال ثمانية عشر مصرياً وثلاثة عشر أجنبياً .

في معرض كثر من مائتي قطعة كثير منها صور لأشخاص وجبر
سجل سيرة ما هو رسم لمناظر الطبيعية . ولكنها كلها على العماء غير
من صبيحة ولا فصحى اثنين أراد بهما صاحبهما شيئاً غير مجرد
الكل ، وتعنى بذلك أنه جعلهما « درساً » كما يسمون ذلك . والصورتان
أستاذ أحمد أفندي مصري وإحداهما لعلام متشرد والثانية لخمير
ولا نحصى حكم عبيهم من وجهة الأصول الفنية فالفن ورحل من
منه . والثاني وبكى الذي يدريه أن صورة الخفير باطقة فراع
من وجوه من كل ما يسمى عقلاً أو خيالاً ، وبامتلاء نفسه بامر
جده . والسجد من كل عذ في تحسبها أو التماس تعبيرها . وقد حير
بأنه أنفق في ما يشع على دماغه هذا لتحاوكت فيه نفسه
لقرة ! وهو ما أظن مصورنا قصد إليه من رسمه .

والأول من صلاه في جو العائشه من عمره الصنائع سدى . وهو
وسيد الوجه ، فنون كجبه به ولكن حسه على هذه الحياه حسه د
كان لا عهد به لها ولا حسه في نصها ، وبهرل لك عيانه .

بواجهك بخيل ويثنى عنك خذاً ، وشفته المضمومتان ، إن تحت هذه
الأطمار نفساً فيها خير كثير واستعداد قوى ، ولو أن بدأ مدت إليها
وساعتها لكان لها شأن آخر . وباله من جمال محبوب في أحوال . وبفس
مستعدة مطوية في أسمال ! ومن ذا الذي يرى انفراج ثوبه عن نحره وحسنه
ولا تمثل لعينه صورة الصراع الهائل الذي يدور بين هذه النفس اعصه
وبين عواصف الحياه ، ومرارة هذا العراك وفضاعته ، بين قوى شاكية
مستعدة وروح عارية عزلاء مزجوج بها في آخر أتول ليس لها مخرج
ولا نصير لا من العلم ولا من التجربة ولا من العطف !

وبما راقنا كذلك صور هزلية بالمكعبات (كيويزم) رسمها الأستاذ محمد
أنيس عالى بك العمرى ، وهى عبارة عن مستقيمات وفواس لا غير . وقد
صور على هذه الطريقة أشخاصاً عديدين بخص بالذكر منهم سعد ياق
ورشدي باشا وحافظ بك إبراهيم الشاعر ولويد جورج . وهو أسلوب
في التصوير يحتاج إلى درس طويل للوحه ، وكذا شديد لندى معرفة
هندسته وتركيبه . وصاحبها حقيق بكل حمد وتناء . وه تعجب صور
لأستاذ محمود بك سعيد في هذا العام . وقد كنا ، ونحن في طريقه
معرض ، لا نفكر في غيره ، وكان الذي نتوقعه أن نشهد في عمله به
انتقام ، وأن يلمح فيها ما يدل على اطراد التحسن . وقد فوجئنا به وحده
في العام المصرى مقالاً بمرته ويسوءنا أننا مصطفون أن سقده هذه مرة
والمد يصلح المستعد ، ولو كان لا أمل لنا فيه ما علمنا به . نعم إنه من
« نواة » ولكن له ميرة محرومة منها رجال الفن المصريون . وإن هؤلاء
م يروا براعات الغربيين وليس أمامهم منها إلا صوراً مفولة عنها لا تعنى
هذه الأسفل وهو يراها سناحف أوربا العبدية كلما ذهب إليها وخب
أن يقول له إنه لا فائدة من التصوير إذ كان عبدة عن فوئوعرافيه بالألوان ،

وإن مزية التصوير أنه يجمع بين الطبيعة - إذا كان نقلاً - وبين جمال
النس ، وإن الوجه ، ما لم يبرز المصور فيه معنى ، لنس له مزية على
المونوغرافية ، وقد رأينا له صورة سيدة انجليزية باسمه خيل إلينا أن فيها
معاني قصر المصور في إبرازها ، وإن المرء لو غرر أصبعه في جانب خدها
ما صادف عظاماً تقاومه ، وهذا خطأ في التخيل بلا ريب ، فإن الجسم
صمد وخم ، ومهما بلغ من امتلاء الخدين على جانبي الفم فإن من العاطف
أن تصور حيث تنمى فكرة وجود عظام الشدين مستورة تحت اللحم
وسر حول السيدة حوماً ولا هواء فكانها ملصقة بستان ، أو كأن ظهرها
، قد سى وقفة ويحب أن يشعر الناظر أن حول السيدة هواء كما يشعر
إذا بنظر إلى صورة الغلام المشرّد ، وهي مقارنة يجب على المتفرجين أن
تدركها ، فليس كوا يعرف هذا فضلاً عن الدرس الذى فى الألوان فى
صورة علام ، ففائدة بين الوردى النابت فيها وبين النفسجى هي مقارنة
تلد العين وتروق النظر .

(٢)

صورة الوجوه

قصبت فى هذا أهم من ساعات رحلت على بقعر العام الذى صارت
أحد خدمته . ويرى ما يلزم المرء أن يقسم مراحل حياته على دورة الملك .
وإن يقسمها نادياً مستطوفة حريجوار فلا تسبق واحدة منها يناير ولا سداً
بها الحقد ، وإن ديسمبر . وما أحمل أن يعصادف المرء فى فياقى العمر ،
من حين إلى حين ، ساعة جمال يستروح فى ظلها ويتربث عندها ، ويعتدها
مهما سببه حلاوة الصبر به ، مارة السعى إليه ووحشة الحذب دونه !
ساعات رحيه من أمتع ما يمر بالنفس وأنداء وأحلام ، وحذب فيها

من السرور باستيعاب المحاسن أضعاف أضعاف ما أنا واحد من الاهتداء
بالمعاني . نعم إن استقراء المآخذ واجتلاء العيوب يرضيان عمود المرء
من ناحية اظهار دكانه وفطنته ، ولكن للتفطن إلى الحسنات لذة لا تعادها
لذة ومتعة أنعم بها من متعة . ألسنت ترى أننا لو كنا لا نعيب عنا محاسن
الحياة ، ولا نتخطاها عيوننا وهى تبحث عنها ونيفيها فى كل ناحية ،
ونشدها من وراء كل سعى وأمل وفكر - نقول لو أنا استطعنا أن نلتد
دائماً محاسن الحياة لنخت وطأتها وارفع ثقلها ، ولوجد المرء فى الاعجاب
بالحسنات سلوى عن سيئاتها وعزاء عن شرورها وملهاة عما ينعه منها
ويشبه عليها ومرض نفسه إذ يتدبرها .

وفى المعرض وجوه ومناظر . وإذا كنت لا أستطيع أن أجمع فى
بين الخواطر المختلفة التى تحركها صورة الوجه وصورة المنظر فقد جعت
وكادى فى الساعات التى أتيت لي أن أقضيها هناك أن أخص كلاً من
كاملة من وقتى ، وسيكون كلامنا هنا على الوجوه دون المناظر .

لذيذ جداً أن يحس المرء أن مصوراً رأى فيه معنى يعث عاطفته الغنية
ويريه بإبرازها ، وأن يشعر أن نفسه ليست صفحة بيضاء خالية مما يستحق
أن يُقرأ بل كتاباً حقيقياً بأن تعبره العين وتنقب فيه . وتحترق ما حواه
بين دفتيه فى تقوية هنا ، أو ضغطة هناك ، أو لمعة يشيعها المصور فى
العيون . وأن يعلم أن هذا المعنى الذى لمح المصور سيحلد على الأيام
ولا يلحقه تغيير ولا تغدو عليه الصروف لا كأنه تريك حاصر أمرت
وما ينطق لك ساعة النظر إليها من فتور أو نشاط ومن توقد أو حمود
نعم ليد هذا لأنه راجع فى أصل الاحساس به إلى طلب النفس الإنسانية
للتعدد ومتصل فى مرد أمره بفرقة حفظ النوع التى تدفع المرء إلى التماس
السل والخلود فى اللزومة .

ولكن لهذا جانباً آخر حالكتنا . فإن كل نفس صندوق أسرار ، وقد لا يحب أن يكشف عنه ويفتحه لعبون النظارة . والمصور ذا نظر فاحص متقرب يفتش السرية ليتزعم منها سرها ويلقى ظله على الوجه ، وما أخرى المرء أن يحس ، وهو جالس إلى المصور ، كأنه متهم في حضرة محقق يخاوره ويداوره ويقلب معه البحث على كل وجه - ولكن بالعين في الأكثر - ليهتدى إلى سر الجريمة أو براءة الضمير .

في هذا الشعور - إذا نشأ - ما يغري المرء بكتمان نفسه . وقد يعجز حينئذ المصور عن جلاء شخصيته في وجهه وعن حصر خصائصه في معارف طلعت ، فتخرج الصورة ، برغم المصور ، فاترة ليس بها لا معالم وجه مغلق لا ينطق بشيء . ولا يكون هذا راجعاً إلى ضعف مصور بل إلى عجز الحالس .

... في غنى هذه الحواطر وأنا أتأمل صورة ... عليها أثر التعب الذي عناه المصور والجهد الذي بذله لانطلاق الوجه حتى عاد ظاهر تعبها فيها من عيوبها الملحوظة . وماذا يصنع المصور إذا كان صاحب الوجه حينئذ حل - نفسه من أن يدع عينه أحنى تنفذ إلى صميمها ؟ ما حبيته إذا كان الجالس لا يريد أن يُطلعنا على رأيه في نفسه ؟ لا حيلة له ، وهذا غيب الصورة من عليها ستاراً غير مرسوم ! وليس أعجب من ما نرى من وهو جالس إلى المصور ! هذا ، ولا ريب ، رجل باحث في حروف ومعاني ، حريصاً ليس به فقط من الحياة المشوبة . وإلا ، وسعة أن يقتصر حنونه وقومه . حل بشرحة ويدرسه كأنما الأمر لا يهمه . ومن هذا قبل منه . حل صادق . براه في الصورة فتشتمل ليس منه على صدره . أن يحس عقه وتساؤل عسك ليس هذه المعنى حصار يفتحها " ليس في فنة الأمد الفنونية ما يرهنا في الرقاد في

أحصل الساعات بحركات النفس وأشدّها اكتظاظاً بالعواطف المشوغة ؟ ؟ ساعة يدرسك المصور ويحتك على درس نفسك والتفتيش فيها مثله باحثاً عن المعنى الذي وجدته بلا غناء ، ويبحث فيك كامل العروق ويحفق بينك وبينه في لحظة تعاطفاً متولداً من اشتراككما في موضوع ليس أهم منه في نظريكما فكأنكما زوجان حبيبان بينهما غلامهما ؟

ويقرب من هذا ويتصل به من الطرف الآخر الأطفال . هؤلاء لا يحفى ، كل ما لهم من حيوية في أعضائهم لا في رؤوسهم . عواطفهم فسادجة لم تصقلها الحياة ولم يعقدها الصبح . وقد يرميهم نسيكون . ولابد منه في التصوير - كادت تقف دماؤهم في سرورهم وتركوا الحيوية التي كانت منذ برهة واحدة شائعة في أعضائهم متدفقة كالسيل ، ولعل من أصعب الأمور على المصور أن يرممهم ، ودائماً به يحتاج أن يداعبهم إذ كان كل حديث جدي أو مرمر مغفول لا يحس به منهم ..

ويقول بيرك في كتاب " الجيل والحميل " أن حمل ما في صميمه جيد الحسنة البريئة - أو ما هو في معنى ذلك - وقد كان هذا هكذا . أحسنه على الأقل فنة العين - فإن المصور معدود . قد تقتصر على حصة دنون جانب ، وليس أخطأ من رسم الوجوه . دماؤهم بصر ربيح ويزده حياتها بطول التحديق والفحص وتعليق العين بالعين ، ولا يقد غريفي من حرج الموقف إلا أن المصور يستغرقه الفن ، وهو نمت يتشغل به ويرى طبيعة ، ويرى حياة المادة وحمود الظل فيحول وأصل الحالس صورة يدرس ويتحول الاحساس بالمعاني إلى احساس بديد رنواحب وهي صعوبة لأداء ومشقة التعبير ما يكفي لاصراف الدهن في العمل ولولا ذلك ما أمكن لمصور مثل الأستاذ الفريد كمبوت أن يرسم " هامة " . أعني

أن يتمها . وهى صورة سيدة أفريقية فى ملاءة مصرية ، وعلى وجهها
 القفاب ، وثوبها الأحمر القانى تحت الملاءة يول عن كنفها . والصورة من
 خمس مائة للفيس الأحياء فى هذا العام وإن كان عليها بعض التفسع
 فى كنفها ، الأسر وهى فى جملتها وتفصيلها صورة امرأة بالمعنى الجنسى .
 وقد كان كبار الفيس الغريين مثل نيتيان ورفائيل يتحسرون على عجزهم
 عن محاكاة جمال الجسم العارى ويذهبون إلى أنه لا سبيل إلى نقل جماله
 بـ "تجرب" . وأرغمهم على حق لأن الجسم العارى مجمع كل المعانى والعواطف
 والاحساسات الإنسانية ، دقيقتها وجليلها ، وساذجها ومهذبها ، وعنفها
 ولينها ، وعميقها وخفيفها ، وقد حاولت السيدة أرمه بتوجيه الفرنسية
 تصوير أجساد عارية فلم تأت بشيء . جسم كل شيء فيه اسطوائى .
 وبه على رعمه احمراره كقول الرمز وكأنما نزع كل العظام قبل الرسم .
 وتركيب معين والألف غير طبيعى فلعلها تعنى بدوس تركيب الجسم
 الإنسانى فلا بد منه لكل مصور .

(٣)

الحدود الطبيعية

فى ذات يوم شاب أزهى الشاة لا تسبحم البذلة الامرجية على
 جسمه . ولا يحدد الظهور على رأسه . وكان يحمل تحت . إبطه .
 دس . فما يستعمل التلاميذ فى المدارس خشوة بكلام كثير فى الشعر عامة
 الشعر بمعنى خاصة . وهو إلا أن جلس حتى استأذن فى قراءة
 ما كتب فى كتابه . ولم يكد يعمل حتى قلت لنفسى إنه لم يغير شيئاً
 حين غير ثيابه ! ولم يود على أن . دد معارة تغنوها الركاكة ، ما شبه
 بين رشيق واحد له بلعه حرة . ولست أدري لماذا عبت بأن أيقن له أن

ما سمعت من كلامه لا يؤدى إلى شيء تطمش إليه النفس ويسكن إليه
 العقل ، ولكن الذى أدريه أن ظنه أن الأدب شيء يستطيع المرء أن يحبط
 به حبط العشواء فإذا وفق كان التوفيق عفواً ، وأنه ليس هناك مقاييس
 عامة ولا محك مضبوط . أقول إن هذا الظن صدمنى فأنشأت أشرح له
 خطأه وأريه أن هناك على الأقل جدّاً ، مقياساً عاماً وميزاناً لا يكاد يعلى
 نعيرة ، وأن ثم شيئاً اسمه الحدود الطبيعية ، فى دائرتها يقع لا مكان
 وتكون الاستطاعة . وأعيد هنا الآن مع الإبحاز ما ضربته له من الأمثلة
 ايضاحاً لذلك .

لتفرض أن مصوراً أراد أن يرسم الفجر ، فماذا يسعه ؟ إذا كان المنظر
 الطبيعى هو المقصود بالذات فليس يدخل فى مقدوره سوى أن يجمع لك
 فى رقعة اللوح الصغيرة ما تأخذه عينه من مميزات هذا المشهد الرائع
 لحميل . وأن يضيف إليه ويزيد عليه ، جمال الفن نفسه وهو حمد
 تحليه فى اختيار وجهة النظر ، وفى الألوان وتنسيقها والمراوحة بينها .
 وهى القطعة المستقاة من المشهد الطبيعى ، وفى الروح التى يصور بها هذا
 المنظر . ولكنه لا يخفى أن فى وسع الفنان أن يمثل لك معنى "الفجر"
 بأسلوب آخر وعلى نحو مختلف جداً فلا يعتمد إلى منظر الطبيعة كما هو
 فى الواقع ، لأن غايته قد لا تكون نقل الواقع المعجب ، بل يستعين أحيانا
 ويستوحى الوجدان والشاعر ويضع لك على اللوح ، لا منظرًا ، بل رمزاً
 يشير به كما أسلفنا إلى ما يفهمه من الفجر : أى إلى الاحساس الذى يحرره
 والحالحة أو الخوالج التى يولدها إلى فجر الحياة ، لا فجر الأرض
 والسماء ، وإلى وهج الشعور الأول الساذج بالدهش والعجب ، وإلى النور
 الذى لم يعمر قط لا برأ ولا محرراً والذى لا يملك مع ذلك مراقاً على كل
 شيء لا مضيقاً من خلاله النور الذى يليق لك بالديا ويشير فى نفسك

الاعجاب بها وإكبارها واليقظ لها - وبعبارة أخرى مختزلة - يرفع لعينيك صورة رمزية ليس فيها نقل عن مشاهد الطبيعة بل عن الحقائق الروحية المركزية الحادثة التي يقوم ويلوب حولها الأدب والفلسفة أيضاً ولكن من ناحية أخرى وبأسلوب آخر، أى تصوير الفكرة كما فعل فريدرىك جيمس وإسحق جبر رسم شيئاً كالرباوة المعشوشبة وقفت عليها امرأة يزل ثوبها عن ظهرها إلى فخذهما، وقد أمسكت بشمالها إلى جنبها، ويمسكها على تقبيلها. وشعرها متهدل مرسل يعث به التسييم التدى، وهى كالذى سمى من سبات، وقد منحكت ظهرها البادى إلى الردفين وانصرفت وجهها وصدرها إلى الحياة التى يتنفس فجرها ولا تزال نجومها طالعة، وعند قدميها طائر ناشر جناحيه ينفض عنه الطل ويوقظ روحه ويعدها

قد تنظر إلى هذه الصورة فلا تترك الغرض منها والمقصود بها لأول مرة. ثم تقرأ كسرة نجر تحتها فيحظر لك أن هذا الاسم كتب خطأ. وحينئذ تكتشف بعد ذلك أن المصور مجنون! ولكنك لا تلبث أن تنسى هذه الحواطر الجائعة التى تقفك في أول الأمر ثم تُدمن النظر إلى الصورة بسواد فى مثل حسب الرقيق الشفاف فيدب فى نواحي نفسك معنى دمصر فى، وتختل هذه الصورة تمثل شيئاً يعجز عنه التعبير لأنه حينئذ يوسع من أن تأخذ العين حيلة، وأحصى وأعرب من أن يكشف لك عن كلام. ويدرك أنك واقف ترمو إلى حقيقة كبيرة تدرك بها هذه السماء السوداء التى تتر فيها نواصير النجوم الباهتة، وذلك الكوم من البرودة والعشب. تلك امرأة المنحردة إلى نفسها فكانك أمام القوم والعناصر الأول قبل أول يوم من أيام الخلق!

وعلى أنه لا شأن لنا بهذا المصور الرمضى وإن كنا قد استطعنا أن

نكره طبيعة الحال. وكلامنا هو على التصوير من حيث قدرته على نقل مشهد الطبيعة. وليس من شك فى أن المصور يستطيع أن يقلد لك مظهر كما هو باد لعيني، وأن يُريك على اللوح وبالألوان ما رأى هو فى الواقع، وأن يضعك بذلك موضعه، وأن تُعيناك على أن تأخذ فى لحظة واحدة وبمنظرة واحدة جملة ما اكتشفت به عينه هو وتفصيله. وليست كذلك قدرة الشاعر أو الكاتب، فما يستطيع مهما بلغ من تمكنه من صياغة اللغة وافتتانه وتصرفه وعلمه ودقته أن يرسم لك مطراً كما هو أو أن يعينك بما يصف على تأليف المنظر وتخيله من أشجاث العناصر والنوعت حتى يقدمها إليك ويعرضها عليك. فالفرق من هذه الوجهة بين التصوير بالشعر هو أن للتصوير لحظة فى الفضاء وللشعر لحظات فى الزمن. أى أن المصور فى مقدوره أن ينقل لك المنظر الذى رآه وراقه كما هو كائن فى صيغة ولكن الشعر لا قبل له بذلك ولا طاقة له عليه وإنما يسع الشاعر أن يفيض إليك «بوقع» هذا المنظر وبما يثيره فى انفس من الاحساسات والذكري والآمال والآلام وانحواف والخواجج على العموم بأوسع معنى هذا اللفظ. وعلى العكس من ذلك يسع الشاعر أن يصف لك لحركات المتعاقبة فى الزمن وأن يحضرها إلى ذهنك ويمثلها لحاصرك وذلك ما لا سبيل إليه فى التصوير.

وليس من هنا أن نستقصى حدود القوم، وأن نقيم ما بينها من التوصل العديدة والفروق الكثيرة وأن نبين ما يدخل فى دائرة كل منها، لكن الذى نقصد إليه هو أن نقول إن الحدود التى تقيمها طنائع الأشياء معيار أولى يكفى المتدنى ليستطيع أن يقول هل من المصور أن يحجج هذا شاعر أو المصور فيما يعالج؟ ومادا عسى أن يبلغ من نجاحه فيما يزاول؟ إن أى درجة من الاحادة بسعه أن يُوفق «فإذا رأى شاعراً يحاول أن

يتخذ من قلمه ريشة مصور أو فوتوغرافية كان له أن يوقن أنه مختلف لا محالة ، وإذا رأى مصورا معينا بأن يرسم لك على اللوح حركات متناهية في الزمن أو وقع المشاهد في النفس فإن من حقه أن يجزم بأن الفشل نصيبه

وإنما هنا شئ أن لمصور نقل المنظور وأن للشاعر وصف الروح وحركات متناهية لا تصوير النظر ، فأين يكون مجال الموسيقى مثلا يرسم " ونحسب أن ليست بنا حاجة إلى التنبية إلى أننا إذا تذكرنا الموسيقى لا نعي شقيقه منها أو المضربة إذ كانت هذه لا تزال في الواقع شعرا شعرا ، بل نرى أنها أصبحت مستقلة كما صارت عند العرب ، ومعنى أن الموسيقى صارت من التعبير الصوتي ، وأن الأصوات أسبق في تاريخها إلى الموسيقى من شعرات ، وأنها هي الأداة الرئيسية التي تتوصل بها حواس السامع ، وأكثرها إلى العبارة عن احساساتها وإثارة مشاعر في حدها كدست كانت لألوان في عالم الحيوان والنبات أسبق من التعبير وأقدم . وليس يخفى ما لصيحات التحذير أو التوعد من الأهمية في تاريخ غيرة حفظ الذات ، وهي أصوات تخرجها العريزة حين تنبه ، عند تعب حبيب ، أو سكون ، كما ترى الواحد ما يشب ويقفر فجأة إذ يدعى بغيره بحد ينفذ أو هو ذلك مما هو مظنة التهديد للحياة وهذه الحوادث كلها ، مما جعل التعبير الموسيقي صاهرة قديمة في تاريخ الحياة ، هي في الحقيقة ، هي كسبت هذا الصرب القديم من التعبير فوته استعدي وتأثيره يسمع في نفس السامع ، والموسيقى جميعا ، لأنه يوقظ غرائز أقوى من كل أداة ، ومن كل ما عسى أن تحركه بصعته خفلة ، ومنه أنه بعد التفكير على سطح مسدود يذكر العين بواسطتها بصفتها المباشرة في الفضاء ، وما يحسب بعد ذلك أن يظل الموسيقى ، على الرغم من نفسها وسداحتها على الأرض في الشرف ، هائلة السلطان على النفوس ، كل أداة للتعبير باللسان ، ومن الميسر أن يحاكي امرؤ أن يعبر باليد

أو غير من الأصوات ، أو بهذه وتلك جميعا ، عن كل ما في الأرض والسماء والجحيم من الحقائق ، وعما في النفس من الحركات ودرجاتها بطلانها التي لا يأخذها حصر ، وعن أسرار الذاكرة وآلاء الريح ، وبكسب يسقي ، على كونها أداة للتعبير تُسمع ولا ترى ، على خلاف التصوير ، لا تصلح أن تكون وسيلة للتفاهم والتحدث ، فلا تستطيع أن تقول بضعه أحد متعاقبة كما تقول بالألفاظ ، فمت اليوم مبكرا وأكلت رعيما وشئت شيئا غير سكر ، وبعث وشريت ورخت كذا قروشاً ، ومن هنا قيو في الموسيقى لغة الروح .

وهي طبيعتها أقرب إلى الشعر وأمس به رحما لأن كليهما معونه عن زده الصوتية وإن احتلمت اللغتان وتباينت حدود قدرتهما ويعود الآن إلى هذه الوطئة الوجيرة التي لا مندوحة عنها إلى المثل الذي صيربه . فنقول إن الموسيقى ، إذا خطر له أن يولف قطعة موسيقية عن الفجر ، لا يسمع - كما يسمع الشاعر - أن يصف لك بطريقة مباشرة وقع هذا السحر في النفس وما يثير من الإحساسات ويوقظ من الذكريات أو يُنشئ من خواطر والآمال ، ولا يدخل في طوفه أن يرسم المنظر على حقيقته كما يفعل المصور ، ولكن له مع ذلك مضطربا واسعا يستطيع أن يصور فيه ويحور . أن يكون له فيه عمل حليل ، وإذا كان يعنيه أن يحدث عن الحواجز مسحة التي يحركها منظر الفجر في النفس ويحيشها في الصدر ، وأن يسم لك المنظر طائفة من الخطوط والألوان يريكم في حقيقته وتذعته في نفسه ، فليس يعجزه مثلا أن يُسمعك من الأصوات ما يذكرك به ويحضره لك ويحريه في خيالك ، كأن يحكي لك حفيف السيم يوسى السيل إذ يهب مع العहर ويوسوس في آذان النيات والشجر ، وتغريد العصافير التي تهب فيها ساعته العريزة المعردة ، وأعاني الرعاة الذين يستيقظون مع العصافير

استل على نفوسهم مثلها جماله وروحه فحيونه ويناجونه بالفتاة والحار
 برمر وهذا وشاه هذا ، يحضر إليك الموسيقى منظر الفجر بما ينتب
 من لأصوات المألوفة في ساعته والتي من شأنها أن تذكرك به ، وتعرف
 من حبة أخرى عن الخواص التي يبعثها ولكن بطريقة غير مسنودة
 بجمع فيها بر شيء من التصوير التخيلي (شيء من الشعر ، وذلك أن
 لا يرسمك منظر وكى يسمعك أصوات الحياة المميزة له في جميع
 مظهره ممكنة ، ولا يصف لك حوالجه هو بل يطلق عليك من الأصوات
 ما يحرك هذه الخواص ويشعرك بإياها بكل قوتها .

بعد سمعت تقدمه ليس من وكذا أن تنقصى وإنما أردنا كما
 من شفر أن هذا حدوداً طبيعية لا سبيل إلى إغفالها ولا خير في تحطيم
 ، شمس فيبقى شئ على هذا فقد دللناه على الهج ، وأحر به إذا سار
 على - - - يصل

في معرض الفنون

(خواطر وملاحظات شتى)

فن التصوير والمشاهد الجليلة - الغاية الاجتماعية - عنصر الجمال
 أكتب هذا الفصل وحول صحراء ما لها في رأى العين انتهاء كأنها
 إلى قال فيها ابن الرومي :

جاء قواء خير مرعى مطية وموردها فيه الحاء العتممة
 يروح به يوم وتعزف جنة فيعوى ها سيد ويصبح سم

وأذكر قول مسلم في فدفد مثل هذا

تمشى الرياح به حسرى مولدة حيرى ، تلوذ بأكاف الحلاميد

وسأل نفسى ترى التصوير قبل بهذا المنظر ؟ أيسع المصور أن يقل
 أن على اللوح هذا الفضاء المترامى العازف بأنفاس الرياح الذى :

ينصر قاب العين فى فلولاته بواسر صفوان عليها وحلمد ؟

أستطيع أن يحرك فى نفسك معانى الجلال التى يتيرها هذا المشهد فى
 السعة ؟ وكالصحراء القصور السامقة وإمهاوى السعة التى نورث لرب
 ومن الرأس ، وقطع الحال الباتة المشرفة كأنها معقة إن الصورة .
 هم كبرت وذهبت طولاً وعرضاً ، محدودة السعة ضيقة دقيس إن
 هذه المشاهد . وترامى الأبعاد ، لا تقارنها ، هو الذى بشر معانى الجلال
 من النفس وإن لم يكن وحده كل ما يتبعها . وانصور مصطر أن يصغر
 المشهد حتى تصمه رفة صغيرة . ومن شأن هذا أن يحول دون الاحساس

بذرة والأوادي المصطحة مثل الحال تريد أن تناطح السماء وأن تعرج
مركز الأرض قطبها .

بهذه هاوية أعماق وأهول من هاوية تشكيب بطبيعتها ، ولكن . وصف
لها لا يخلت التأثير الذي يحدثه وصف تشكيب ولا يعبك على حل
لقرار السحيق الذي لا يبلغ مداه . إذ كان لم يذكر ما يجعلنا حسه
لأحاسيس الواجب . وإن يكن ، فيما عدا ذلك ، قد أحسن تصوير ما
حسب الطامح وحسب لك اثرتابه والهاب الرياح له أن قال به كاد
أن ينطح السماء وأن يمزج بقطب الأرض مركزها .

ويعود إلى التصوير فنقول إنه لا قبل له بمثل هذا ولا طاقة به غيبه .
كانت رقعة الصورة محدودة ، وكان التصغير الذي يصطر إليه نرسو
لا يترك الأحساس بالحلال تحريك الصحامة ونرامى الأبعاد على مرعه
صعده المصور وما يستطيع أن يقوم به حيل الناضر . ولكن انصو مع
بث يسهه ، إلى حد ، أن يعطيا فكرة عما لا يقوى على الخدعة على
خفة أبعاده ، وذلك بواسطة المقارنة بمقياس معروف مقرر في الساحة .
حيث مقياس هو الإنسان ، على الرغم من تفاوت أطوار الناس واختلاف
حرمهم . وقديماً جعل الإنسان نفسه مرجع المقاييس . واتحد بالنسبة
لنفسه « القدم » و « الذراع » و « الشبر » و « القامة » و « الخطوة » و «
أمامه أشياء أخرى غير الإنسان ألفتها العين وهي الوسع اتحاداً مرجع
ألمع غير هذا أو ذاك لا سبيل له إلى إعطائنا ولا شبه فكرة عن شهاد
سعية الصحامة ومن السحافة الواضحة أن يعتمد أحد إلى منظر حسن
نح بصعده ويدعه على لوحه وحده ، وليس إلى حاسه لا إنسان ، ولا حيوان
لا من أو شجرة أو غير ذلك مما يناسب المشهد ويعبر على تصور
لجانبه

ذلك مستطع قد نذكره في الفصل الثاني .
تليت لن الرومي ومستم وكما استطاع شخص
في . . . حيث وضع على لسان إنجر - وهو غرود حمراء
في حبه الصلابة المطلقة على المهرة - قوله :

ما يا مهدي . هذا هو الحلال . فف ولا تتحرك . ما أقول .
.
هذا المهوي لا تكاد تبلغ حجم الخنافس : وثم طائر هفت
.
! والصادقة الذين يمشون على صيف اليم أراهم كالجرذان ، وذلك
.
.

فما كان عثر صخرة وبعده عن مسور
أن صغر لك ، ما تأخذ العين من فوقها ، وبأن مثل لك أحجاة
هذه الوثبات بما تعرف ضالته . فإذا استعنت تجربتك الشخصية استطعت
.
.

هذا هو وصف مسور في الكتاب السابع من المدد
بهاوية التي لا فها حين يقف على حافتها « الآن
حسبه السهوية وحدث حيث يقول

وهذا على أرض ممهية ويطروا من الشاطئ إلى الهاوية السحيبة
لا نحاس ها غور صاعه كآله ، مظلمة قواء تبعث من أعماقها .

جرى هذا بذهنى وأنا أتأمل ما فى معرض التصوير الذى فتح منذ أيام من الصور التى تمثل ما فى طيبة والأقصر من المشاهد الطبيعية والمناظر الأثرية من صور وادى الملوك التى رسمها عبيد أفندى ، ومثل منظر يهو الأعمدة فى معبد الأقصر منصور آحر سبت اسمه . كلا الرحلين اجتزأ بالمنظر الذى رسمه وهما يمشيان بهيئة نذير وسيلة تعبته على تصور الحقيقة الحليمة .
ما فى من روعة أو سحره فهل نراهما لا يفهمان حدود منهما ؟

...

أمكن أن يخدم التصوير غاية اجتماعية ؟ لم لا ؟ ماذا يمنعه أن يؤدى
... حب فيه يؤدى ويصنع فيه من الأغراض والغايات ؟ أى شيء من
... أو غير هذه ونسك لا يخدم المجتمع ؟ عسى من يقول
... كنك يا رجل تصور تخميلة مفعية . فنقول : إننا لا نكثرت
... تشبهت عربة متدحجة على الرعم من كل الفروق التى يصورها
... حارجز التى يقيمونها . وعلى أن الذى نعرفه هو أن التصوير قوامه
... عملان : أولهما وأسبقهما فى الوجود الرسم ، أى التخطيط الذى توضح
به المعالم ويبدو به المرسوم ، وثانيهما التلوين ، أو طبقة اللون التى تشر
عن نسخة صورة . والسبب الأول على كليهما منمعى أو هو على كل
... فى . فى . جند . يودوى براون « مؤلف كتاب العنوان فى
انجلترا القديمة » قد لوحظ أن المسح إذا أراد أحدهم أن يؤدى إلى زميل
له وقع حيوان أو شيء فى نفسه ، رسم بأصبعه فى الهواء المميزات التى
عرف بها هذا الحيوان . شيء . فإذا لم يده ذلك ولم يبلغ به عد .
... سمة محسوسة على الأرض . وليس بين هذا وبين الرسم على رقعة من
وتحفظ ما ينقش عليها ، إلا خطوة .

وقال عن التلوين « إن الجسم الإنسانى - وهو أول ما يعنى الإنسان -

رفيق حماس . والخشب - وهو من أقدم أدوات البناء والذى تتخذ منه
كل السفن - عرضة للتداعى ولا سيما إذا تعرض للرطوبة . كذلك آية
نفس القديمة نضاجة لأنها لم تكن تحرق الاحراق الكافى . ومن هنا كان
حقيقاً بالإنسان أن يلتفت بسرعة إلى خواص بعض المواد الصالحة لأن يحد
بها دهان شديد اللصوق بما يراد وقايته أو تقويته . وبعض صمغ يدهون
أحسامهم بأنواع من الزيوت وما إليها بعد أن يمزجوها بغيرها من مواد
يسوا من وراء آدهانهم بها الدفء المطلوب فى المناطق الباردة . وتحميهم
من لدغ الحشرات فى الأقاليم الحارة والقطران أو الشمع أو ما بينهما . بد
أداه الشمس أو النار ، صلح لطلح الحشيش به وجعله بذلك موفى من
لرصوة . وقد اهتدى الإنسان إلى الدهانات التى تغطي بها الأوتى مصنوعة
من الطين لسد مسامها . وليس هذا كله من الفن فى شيء بل مقدار
... يكون التخطيط أصلاً للفن . ولكن هذا يكتب صفة فيه منى لعب
... دوره . وهناك أسباب فزيولوجية تجعل للون الأحمر تأثير بلاهة ،
... والقوية على العموم وفقاً فى النفس وهذا الاستعداد متأثر بالأمر
أصل ثان يبين لفن التصوير .

والتصوير فن « ذهنى » كالشعر ، عرضه العاطفة وذاته الحيوانية
حواسر المتصلة التى توحها العاطفة وجهتها ، وبد كانت ريشة تصور
لا تستطيع أن تجارى القلم فى إيضاح الفوايد التى يسعى أن نحرق على
مقتضاها حالات المعيشة وأنظمة الاجتماع وغير ذلك . فإبدا تستطيع
... لا شك أن تمثل بما تسعه قدرتها آلام فقر وحزن المرؤوس به وبرغم
... السعادة ، ومكافحتهم لقوى الطبيعة وبضام الاجتماع . وتسمى نفوسهم
... عنها عن الدرك لدى هم فيه إلى حور رقى ومحمد وأحمل معنى خباة
... حفته . وبذلك تحرك فى نفوس انظاره العواصف التى تنود منها الرعة
فى لتعير والروع إلى الإصلاح

ومن أجل ذلك مرنا أن نرى في المعرض صورة من صنع الأستاذ أحمد أفندي صرى يريد بها شيئاً غير مجرد الرسم وإثبات ملامح الوجه ومعارف السحنة بالغاً ما بلغت الدقة في ذلك والقدرة عليه . وهي صورة تمثل صفة نائسة قدرة شعناء الشعر . يخيل إليك أنها نهم بالبكاء ، وتكاد تلمح في حملاتها الدمعة المترققة . وقد رسمها مرة أخرى بعد أن أصلح من حاشاها ، وأندلها من أقدارها وأسمائها نوباً نظيفاً ومنديلاً تعصب به رأسها وتجمع تحته شعرها مضطراً ، فجاءت على دقة الشبه وكأنها إنسان آخر ، فيه أمل وحير ، لا كتلك المتفرقة في الفاقة التي تثير رثائتها ويؤسها العطف والألم والرعة في المواساة وفي إصلاح هذا النظام الغريب الذي كم شقبت به من نفس مستعدة .

•••

والتصوير في أصله فن تقليدي ، ولكن ليس معنى ذلك أن تمثيل الطبيعة ، تمثيلاً لا يتجاوز مجرد النقل دون زيادة أو نقص ، هو كل ما يطلب من التصوير . ومن المسلم به أن إثبات صورة الشيء ليس عملاً فنياً ، وإنما يصبح كذلك إذا كان الأثبات بحيث يبرز صفة الشيء ويؤكد مميزته ويمثله فيه روحاً أو بعبارة أخرى لا يكون الرسم فنياً إلا إذا ظهر فيه عنصر الجمال في الترتيب أو التأليف ، وإلا إذا صار إبراز الفكرة والأداة وعناصر التمثيل والجمال وطابع المصور في عمله - كل ذلك واحداً في جوهره بحيث تصبح الصورة وليست عبارة عن فكرة رسمت وألست عمداً هذا النوع الفني ، بل فكرة خليفة أن لا يكون لها وجود إلا بمقدار ما استطاع العبارة عنها بالتصوير .

ويقول لحي « إن غاية كل فن لا يمكن أن تكون إلا ما يستطيع هذا الفن أن يلمحه دون الاستعانة بسواه من الصور » . والتصوير ، على أنه فن

تقليدي ، لا غنى به عن عنصر الجمال ، حتى ليصح أن يقال أن الجمال هو غايته التي ليست وراءها غاية . وأسمى ما يكون الجمال في الإنسان ، من ناحية واحدة هي ناحية وجود مثل عليا له ، وذلك ما لا يكاد يكون له وجود في الحيوان ، وما لا وجود له على التحقيق في النبات والجماد . ومن هنا كان مصور المناظر الطبيعية ورسام الأزهار والورود دون غيرهما ممن مجالهم الإنسان ، إذ كان ما في الطبيعة والأزهار وما إليها من الجمال ، عاجزاً عن كل مثل أعلى ، وكان المصور الذي يجعل وكده إثبات هذا الجمال لا يبدو أن يشغل بعينه ويده .

وليس أكثر في هذا المعرض من صور الناس ولكننا لم نجد إلا صورة واحدة نستطيع أن نقول إنها فنية . وتلك صورة للأستاذ أحمد صبرى لشابة جميلة استطاع المصور أن يثبت في وجهها حالة مخامرة لا رائلة ، وشعوراً باطنياً ملازماً ، وكأن هذه الشابة تدرك أنها جميلة ، ولا تخفي عليها مزاياها وماتوئها لها هذه المزايا والمفاتيح ، ولكنها مع ذلك تشعر أن شيئاً ينقصها ، وأن حياتها تعوزها كلمة واحدة بخطها قلم المقدور . غير أنها لا تدري ما هو هذا الذي ينقصها ويمنع حواسها أن تشمل بشوة الحياة ، ولا يفيض على الدنيا أضواء الفرديس ، نعم لا تدري وإن كانت تحس . وليست لجهلها ما تبغى ، أقل تيرماً ومللاً ونزوعاً إلى الاشاحة بوجهها عن متع الحياة ، على فرط ما تنطق عينها به من الشوق إلى ارتشاف كأس الاستمتاع الذي يعدها له ، ويعريها به ، نضوجها واستيماؤها حظاً وافياً من تمام الجسم وجماله ، بل نعلها لهذا السبب أشد تيرماً وأكثر أسى ، وإن كان تيرمها التبرم الذي قد يدهلها عنه ، بين أن وآن ، مالا بد أنها موفقة إليه ، طافرة به ، ولعل خير ما تسمى به هذه الصورة « النفس الطامئة » ولكن غير هذه من الصور لا ترى فيه إلا حالة زائلة ليست هي

نأى ينبغي أن يطلبها المصور ويعالج أن يؤديها ويشتها ، إذ لم يكن في
 إتيانها مزية خاصة أو براعة شادة وفدرة وتحويد في أدائها . وليس الحال
 كذلك في تلك الصورة التي لا تكاد تمضي عنها حتى تنساها كأنك
 ما رأيته . ذلك إلى عيب في الرسم كالذي وقع فيه الأستاذ ناجي في
 صورة « مدام آدم » إذ جعل ما ينسدل على مافيها من ثوبها وهي جالسة
 تلبس قطعة من الجلد الغليظ ملتفة عليهما تحس بعينك ممكه وغلظه .

التصوير والشعر الوصفى

(١)

الحركة والسكون - وصف المناظر ورسمها - الجمال ووقعه
 مذهب الامبرشزم

يقول ابن الرومي (١) :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة وشك الملح بالنصر
 ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
 إلا بمقدار ما تنداح دائرة في لجة الماء يلقي فيه بالحجر

وهي أبيات مشهورة ، فيها - كما يرى ، أو كما سيري ، القارئ
 صورة مركبة ، ونعني بذلك أن في هذه الصورة التي رسمها ، مظهر
 أحدهما منظر الخباز يتناول قطعة العجير كرة ولا يزال بها يسطط ويدحوى
 حتى تعود رقاقة مستديرة مسطحة يصنع بها بعد ذلك ما شاءت صاعته
 لإصاحها مما لا شأن لنا به الآن . والمنظر الثاني الماء يبقى فيه حجر فيحدث
 وفوعة فيه دوائر تسبع شيئاً فشيئاً حتى تصعب قوة الدفع ويعثر الاضطراب
 الذي سببه سقوط الحجر . وفي كلا المنظرين حركة ، أو قل إن كلا
 منهما مؤلف من عدة مناظر متعاقبة سريعة التوالى . إذاً أراد مرء أن يشتها
 باسم على اللوح احتاج أن يصنع فيها صوراً كثيرة تمثل كل منها وحداً

(١) هذا الفصل قائم على أسلوب معروف وقد خربنا صممه خاصة أن شئت وشرح وعضو
 حرية للسجع يعرفها من قرأ كتابه « لا يؤكروا » .

ولكنه بعد أن يفعل ذلك لا يكون قد صنع شيئاً على الحقيقة ولا أمكننا من الطر إلى حمتها كما فعل ابن الرومي بأبياته الثلاثة . لأن ههنا حركة هي محال لشعر ، وليس للتصوير قبل بها أو قدرة على إثباتها . وإنما كان هذا هكذا لأن الشاعر يسعه أن يتدرج وأن ينتقل من وصف حركة إلى وصف أخرى وثالثة وإن كان لا يسعه أن يفعل ذلك بمثل السرعة التي تنوب بها الحركات . ولكن تسامح القارئ أو السامع هنا قليل ، وما يطالبه الشاعر من خياله أو يعول فيه عليه ليس بالكثير ، وما عليه إلا أن يقتصر البقاء الذي في طبيعة اللغة التي هي أداة الشاعر . وهو بطء قد اعتاده المرء في حياته وفي كل مظهر من مظاهر اتصاله بالناس . ولكن هذا البطء الصعي يعتق بحون في التصوير جموداً غير مقبول ولا سبيل إلى احتمالاه أو اعتداه . لأن وطبيعة التصوير أن يعطيك المنظر دفعة واحدة لا على قساط . وإن يمكنك ، بنظرة واحدة ، من أخذ جملة المنظر بكل ما فيه من تفاصيل . وكما أن المصور يخفق إذا عالج تصوير الحركات المتعاقبة ، كذلك يحق للشاعر إذا هو حاول أن يرسم لك ، بالألفاظ المتعاقبة ، مصراً ثانياً خالفاً من الحركة . خذ مثلاً أبيات أبي تمام في وصف روضة في مقلة المصيف :

يا صاحبي تفصيا عجبكم
نريا نهارة مشمساً قد زانه
دنيا معاش للوري حتى إذا
أضحت تصوغ بطونها لظهورها
من كل زاهرة تفرق بالندی
نبو وعجبها الجميم كأنها
حتى غلت وهداتها ونجاها
مصفرة محمرة فكانها
من فاقع غصن النبات كأنه

نريا وجوة الأرض كيف تصور
زهر الربى فكانما هو مقمر
حل الربيع فبتمسا هي منظر
نورا تكاد له القلوب تنور
فكانها عين إليك تحد
عذراء تبدو تارة وتخفر
فتين في خلع الربيع تبخر
عصب تيمن في الوغى وتمخر
در يشق قبل ثم يرعفر

أو ساطع في حمرة فكانما
صبح الذي لولا بدائع لطفه
يدنو إليه من المواد معصر
ما عاد أصغر بعد إذ هو أخضر
والأبيات في ذاتها ، وبالقياس إلى أمثالها مما في الشعر ، حسنة جميلة ، ولكنها من حيث القدرة على تصوير المنظر للقارئ واحضاره إلى ذهنه ليست إلا مظهرًا للفشل التام والمحر البين الذي يعني بهما من يريد أن يتخذ من القلم ريشة كريشة المصور . وخیال القارئ هنا هو الذي يفعل كل شيء ويتناول العناصر التي سردها الشاعر ثم يرتب منها صورة على مثال ما يروقه من المناظر المألوفة . وفي وسعه أن يرسم لنفسه من هذه الأبيات ألف صورة لا تشابه واحدة منها أختها . وفي مقدور كل امرئ أن يتصور آلافًا من هذه المناظر . وقد يكون ذلك حسنًا وجميلًا ، وربما ذهب البعض إلى أنه مزية وإلى أن فيه فضلاً ، ولكننا لم نعصد إلى هذا ولا أردنا شيئاً سوى أن اللغة عاجزة عن أن ترسم لك جملة المنظر الذي تأخذه عينك حين تقع عليه .

غير أن هذا الذي لا يتييسر للشاعر أو الكاتب يتهيأ للمصور كما لا يتهيأ سواه . وهنا موضع التحرز من خطأ قد يقع فيه القارئ أو يتوهم أنا نقوله ، ذلك أن المصور ، حين يرسم لك مثل هذا المنظر ، لا يرسم في الحقيقة أعصان النبات وألياف أوراقه وغلائل الأزهار وما إلى ذلك من التفاصيل وإنما هو يحدث من تأليف ألوانه والمزاوجة بينها ما به يوهمك . أنت ترى كل ورقة وكل عود . ونقرب المسألة قليلاً فنقول به يرسم لك وجهًا تدلى منه لحبة ، فإنه لا يرسم كل شعرة في هذه اللحية ، ولو حاول ذلك لرام المستحيل ، ولكنه « يوهمك » بألوانه وبأشياء الضوء والظل أنه فعل ذلك ويدخل في روعك أنك ترى شعرات اللحية وأن في وسعك أن تمسك كل واحدة منها وتفتلها إذا شئت . وهذا « الإيهام » أو التخيل الذي يتأني في التصوير لا سبيل إليه في الشعر والكتابة على هذا الوجه وإن كان في الشعر نوع آخر من الإيهام .

فالمصور له لحظة في الفضاء والشاعر له لحظات متعاقبات في الزمن ، ومن أجل ذلك كان على المصور أن يتخير أحفل اللحظات بالمعاني والدلائل وأنمائها - إذا استطاع - على اللحظة التالية مباشرة وأدائها ، إذا تيسر له هذا ، على اللحظة السابقة . ولكن ليس له أن يطمع في تصوير أكثر من لحظة واحدة أو رسم التعاقب الذي يقع في الزمن . غير أنه يستطيع . بحسن تخييره وانتقائه للحظة الحافلة ، أن يجمع بين لحظتين متعاقبتين متداخلتين في الحقيقة . ومن هذا القبيل صورة « العمامة » في المعرض لمقام في القاهرة . وهي للأستاذ صبرى وفيها يرى الناظر رجلاً من عامة المصريين في سروال أبيض ، وقميص مثله ينسدل إلى الركبتين ، وفوقه صدرية مفتوحة الأزوار ، وطربوشه على ركبته اليمنى ، وكفاه على طيات لعمامة . والناظر إلى هذه الصورة يرى من وضع اليد اليمنى من أين جاءت في لفها حول العمامة ، ويكاد يحس أنها ستتحرك ماضية في طريقها ، فالمصور هنا استطاع أن يُنبئك عن الحركة التالية التي لم يرممها ، وتلك قدرة ولا شك وأستاذية لا خفاء بها . ولكن المصور مع هذا أخطأ فيما عدا ذلك في رأينا . ذلك أنه لم يختر اللحظة التي تتناسب مع إشعار الناظر إلى الصورة باستمرار حركة الكفين . وهذا لأن العمامة تامة حول الطربوش ، أنت من صورة أن عمية اللف قد انتهت وأن هذه الحركة الواضحة من رسم الكفين والمراد بها توجيه طية العمامة ، لا محل لها تقريباً ، ولو أن حدث من العمامة كالناقب لم يُنبئك بتسبب هذه الدلالة على الحركة مع استمرار عملية اللف . على أنه قد يُحذر له بأن الرجل يسوى عمامته ويحسها بعد أن أنهىها . وهو اعتدال مقبول ولكنا كما نحب أن نرى هذه الصورة السبعة الممتدة عن الاعتدال مما يدها لنا فيها من عدم تحرى ألسن اللحظات فيما نرى .

ولكن الشعر يستطيع مع ذلك حين يعالج وصف المناظر أن لا يقصّر عن التصوير وأن ينده ويغوته . ذلك أن المصور إنما يُلقى إليك المنظر مجرداً من خوالج النفس ومن وقعه في الصدر . نعم إن في اختياره معنى ، وقد يحرك المنظر الرسوم خالجة أو عاطفة أو احساساً في قلبك ، غير أن المصور لا يسعه أن يضمّن المنظر احساسه هو أو ينهى إليك كيف كان وقعه في نفسه كما يستطيع أن يفعل الشاعر لأن الشعر بطبيعته محال العاطفة . نخذ مثلاً أبيات البحري في الربيع :

أتاك الربيعُ الطلّقُ يختال ضاحكاً
وقد نبّه الثوروزُ في غلس الدجى
يمتقها ببرد الندى فكانه
ومن شجر ردّ الربيعُ لباسه
أحل قلابدى للعيون بشاشة
ورق نسيم الريح حتى حسبه
نسا يحبس الراح التي أتت خلها
من الحسن حتى كاد أن يتكلما
أوالّل ورد كنّ بالأمس نوما
يث حديثاً كان قبل مكثما
عليه كما نشرت شيئاً منمنما
وكان قذى للعين إذ كان محرما
يجيء بأنفاس الأجنة نعما
وما يمنع الأوتار أن تترنما

فلم يحاول أن يرسم لك صورة وإنما أفضى إليك بما أثاره الربيع من المعاني في نفسه وبما حركه من طلب الانشراح في عيد الطبيعة ولو أنك جئت بأبدع صورة مرسومة ووضعتها إلى جانب هذا الكلام أو غيره مما يجري مجراه لما أغنت شيئاً . فإن لكل من الفنين دائرة إذا عداها ضعف وسمج ولحقه الوهن وقصّر عن الغاية .

• • •

وأجمل ما في الطبيعة وأرقى ما فيها الإنسان ، وما أحسننا نكثر شيء فيها إلا من أجله . وأقوى ما في الإنسان عواطفه التي مردّها إلى عزيزة حفظ النوع ، وكما يعجز الشعر عن رسم جمال الطبيعة بما يعالجه من الوصف ، كذلك يعجز الشاعر عن إثبات صورة من يحب من الناس

مهما أوتى من القدرة والحدق . بخلاف التصوير فإن بضعة مخطوط
مجتمعة ، وألوان موتلفة ، تحضر إليك الصورة دفعة واحدة ، ولكن الجمال
ليس مظهرًا فحسب ، وليس كل ما فيه ألوانًا موتلفة وأصباغًا متناسقة
حتى يمتص بشعر يده من تصويره يائسًا ويدع كل أمره للمصور . وقد
كان من السخف أن يجور شاعر ، كبشار بن برد مثلاً على مجال المصور
ويقول .

ست عتبر وثلاث قُسمت بين غصن وكتيب وقمر

، دون هذا الجمع السحيف بين هيف الغصن وضخامة الكتيب
، ومن غير أن تحدث صورة معقولة لها معنى أو من ورائها حصول أو
دراسة سوى بحر التفسير والتقييد السمج ، إذ كان القمر مثلاً ليس
حسب لأنه نص أو مستند بل لأن لبيابه شائقة ولدكرها نوظة في القلب
وعروق بضمير الفؤاد ولأن حسننها مُحرك للأشجان مثير للرجبات وكذلك
غصن . أسخف أن يكون قدُ إنسان كفاذه وإنما يكون جميلاً بما حوله
من حاشية المعاني - نقول إذا كان ما يعالجه الشاعر من هذا القليل ليس
فيه خير ولا وراءه فائدة ، فإنه يستطيع أن يأتي بخير كثير إذا نظر إلى
لحم الخنزير حركة أي إذ مثل لك رشاقته وسحره ووقع محسوس
لعديلة كما فعل بشار إذ يقول .

كان لساناً ساحراً في كلامها أعين بصوت للقلوب صبور
نُبت به ألباناً وقلوبنا مراراً ونحيبهن بعد همود

أريد صورة ما تثيره ملاحظة في نفس رائيتها من الرغبة والصد
كما يظهر من قول النولسي .

مقسومة فيه ملاحه ما بين مجمع ومفترق
إذا بدا اقتادت محاسنه قسراً إليه أعتة الحدق

والبيت الثاني هو المقصود . فهذا مجال إذا رج المصور بنفسه فيه

سهدف لكل عيب وحصل نفسه أصحوة . وتصوير البيت الثاني مرسوم
امرأة بارعة الجمال وحوها تفر من الرجال تكاد عيونهم تخرج من
وجوههم ! غاية السخف ولا شك . لأن وطبعة المصور ليست أن يأتي
ببيت التأثير بل أن يدع الصورة تؤثر بداتها وبما تنطق به دون أن يعالج
أداة الأثر الذي تحدثه .

لا . ليس بالشاعر حاجة إلى أن سرد لنا أوصاف الحمل وأن يمدح
بما مثلاً ما لو أن عينيه وكف حمرة خده ونضوج صدره واعتدل و
كفينا أن يقول مثل ابن الرومي :

ليس فيما كسيت من حلل الحسن ولا في هواي من مسترد
لعلنا أنا هنا نقرأ عن جمال تخيله وفق هواه ولا نحتاج إلى صورة
ولا نكون أقل مما تصوره فتحيب أمنا . وحسبك أن تقرأه هذا البيت
أهى شيء لا تسأم العين منه أم له كل ساعة تجديد ؟
لتفري بأن تصور لنفسك المثل الأعلى للحمال ولتعد كل صورة مربية
دون ما تتخيل ، أو قوله في مغنية :

ذات وجه كأنما قيل كن فر ذا بديعاً بلا نظير فكأنما
ومتى ما سمعت منها فشذو يطرد المسم عنك والاحزنا
في حلمي إذا رقدت وهمي ومسروري ومني بقطاننا

ومن العيب ولا شك أن يعالج المصور رسم وقع المصور كما أسعد .
أو يحاول أن يصف له الصورة في مثل الصاب وأن يقول لها إن هذا هو
ما تعلقت به عيني من معنى ما أرى وقد شأ مدح لا مرشده من
سفنأ من فهم وطبعة المصور إن وطبعة التصوير هي أن يقل المرئي خلا
في معنى الجمال مع إعادة هوائ الرسم والأصول التي تجمع به
من المفردة . أما التأثير والوقع فشيء خارج عن دائرة المصور . نعم إن

للامبرشترزم أصلاً صحيحاً في ذاته . ذلك إنك قد تنظر إلى الشيء وتأمل تفاصيله واحداً واحداً ، وتدبر فيه عينك على مهل لتأخذه في جملته وهي نقصه . وقد تنظر إلى الشيء نظرة عامة لا تتوخى فيها تأمل التفاصيل أو قد تنظر إلى جزء معين منه تعلق به عينك وتترك ما حوله يبدو لك في غير وضوح لأنك لا تفحصه بتطرق ولا تعتمد بلحظك إلا الجزء الذي أنت فيه بصرك . والمصورون على طريقة الامبرشترزم يتوخون إحاطة الآخرين لا لأبواب . ولكنهم يصحون في هذا السبيل بالرسم ذاته مقدس حصون عن النظر جملة أو على جانب منه على الخصوص مع ترك باقيه ملفوفاً في ضباب عدم الالتفات إليه مع العناية إلى جانب ذلك بالألوان الحية . ولو أنهم دققوا في الرسم وعُخوا به أيضاً لحاز عملهم ، ولكن لأبواب . تذهب على الزمن فلا يبقى على اللوح شيء لأنه لا رسم هناك أي لأن الأصل غير موجود . فهو مذهب يقوم على خطأين : الخروج من دقة التصوير أو تجاوز حده ، وإهمال الرسم الذي هو قوامه . ومن غريب أن ينشأ هذا المذهب في مصر وأن يتعلق به بعض مصوريها . أحسبهم يؤثرون أنه لا يكلفهم مراعاة الأصول التي لا يحسنونها على ما يظهر !

(٢)

الدمامة - الاحساسات المركبة - المضحك - التصوير الهزلي

يورد في هذا الفصل إن مثل ما بدناه من الكلام على الشعر والتصوير وأظهر فرق ما بينهما في طريقة التعبير عن المعاني التي يكون هماً من شأنها . معتمدين في ذلك على ما بدناه في هذا الباب وعلى ما يمكن استخلاصه من درس - غاب القدماء . وهو موضوع يصدق فيه الكلام . ولا يؤمن معه القدماء . والاستهزاء ، ولا ييسر استقصاء بحثه من جميع جهاته في بضعة أشهر أو أعمدة . فعلى القارئ أن يتم الفحص ويسد الفراغ .

١٤٤

فما نطمح أن نقدم له أكثر من بضرة إذا هو تعهدنا ريت واهتزت وآتته ثمرًا كثيرًا وخيرًا وفيرًا .

الشعر والتصوير ليهو هما الجمال . والدمامة في الدنيا كثير بل أكثر من أن تحتاج إلى وصف أو تصوير ، والناس أحس بها ، وأشدّ همومًا منها ، وأعظم اتقاء لما تشيره من الاحساسات المنقصة من أن يرتاحوا إلى تمثيلها أو يطلبوا أن يروها مصورة . فهل للشعر والتصوير أن يتأولاه ؟ سؤالا لا نجرؤ أن نجيب عليه بالنفي الشامل ، ولكننا مع ذلك نقول أن الدمامة ، من حيث هي ، لا ينبغي أن تكون مما يعتمد الشاعر أو المصور تمثيله لذاته فقط . ولا شك أن التصوير باعتباره فناً تقليدياً ، له أن يفعل ذلك وأن ينقل القبح ويصوره على اللوح ولكنه باعتباره فناً حقيقياً ليس له أن يتحد الدمامة في ذاتها غرضاً ، وإنما هو يتخذ منها أداة إلى استثارة احساسات أخرى غير التي تبعثها الدمامة نفسها . وإنما كان هذا هكذا لأن المصور يستطيع أن يجمع على اللوح كل مكونات الدمامة فتأخذها بعين دفعة واحدة . وقد يكون صدق التصوير ودقة الحكاية مصدر سرور لناظر ولكنه سرور أو ارتياح معته قدرة الفن ذاته لا الصورة . فهو عرضي لا يتصل بأصل الموضوع بل يأتي من صريق العمل . وهذا لا يكون إلا وقتاً لا يلبث أن يزول . ولما كانت قدرة الفن معروضة سلباً وصدق نقل الأداء مقدراً من قبل ، فإن الناظر لا يطول تأمسه هذه القدرة التي كانت محسوبة وكان من أمرها على ثقة ، ولا يلبث أن يتحرك في نفسه الشعور بالمشئ عن منظر القبح الدائم الذي هو أصل الصورة وقوامها لا عرض جاء من غير طريقها .

والأمر ليس كذلك في الشعر إذ كان لا يسعه أن يقدم بتقريب جملة الدمامة محتمة ، بل هو يسردها عليك متفرقة ويؤدها إليك على ألسانه وسوقها مقطعة الأوصال ، فيضعف في أثناء أدائه ذلك الاحساس بالصور الذي تستشعره حين تقع عينك على جملة ذلك محتمة على اللوح

فالتغصُّ المستفاد من الصورة يضاعف ويفتر في الشعر حتى لا يكاد يحس .
 وإذا كان الشاعر يفسد عليك الأمر إذا هو عالج وصف الجمال فإنه يهون
 عليك التعية حين يسرد أوصاف الدمامة . بخلاف المصور فإنه يغشى النفس
 ويكرب الصدر بتصوير الدمامة ويسر يتمثيل الجمال .

وعلى أن الدمامة ليست مطلوبة لذاتها ولا هي ينبغي أن تكون من
 صور الشعر ، الصور وإنما هما يغيثانها - إذا احتاجا إليها - وسيد
 مبره ودة يسعينان بها على تحريك إحساسات متزاوجة أو مركبة غير
 ينهبها منظر الدمامة . وقد تعلم أنه قل من بين الاحساسيات البغيضة -
 يقول نيقولاى - ما لا يكون مختلطاً بغيره أو نقيضه ، فالخوف مثلاً
 لا يجتمع مع حبه من حيط من الأمل كما يقول ابن الرومى :

أخبر من غشى وأحو مدره وأستار غيب الله دون العواقب
 من غشى غيبى قل مدشى ومن أين والغايات بعد المذاهب ؟

عجب زمره زمره في الأحد نثار ، ومن الأمثلة الواضحة لذلك
 في الشعر ثورة ابن الرومى على ابن المبرِّ لما أحقده بتخييب أمله فقال فيه
 قصيدته التي مطلعها « يا ابن المدير غرنى الرواد » وفيها يقول :

أدعو على الشعراء أنحب دعوة إذ مجدوك ، وغيرك الأمجاد
 قل ل بآية حيلة أعملتها هتفوا بأنك ، لاحفظت ، جواد ؟
 لكن أحوال معاشراً خبيثهم نصبوا الحبايل للأسى فأجادوا
 أثبوا عليك ليستريحك غيرهم بحبيب خبيثهم وتلك أرادوا
 لتلاقين شتائى نارياً لا يجتويك حريقها الوفاة
 ولأرميك بعدها بقصائد فيها لكل رمية إقصاء
 شعاء تضرم فيك نارا شاعة نفى نوالرها وأنت رماء

والحزن لهذا مرتبط بذكرى ما خلف من الأيام الحسان والساعات

لحموة ، وأظهر ما تحد ذلك في شعر ابن الرومى أيضاً ، تأمل قوله هي
 رثاء ابنه محمد وكان طفلاً - وكأنه هنا يحب أن يتعزى بابنيه الباقيين وإن
 كان يتغنى ذلك ، ولكن حسبك أن تسأل نفسك لماذا يذكرهما ؟

وإني وإن منعتُ بابنى بعده وأولادنا مثل الجوارح أيها
 لكل مكان لا يسد اختلاله هل العين بعد السمع تكفى مكانه ؟
 أقره عيني لو قدى الحى ميتاً كأنى ما استمتعت منك بضمة
 لذاكره ما حنت التيب فى نجد فقدناه كان الفاجع بين الفقد
 مكان أنيه من جزوع ولا جلد أم السمع بعد العين يهدى كاتهدى ؟
 فديتك بالحوياء أول من يفدى ولا شمة فى ملعب لك أو مهد

والبيت الأخير هو الشاهد . وأظهر من ذلك وأدل على ارتباط الحزن
 والأسى بذكريات السعادة قصيدته فى رثاء بستان المغنية وهي طويلة جد
 نختار منها لما نريده من التمثيل هذه الأبيات :

إننا إلى الله راجعون لقد إننا إلى الله راجعون لقد
 يا مشرنا كان لي بلا كدر ما كنت أدرى أطعم عافيتي
 ما أطفأ بكر لدمه هو أطفأ بكر لدمه
 من سل من حياه بهمتنا من سل من حياه بهمتنا
 ذلى ما طلعت مقبله ذلى ما طلعت مقبله
 فى كفك العود وهو يؤذن بالإلا فى كفك العود وهو يؤذن بالإلا
 كان عيني ما أبصرتك ضحى كان عيني ما أبصرتك ضحى
 كأنها ما رأتك صادحة كأنها ما رأتك صادحة
 كأننى ما استعدت مقترسى كأننى ما استعدت مقترسى
 لولا التعزى بهذاك آونة لولا التعزى بهذاك آونة
 عيال الردى سيرة من سيرة عيال الردى سيرة من سيرة
 يا سمرأ كان لي بلا كدر يا سمرأ كان لي بلا كدر
 أعذب أم طعم دك سمر أعذب أم طعم دك سمر
 وما قصص حوته العبر وما قصص حوته العبر
 وإن حطيا سموت زهر وإن حطيا سموت زهر
 على يوما بأملح الطور على يوما بأملح الطور
 حسان إيدان صادق الخير حسان إيدان صادق الخير
 فى مجلسى - والوشاة فى سقر فى مجلسى - والوشاة فى سقر
 والصدخ الورق عكف الزمر والصدخ الورق عكف الزمر
 يوما فكررتي بلا ضجر يوما فكررتي بلا ضجر
 لانفطر القلب كل متفطر لانفطر القلب كل متفطر

فالقلب كما ترى يتعلق مرة بالسار وأخرى بالمسيء من عناصر العاطفة ،
ويتنقل من هذه إلى تلك تنقلًا هو أشجى وأكثر امتناعًا من عاطفة السرور
الحالصة ، ومن هنا يقول نيقولاى إن المغيظ المحقق يكون أشد تعلقًا
بعضيه ، والحزين بحزنه ، وأعظم زهدًا فى كل ما نحاول أن نملكه به
ونسرى به عنه . ولكنّ الاشتتاز المنبعث عن الدمامة شىء آخر ، والنفس
لا تحس من ناحيتها ما يمزج بهذا الاشتتاز شيئًا من السرور ، ولهذا نرى
لشعراء والمصورين الذين يدركون غايات فنيهما لا يطلبون الدمامة لذاتها
ولما يتحذونها سلمًا إلى تحريك الاحساسات المتزاوجة ، مثال ذلك أن
يضيفوا إليها تكلف الرشاقة أو تصنع الوقار أو مبالغة الدميم فى رأيه فى
غير ذلك مما يُخرج لنا صورة مضحكة .

وهنا موضع التحرز من خطأ . ذلك أن الدمامة ليست إلا نقصًا أو
عدم استواء قد يكون باعثًا على العطف ، ولكن الروح قد تعوض ذلك
وتسد النقص كما يسده العلم أو الفضل أو غيرها ، ولكن إثارة الاحساس
بالضحك لا تكون فى الغالب إلا من طريق الدمامة التى هى نقص إذا
اتخذ دعوى كمال فتح الباب للسخرية . وقد فطن ابن الرومى إلى ضرورة
الدمامة فى حينما أراد أن يحيل المهجوة مضحكًا وموضع استهزاء . وقد
وجد كسبى وجهه إذا أراد أن يركب المهجوة بالسخرية والفكاهة أرى
سنة وقد تعدد هو ونسبى من بين شعراء العرب بدقة التفحص
إلى هذا ، تأمل قوله فى لى بكر الرقى .

لنى بكر كلام
ضرب الله عليه
لا يرى من وصفه البس
واحد لا يتعدى
دون لفظ الناس سدا
شان بالبصرة بُدا

وإذا ناظر خصمًا
مطًا للخصم جينًا
وادعى الاجتماع فيما
وله ليات شعر
مقويات مكفآت
جمع الاعراب طرًا
مثل ما مضت سبيل
ثم من أحلفو خلق الله
والج الناس ما دام
فإذا أعرضت عنه
كصبي السوء يلقى
وإذا قال (رسول الله)
فعل ساسى من القصاص
ذات يوم فأحدا
كحس الأ ... صدا
كان للاجماع صدا
ألفت روحًا وورد
صلحت للفرد عفا
فى قوافيهى عمد
من شعوب الناس وقد
أن لا يتعدى
يُحمى ويعدى
حاء نحو اردت
منه من قناده جهد
مد الصوت مد
أعمى يتجلى

فانظر كيف وصفه بالقبح وشبهه بالقصاص الأعمى المستجدى ونعته
بتكلف العلم والشعر والعزوف عن الطعام وتصنع التأبى والزهد ثم الاقبال
عليه من تلقاء نفسه إذا تركه الداعون وكيف جعله يمد جبينه ويمد صوته
ويفتحم لفظه ليخرج منه صورة مضحكة وانظر قوله فى آخر

أقصّر وعسور
شواهد مقبولة
تخيرنا عن رجل
أقامه القفد فأضحى
وصلع فى واحد ؟
ناهيك من شواهد
مستعمل المقاعد
قائمًا كقاعد

أى لأن كثرة الصفح - القفد - صغره حتى صار قائمًا كقاعد أو
دوله فى من .

تخاله أهدأ من قبح منظره
مجاذبًا ونرًا أو بالما حجرة

أو قوله في وصف آخر :

أو شكل ميزان قن ، جانباً صعود ، وجانب ثقلوه فهو منحدر
وليس للتصوير يدان بهذه المعاني كلها لأن أكثرها مظهر حركة تصاحب
الدماثة فتحيلها مضحكة ، والدماثة إذا اجتمع معها الضعف والعجز صارت
كذلك ، كما يصير مرعبة إذا توفرت لصاحبها القدرة على الأذى كما ترى
من قول شكسبير على لسان دوق جلوستر الذي وصل إلى العرش بأفطع
متع .

ولكني أنا - أنا الذي لا يصلح شكل للعب ولا لأن أجتلي مرآي
في صفة .. أنا الذي خلدتني الطبيعة عن نصيبي من حسن الطلعة ..
المشوه المخدج الناقص الخلق الذي أرسل قبل الأوان في هذه الدنيا
متفسفة .. أنا الذي تبيحن الكلاب إذا وقعت حيالها .. لا أفيد لذة من
فضاء الوقت اللهم إلا في النظر إلى ظلي تحت الشمس والتعليق على تشوه
حس .. ولما كنت لا أستطيع أن أكون عاشقاً .. فقد اعترمت أن أكون
مستعجباً ..

بهذه دماثة مريئة ومسموعة ، ونفوس في الوحدة وطفوى في النفس
.. مع قدر على تصوير ذلك لأنه يسهل أن يفرق المجتمع وأن يتأمله
منه .. شيء ، وأن يضم إلى ما يتناول من مظاهره وجوهاً أخرى من
معنى ، حركات لا تنتهي في التصوير ، بيد أن التصوير مع هذا يستطيع
مخرج بعض الشيء من غايته ، أن يعطينا شحة من بعض هذه المعاني ،
ومن هذا التصوير الهزلي حتى صارت فنا قائماً بذاته مستقلاً في الحفنة
من مصوره ، ذلك أن الفهم عند الأصول المتعلقة بالرسم والنسب الطبيعية
والشعور لا تراعى فيه وإنما يكون هم التصوير أن يبرز إلى حجاب الرسم
الذي يبد أن يدنا به على التوسيم صفة تحلل المظهر مضحكاً ، والحق

هذا ليس إلا شعبة هو من فن التصوير وليس له إلا قيمة زائلة وهو عرض
من أعراض اللذنية فيه متعة ولذة ، ولكنه فيما عدا ذلك لا يجد ، لا يفي
ولا يفهمه ويلتذه الناظر إلا إذا كان عارفاً بالأصل الذي لا ينتهك عنه .
ملكاً بالعادة التي تعلق بها الرسام وأثار بسبها الاحساس بالمتحدث في
نفوس الناظرين .

إذن فهل فن التصوير عاجز عن مجازاة الشعر في إحالة الدماثة مضحكة
أو فظيعة ؟ وحوالنا على ذلك إنه عاجز إلى حد كبير .. مع استطاع
بضم مظهر العجز إلى الدماثة على نحو ما فيحدث الاحساس بالمتحدث .
أو أن يضيف إليها الخلق فيروع . ولكنه لا يستطيع أن يأتي بما يدرب
ما يستطيعه الشعر لأن الدماثة تفقد كثيراً في أثناء وصف الشعر لها حتى
تكاد تنجرد منها ولا سيما إذا زواج الشاعر بينها وبين معدة أخرى من
مثل ما أسلفنا القول عليه والتشثيل له .

أما في التصوير فالدماثة محتمة بكل قوتها ، وما كانت على الأصل
وكانت المعاني المصافة إليها ليست من الكثرة والتنوع تحت تنوع الصور
فإن الفكر لا يلبث أن يرتد إلى هذا الأصل وأن يسي متحدث أو غيره
ويطويه في ثنايا الدميم .

أبو الطيب المتنبي

(١)

سيرورة شعره - قوة المتنبي - عناصر قوته^(١)

لى عامان وبعض عام لم أر ديوان المتنبي . وكنت قبل ذلك لا أدمن قراءته ولا أكثر من مراجعته ، وإذا تناولته لا أعكف عنده عكومي على غيره من شعراء العرب من مثل ابن الرومي والمعرى والشريف ، وقد أبدأ القصيدة فلا أتم قراءتها . وربما استوفيت بيت في أول مقطع منها فأصع بديوان وأذهب أخذ فيما فتحه لى البيت من أبواب التفكير . ولا أرا ماضيا على سنتى حتى أنسى الشاعر وما قرأت له . ولا أذكر أنى قرأت له فى حياتى قصيدتين فى يوم واحد . ولكنى على شعفى بعيره ، وقته على ومواظبتى عليه ، وطول الفترات التى قد تمضى قبل أن أعود إليه . فأقول على الرغم من كل ذلك أراى أحفظ من شعره أكثر مما أحفظ لسواه . وإن لم أكن بالقوى الذاكرة ، ولا بالذى يحفظ لشاعر ، كائننا من كان . شيئا يذكّر مهما بلغ من حبي له وكثرة مطالعتى لكلامه . وقد أنسى له البيت كنت أظنى ذاكره ولكنى لا أنسى معاه . وقد تعانى الذاكرة فلا أجد حتى المعنى حاضرا ، ولكنى على هذا أحسه ، وإن كان يعيسى تخديده وإيضاحه ، وأشعر كأن أثره شائع فى صدرى ، مستبصر فى جوانب نفسى ، مالى لشعاب قلبى . فأقع بهذا الانحسار العاصر واستعنى

(١) كتب هذه الملاحظات مساهمة طهور مؤلف حدث عن أنسى وقد تناولت فيه أعمده أو أحفظه المؤلف موضوعا عمدة بهذا القصد.

به عن المعنى الذى أحدثه ، وأستشعر الرضى والغبطة كأننى حلت مشكاة
أو جلوت معتنى .

ونقد فقدت سحنة ديوانه أو معنيتها - فلم أشعر بالحاج الحاجة إليه .
وكتب كتبنا عسى أن أشتريه أقول ما ضرورة ذلك ؟ أليس حبر
المتننى فى عسى من أن يعيش على رف فى المكتبة ؟ أترى العاية
من الأدب هى اقتناء الكتب ؟ لا . وليست هى أن يكون المرء كثير الحفظ
أو مدمن القراءة لما لا يتنفع به . وحسب المرء من الكتب أثرها فى نفسه
فعلها فى تهذيبها ورفع مستواها وصقلها . ولخير له أن يقرأ ، ويسى
خط ما فى بل معناه أيضا ، ما دامت الفائدة قد حصلت . والنفس إذا
كانت خصبة مستعدة تنمى البذرة التى غرست فيها ، وليس يمنع الماء
أن البذرة تحت التراب مدفونة .

ولكن لماذا يبقى عندى من كلام المتننى ما لا يبقى من كلام سواه ؟
بذرة واحدة وليس هو بأحب إنى وأعر على من الشعراء الفحول غيره ؟
لأنه تعبى ذلك أن حفظ شعره كثير وأن أبياته متداولة ملوكة تساق
فى كل معرض من معارض الاستشهاد والاقتباس ، وأن كثرة سماعى لشعره
من قومه من رؤيتى إياه مورداً فى غضون الكتابات - كل ذلك كان
من أنى أن عرفت أبيات كثيرة له بذاكرتى ؟ هذا التعليل لا يزعج المسألة
عن موضوعه قيد أملة . وينى بعد ذلك أن نسأل لماذا ترى الناس أحفظ
شعره وأحفظ رواية وتمثلاً به منهم لشعر غيره ؟ وكل ما هنالك من الفرق
أن هذه المسألة اتسعت فصارت عامة تشمل الناس جميعاً بعد أن كانت
خاصة قاصرة على كاتب هذه السطور ؟

وعندنا أن ملحة هذه السبورة التى رُفقا شعر المتننى هى أن فى شعره
قوة . نحفظها فيما نغاديه من مشاهير شعراء العرب . وإدنا لا نحفظ

أن يكون كلامنا مبهمًا فالأولى والأفضل أن نخرج من هذا التعميم إلى
التخصيص ، وأن نبين مظاهر هذه « القوة » فى المتننى . وقد لا يختصها
أو يستطيع الاتيان على أكثرها ، ولكن هذا لا قيمة له ولا خطر . ويسب
عائنا الاستقصاء فإن المقام أضيق من أن يتسع له ، والوقت أقل من أن
يعين عليه . وعلى أنه لا حاجة بنا إلى التقصى وحسبنا أن ندل على احتياج من
القراء إلى الطريق وليس هو بعد ذلك على الدرب .

لم يكن المتننى من المكثرين بل من المقلين ، وهو على على افلاحة لا يفسد
قصائده . وقد حسب له الواحدى ما اشتمل عليه ديوانه فبنت عدة أبياته
خمسة آلاف وأربعمائة وتسعين وهذا كل ما قاله فى أكثر من خمس
وثلاثين سنة . وقد قال ابن الرومى مثلاً فى ثلاثين من قصائده خلو
أكثر من هذا . وهذا على الرغم من طول اتصاله بسيف الدولة وكافور
خاصة وبغيرهما من مثل ابن العميد وعضد الدولة . وهذه رواية صاحب
« الصبح المنبى » قال إن أبا فراس الشاعر قال يوماً لسيف الدولة وكان
قريبه « إن هذا التسمي كثير الادلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة
آلاف دينار على ثلاث قصائد » وهى رواية قريبة من الصحة وإن نكس
فى الصميم من حبة الصواب . لأن المتننى إما كان يقول الشعر فى سيف
الدولة إذا عرضت مناسبة لذلك كغزوة أو غوها ولم يكن فارحاً على
عسبه أن يقول ثلاث قصائد فى كل عام ، ولكن العبارة صحيحة فى
دلائلها على أن المتننى كان يقل من الشعر ولا يكث ، وإنه كان أشبه بصدى
لنمادوحه منه بشاعر وطيفته الشاء عليه ، وكان المتننى فضلاً عن ذلك
يستكشف أن يشد وهو قائم ، وقد بدأ حياته بالتطلع إلى ولاية أمر من
أمور الدنيا ولم يزل يطمع فى ذلك إلى أن وافاه الحين . وفى هذا وحده .
فضلاً عن حوادث حياته ، دلالة كافية على روحه وإنه من أصحاب

شخصيت القوة التي خلقت للكفاح والنضال لا للاستخذاء والتمسح
بالأقدام ، وهذه الشخصية البارزة ظاهرة في شعره وحسبك شاهداً عليها
أنه لما شعر بتغير سيقو الدولة دخل عليه وأنشده قصيدة يعاتبه بها وفيها
يقول :

وما لي إذا ما اشتقتُ لُصرت دونه
وقد كان يُدني مجلسي من سمائه
أهذا جراء الصدق إذ كنت صادقاً
وهو أشبه بالحماسية مه بالمعابة .
وأدل من ذلك قصيدته التي مطلعها .
واحر قلباه ممن قلبه شيم

وبها يقول :

أعدل الناس إلا في معاملتي
أعيدها نظراتك منك صادقة
(يعنى أيا فارس وحزبه) .

سيعلم الجمعُ من ضمّ مجلسنا
ما الذي نظر الأعشى إلى أدبي
أنام ملء جفوني عن شواردها
وجاهل منه في جهله ضحكى
إذا ريت يموب الليث بارزة
إلى أن يقول :

يا من يعز علينا أن تفارقهم
ما كان أخلقتنا منكم بحكمة
كان مبرك ما قال حاسلنا
ويتنا - لو رعينم ذاك - معرفة

كم تطلبون لنا عينا فيعجزكم
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي
إن ترحلت عن قوم وقد قدروا
شر البلاد بلاد لا صديق بها
وشر ما قصته راحتي قصص
هذا عتابك إلا أنه مقه
ويكره الله ما تأتون والكرم
أنا الثريا ، وذان الشيب والحرم
أن لا تفارقهم والراحون هم
وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
شهب البزاة سواء فيه والرخم
قد ضمن الدر إلا أنه كلم

وليس هذا بكلام مداح مأجور وما كان ليصدر عنه نوعاً شعوره بنفسه
بخفه ، وأنه فوق أن يُعد أحد الأديال . وقد أنس إليه سيف الندبة عن
أثر هذه القصيدة وعاد فأثناه ، وقال بعض الرواة وقيل رأسه وأجازه .

ومن الإطالة في غير محل لذلك أن نفيض في بيان شعور المتنبي بنفسه ،
ومعرفته لقدره ، وطموحه وبروز شخصيته ، وكفى دليلاً على ذلك قوله
في أمد :

ولو لم تكوني بنتاً أكرم والد
لكان أبالك الضخم كوكب لي .
وهو في شعره يأخذ بيدك إلى ما يريد مباشرة ، ولا يطيل أسف ويدور
معك إلى غايته . وهذا من أسباب القوة . وليس ممن يهدرون ولا يقننون
قيمة الاقتصاد أو يحشون كلامهم بما يراد به التطاهر والمفاخرة بسعة محض
وطول الباع . بل هو يدفع إليك المعنى الذي فكر فيه وأصححه . ثم
يعبرك لا يحتاج إلى زيادة ولا يتأني نقص حروف ما عر به عنه . كقوله

ومن عرف الأيام معرفتي بها
وبالناس ، روى رحمه غير راحة
نور سر حر إذا تدرى به
ونافى يرى سحرى سبيهم ناه
ثم يتكك وشأنك وما يبدو لك في هذا لدى ألفاه إلث . إذا شئت
حالته أو وافقته ، أما هو فيأمر كما يقول من ، ولا يسر كيف وقع
دلامه من نفسك بعد أن ألفاه بهجة النحر الفاطمة التي لا ترد فيها

شخصيته وجوانبها - موقفه من كافور

يقول ابن رشيقي في كتاب العمدة : « ثم جاء المتنبي فعلاً الدنيا وسفل الناس » ووفق بهذه العبارة الوحيدة إلى ما عجز عنه سواه من المقاد والشرح ولحصوم والأنصار . والواقع أننا لا نعرف شاعراً آخر كان له من استن ما كان للمتنبي ، أو أحدث في عالم الأدب مثل صحته ، وأثار من العداوات المرة بعض ما أثار ، حتى ولا ابن الرومي الذي بسط لسانه في كل عروس حتى خافه القاسم وأشفق أن يستطيل عليه بمثل ما وصم به غيره فلدعه في الطعام ودم له السم فيه . وحسبك دليلاً على عمق ما تركه المتنبي من الأثر في بعض النفوس قول الجرجاني عن فريق حصومه إنه (أي هذا الفريق) « يسابقك إلى مدح أبي تمام والبحري ويسوع لك تقرظ ابن المعتز وابن الرومي حتى إذا ذكرت أنا الطيب ببعض فضائله وأسميته في عداد من يقصر عن رتبته امتعض امتعاض المنور ونفر نفاً انصبه بعض طرفه وثني عطفه وصغر خده وأخذته العزة بالاثم » .

ولا يُعقل أن تكون عنه ذلك أن شعر المتنبي يهيج هذا السامع ويعري بذلك الامتعاض ويشعر القارئ كأنه بطبيعته ونزوة صميم . فإد تفرقه في عصرنا هذا فتوافقه أو يحالفه ويستعيد قوله أو يستردنه ويعجب به أو لا يعجب ، ولكننا لا نحس شيئاً من هذا الذي يصفه الجرجاني في كتاب الوسائط . ولا شك أن الناس كانوا مثلاً على عهده ونكههم كانوا فريقين . فريقاً يراه ويعرفه ويلو منه بعض صفاته ، وفريقاً لا يأتى إليه سوى شعره ولا يحكم عليه إلا به وبأخباره مثلاً . وقد روى عن أحد السحاة ، واسمه أبو علي الفارسي ، إن بيته كان في طريق المتنبي إلى عصف الدولة .

ولو كان غيره مكانه لمهد لهذا المعنى وراح يسوق الحجاج والأمثلة والشواهد على صحته وسداده حتى يملك ، ولأعرق هذه الخلاصة في بحر من الكلام حتى تعود وليس لها أثر محسوس . وأن من يدعي مثلاً أن المتنبي هو الوحيد الذي له معد مستحادة وأبيات متحيرة وأمثال حكيمة ؟ أليست دوائر الشعراء حافلة بنظائر ما في شعر المتنبي ؟ ولكنها ليست سائرة على الألسن لأن أصحابها لم يُرَقوا رجولة المتنبي التي تخرج البيت محرج المثل ، وه يمنحوا مثله إحكام التسديد إلى الغاية ، والاقتصاد إلى الحد الواجب ، وحسن تحير الألفاظ التي يؤدي بها المعنى ، والحلاوة في سبكها وتعليق بعضها ببعض . وهي صفات قلما يخلو منها شاعر كبير ولكنها لا تؤدي إلى ما نحسه من القوة في شعر المتنبي إلا إذا اجتمعت ، ولو إنه كان ابن الرومي مولعاً بشرح المعنى وتصفيته والتوليد منه ، أو كالشريف كليلاً بمخامة اللفظ ورنه الأسلوب وجزالة التعبير ، أو كمهيار في حشوه ، فتر . له . كما نرى في التردد وكثرة الموارنة والتحليل - يقول : « به كان كهولاً » أحدث عليه مراهيه الأخرى . نعم كان يكون له محل رفيع بينهم ولكن شعره لم يكن يسير هذا المسير ، ولا كانت الأمثال الملكة تملك فيه هذه الكثرة وقد لا توافقه على ما يذهب إليه من الرأي . له . لا يسعت إلا أن تخبره به ما نحسه في شعره من عمق الاقتراح . من قوة جرحه سات ، وإلا أن تنأثر بطريقته المباشرة في العبارة عن فكرته . له . تنفع خبيرة اقتصاده وما يسه عليه ذلك من بقبه إن الأمر لا يحتاج إلى سب . به . فيه . بهي . بلمس السداد فيه . وبس . وإلا أن تفتش موسيقية الأسلوب وحلاوته وإن كانت أشبه بموسيقى الحرب !

ولكن المتنبي حين ما يأتى في بقوته هذه فيسبى استعمالها ويأتى بالثقل والذي تستث من السماع . وانضعف المهمل . وهذا كثرت السقام . حمل بها شعره وإن كان كثير من ذلك مما قاله في صباه أو مما تعلمه ولا عجب ! فإن عثرة الوثاب شديدة .

وكان أبو علي هذا يستغله ولا يرتاح إلى ما يأخذ به نفسه من الكبرياء ،
وكان ابن جني كثير الإعجاب بالمتنبى يكره من يذمه ويخط منه ويسوءه
إطاب أي عي في ذمه ، واتفق أن أبا علي هذا قال يوماً « اذكروا لنا بيتاً
من الشعر نبحت فيه فبدأ ابن جني فأنشد :

حلت دون المزار فالיום لو زر من لحال النحول دون العناق
فاستحسنه أبو علي واستعاده ، وقال لمن هذا البيت فإنه غريب المعنى ؟
فقال ابن جني للذي يقول :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأتسنى وياض الصبح يُغري بي
فقال والله هذا أحسن فلمن هذا ، فقال للذي يقول :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلی

مضر كوضع السيف في موضع الندى

فقال وهذا أحسن والله ! لقد أظلت يا أبا الفتح فأخبرنا من القائل ؟ قال
هو المتنبى لا يراد أن يشيع يستغله ويستفتح فعله وزيه وما علينا من القشور
يد استفه لب " قال أظنت تعني المتنبى " قال نعم ، قال والله لقد حبيه
إلى إلخ إلخ .

فمن وحى لا يطمئن كثيراً إلى أمثال هذه الروايات ولا نمنحها ثقتنا
لثمة ، وشبهه من أكثرها رائحة التأليف والاختراع ، ولكن هذه الرواية
في ذاتها معنوية وإن كان بلا حظ أن ابن جني لم يتحير أجود ما للمتنبى
ما يصح أن يظهر من شعره . ولكننا نحسب ابن جني نعمد أن لا ينشد
من كلام أبي الطيب ما عليه طابعة الحاص ، مخافة أن يعطى أبو علي
فيرهد في الاستبداد ويثبت على ابن جني عرصه ويفطع عليه متوحجه ،
فاتر صاحباً أن يسده من الأبيات ما قدر أن يكون أوقع في نفس لغوى

لغوى مثل أبي علي الفارسي ، على أننا إنما سقنا هذه القصة شاهداً على
أن « شخصية » المتنبى هي التي أقامت قيامة الناس في زمنه وجعلتهم
لا يعدون فريقين : أنصاراً متعصبين وخصوماً متعصبين . وذلك ما تعده
كل شخصية قوية ، كالعاصفة لا يبقى أحد إلا غنى بها وأكثر لها .

وما حاجتنا إلى القصص والأخبار نسوقها ونستشهد بها على ضخامة
شخصية المتنبى ؟ إن شعره أصدق راي وأوثق شاهد . وإذا كنا في حاجة
إلى شاهد من غيره فكفى ما قاله رجل سادح بعطرية في رثاء المتنبى :
قد ، وهو رجل يدعونه أبا القاسم المنظر بن علي الصبسي لا حسب ذنب
تراً له أكثر من هذه الأبيات :

لا رعى الله سرب هذا الزمان إذ دهانا في مثل ذاك اللسان
ما رأى الناس ثانی المتنبى أي ثان يرى ل بكر الزمان ؟
كان من نفسه الكبيرة في جيشه وفي كبرياء ذي سلطان
هو في شعره نبی ولكن ظهرت معجزاته في المعاني
والبيت الثالث هو الشاهد . وقد فطن فيه صاحبنا أبو القاسم إلى
لحقيقة ، وانظر بعد ذلك إلى قول المتنبى نفسه من قصيدة له يهني فيها
كافوراً ببناء دار :

فأرم بي ما أردت مني فاني أسد القلب ، آدمي الرواء
رفؤادی من الملوك ، وإن كا ن لساني يرى من الشعراء

وبانه لكذلك ، وما به من عيب إلا ما تكشف عنه الشهرة والشهرة
بإستفاضة ، صار صاحبها هدفاً لعبور الحلق والستهم ، تلك نفق
السب ، وهذه بروى وتسرد ، حتى نعود كل كلمة لصاحب الشهرة
عمدة ، وكل حركة ملحوظة ، وكل عين محسوسة ، وكل رأي مكتوب .
حتى تشمل الواقعة من أعماله ، والفتات من حركاته أو أقواله ، أكثر من

علها الصحيح . فيشتهر بالبخل وقد لا يكون كزاً بخيلاً ، ويوصم بالجن
ولعله أجراً ذى قلب ، وهذا هو الذى منى به المتنبي .

ولقد ذكرنا فى مقالنا السالف أنه لم يكن بعد نفسه شاعراً يُثنى على
سيف الدولة ويدون وقائمه وحسناته ويمشى فى ظله ، بل صديقاً وكفياً ،
وأوردنا من شعره بعض ما ينم على ذلك ، ولم يكن حيال كافور إلا كذلك
تأمل قوله وهو يهتته :

وأنا منك ، لا يُهتئُ عضوٌ بالمسرات سائر الأعضاء

ولو سوى المتنبي لشعر بالضعف أمام القوة المادية التى يملكها الملوك
الدين غضب عليهم وحفاهم وهجاهم . ولكنه كان يشعر بقوة للدية
تكبر في صرعه قوة لحبوش وبأسها ، بل كان يحس أن فى وسعه أن يمتد
ويسطو كذلك على العاتين والساطين ، فمن ذلك قوله لما خرج من مصر :

لتعلم مصرُ ومن بالعراق ومن بالعواصم أنى الفتى
وأنى وفيتُ وأنى أبيتُ وأنى عتوت على من عتيا

وبما شاور الحزم الديوى لما أصدر هذا الاعلان ، ولا أشهر هذا الانذار ،
محمداً به أن يتقرب إلى من يندمه قبل مضيه إلى مصر كسيف الدولة
على لأقل . ولكن نسي ليس من هذا الطراز لأنه لا يعرف ضعف النفس
ولو خلت يده من كل وسائل البطش وكثر عُداته وقل إخواته . فنبه
لهذا شلبة قوية على الأيام كما يقول :

وفى أحسنه من لا تشيب بشية ولو أن ما فى الوجه من حرم
يعبر منى اندهر من شاء غيرها وأبع أقصى العمر وهى كعب

لا يكره أن يمارى وطنه إذا نيا به مقامه فيه ، ولا نحر من غصده
العاقة ولا يلبس عرومه بعد الشفة وكثرة الأعداء وقلة الأسباب إذا وح

.. ركب فيها ، وإلا فالسير فى البهامه والقمار على الأقدام أسرف . فبحر
ومثل به :

غنى عن الأوطان لا يستغنى إلى بلاد سافرت عنه . ياب
وعن ذملان العيس إن ساحت به وإلا ففى اكوارهن عقاب

وماذا يهمه ؟ إن مطلبه ضخم ومراده عظيم ، وعلى قدر علو المطلب
تكون صعوبة المرتقى ، وهو لعظم ما يحس من ذات نفسه يدرك أنه يجب
فى هذه الدنيا ، فوطنه وغيره سواء .

أهمُ بشيء واللىالى كأنها تطاردنى عن كونه وأطارد
وحيدة من الخلان فى كل بلد إذا عظم المطلوب قل المساعد

وهو لعظم رحولته يستكشف من صفات أساء ويترنما يحتمل حتى
من غير أن تدعو مناسبة إلى هذا التبرؤ ويقول ، وما لى حسى منى
أن به ليس حميل المشية ، والواقع أنه كان مشاكاً قويً صديقاً على منسى
سريعاً فيه ، حتى رعموا أنه كان يوجه أودر العدو أن لأرض تدر . .
مع من ذلك أنه لما رثى حولة أحت سيف دولة عهد ضدت . حر
بحرحها من حسنيتها ، ولم يرض إلا أن يجعلها غيرة نتي لعن .
كنت قد خلقت أنتى ، وإلا أن يفتسها على عشيرتها شى ستب . حدث
حيث يقول :

بب تكرر خلقت أنتى لقد خلقت كريمة غير أنتى معن ، حم
وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها فإن فى الخمر معنى ليس فى لعب

ومثل ذلك رثاؤه لعمه عصد الدولة حين أشار إليها بمصيرها ذكر وور
إن حسن ذكرها ينم على تذكرها :

يخسبه دافنسه وحده ومجده فى القبر من صحبه
ويظهر التذكير فى ذكره ويسر التأنيث فى حجب

قد يقال : إذن فما بال هذا الرجل القوي العاتي لا يرى أن يقصد
إلا كافوراً بعد أن فارق سيف الدولة على حين كان كثير من الأمراء يتوقون
ويستهنون أن يقدم عليهم ، فأقدمهم باطراحه إياهم وصمده إلى كافور ؟
والجواب أنه لم يمدح كافوراً لأنه رآه أهلاً لمدحه ، بل طمعاً في ولاية
بعض أملاكه ، كما هو مشهور معروف . أما المدح فإنما والله نراه تهكم به
وإن يكن عليه . وما قرأنا له قصيدة في كافور إلا عثرنا فيها على بيت أو
سنت تشعر بأن المتنبي كان يركبه بالدعابة ويرى نفسه أجل وأخطر شأنًا
من أن يمدحه ، ونورد لذلك بعض الشواهد . قال :

سأعني محبة أن نهى بمكان في الأرض أو في السماء
سأعني والبلاد وما يسر ح بين الغبراء والخضراء

فمن يرى في قوله هذا مدحاً ؟ أي امرئ يقال له هذا ولا يدرك أنها
مبالغة قد جاوزت كل حد مع أعظم التسامح حتى انقلبت هجاء ؟ ومن
الذي يرضيه أن يقال له إن لك ما بين السماء والأرض ؟ أليس هذا فراراً
من تهينه ؟ قد يقال : ولكن المتنبي كثير المبالغات وتلك عادته . حسن !
فأملوا إذن قوله واذكروا أن كافوراً أسود الجلد :

تفصح شمس كلما درت الشمس

بشمس منيرة سوداء

شمس سوداء تفصح شمس النهار ؟ ؟ ولقد اضطرب المتنبي لما نظم هذه
لميت أن يفسر المعنى ويؤيده على خلاف عادته من إلقاء الكلام وترك الناس
وشأنهم ، فيه وجاري لمن الرومي في هذه المرة فقال :

إن في نوبك الذي انحدر فيه لصبأ يذرى بكل صبأ
إما الجلد ملئاً ، وإيصاص النفس خير من إيصاص القلب

ولم يكتف بذلك بل راح يقول له في نفس القصيدة إنه أمل العيون !
وماذا ترى العين في كافور الأسود ، الضخم البطن ، القبيح السحنة ،
الغليظ « المشفرين » ؟

(يا رجاء العيون) في كل أرض لم يكن غير أن (أراك) رجائي
يمكن أن يستقيم المعنى ويعقل إلا على تأويل واحد هو أنه اشتاق أن
يصير عبداً للسوء هذا الذي صارت له في مصر دولة كما يحب المرء أن يرى
نرداً يقلد الآدميين مثلاً ؟

وأدل على شعور المتنبي وهو يمدح كافوراً قوله من قصيدة أخرى .

أما تغلط الأيام في بأن أرى بغيضاً تنائي أو حبيباً تقرب ؟

ومن أقرب إليه يومئذ من كافور وأبعد من سيف الدولة ؟ وما ندعى
إلى ذلك ، والمناسبة لا تستجبه ؟ ولم يكتف بيت واحد بل أنشأ يقول
بعد أن وصف سيره وقدمه إلى مصر :

عشية أحفى الناس بي من جفوته وأهدى الطريقين الذي أتجنت

وهل من المدح أن يقول لك قادم عليك أن أرشد الطريقين هو الذي
نحبته وأضلهما الذي سنكته ؟ وقد زاد المتنبي الطين بلة فقال :

وما طربى لما رأيته بدعة ! لقد كنت أرجو أن أرك فأضرب
فجعله هزأة وأضحوكة وقرر أن لا غربة إذا طربت لما رأيته . وقد
نض ابن حنبل إلى أن المتنبي أراد الاستهزاء فقال : لما قرأت عليه (على
نسي) هذا البيت قلت جعلت الرجل أبا رنة (وهي كنية القرد)
فضحك » ثم وشر من ذلك وأدهى قوله بعد هذا البيت :

وتعدلني فيك القوافي ومنى ، كأنى بمدح قبل مدحك مدد

والشطر الأول صريح في السب والهجاء وإن كان قد رقعته في الشطر

الثاني .

وحسبنا أن أبا الطيب لما انصرف عن مصر شعر أن عليه أن يعتذر للأدب بما تكلفه من مدح كافور ، فقال ما معناه أن الناس هم الذين أوجوهه إلى مدحه ، وأن هذا المدح كان عبارة عن هجاء للمخلوق لأنهم اضطروه أن يقصده وهذا قوله :

وشعري مدحت به الكركدن بين القريض وبين الرقيس
فما كان ذلك مدحاً له ولكنه كان هجواً السورى

وإن يكن يحصى عن كافور أنه ما قصده حباً فيه بل ليستعين به على كسب حصونه ، فقد كان يقول له في وجهه أن قومًا خالفوه في محبته إلى كافور ولم يسايروه إليه استكافاً فذهبوا شرقاً وحضر هو :

وما شئت إلا أن أذل عواذلي على أن رأيي في هواك صواب
أعلم قومًا خالفوني فشرقوا وغربت ، أنى قد ظفرت وحسبوا

وما هذا من المدح في شيء على الرغم من احتراسه في الشطر الثاني من البيت الأول

(٣)

اعتراض مدفوع - المتبني ومظاهر الرقة - طماحه -

بعض مشابه من نابليون

تلقيت اليوم رسالة من الأستاذ الشيخ عبد العظيم يوسف بنكر ديه على بعض ما دعت إليه في كلامي على شخصية المتبني ويؤاخذني عن قول « وهو لعظم رجولته يستكف من صفات النساء ويتراً بما يحملهن حتى من غير أن تدعو مناسبة إلى هذا التبرؤ » ويقول « وما بي حسن

١٦٦

المتبني « أي أنه ليس حميل المشية والواقع أنه كان مشاءً قوياً صوراً على المتبني سريعاً فيه إلخ » .

وأنا اجتريء من رسالة الأستاذ بما يمس الموضوع دوني ، قال تعليقاً على هذه الكلمة : « وهذا رأي إذ لا تغتبط الختالة من الاعاء إذا امتدحت به ولا ترتاح السفلة من الدهماء إذا ألبسته ، بله ذا البطولة كالمتبني ، مصرّف هذه الصفات إلى مزنون بالتخت أحق وأجدر ، فارجع فيها بصرك ككرة أخرى . ولقد ظهر منك بعض التردد والانكار لهذا الوصف إذ تقول « من غير أن تدعو مناسبة إلى هذا التبرؤ » ومنشأ ما فرط وهلك إليه فيما أحسب . هو اقتطاعك لجزء في بيته عما يلتحم به قبله وبعده ، وتأويلك له على حسب ما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة من لفظه ، فجاء معناه كما ترى وقبل مساق البيت مشدوداً بأواخي أخويه ، أقول إن قول العرب ما بي كذا مثلاً معناه ما اكترث به وما اهتم له وما ألباه . أما الجراء المذكور فمن قصيدته التي أثبتتها عند وصوله الكوفة من مصر يهجو كويصيرها وباطيرها الغافلين عن أعمال الثعالب ويصف مازل سيره التي احتاب بمصاعب سبله التي احتار بقوله :

ألا كل ماشية الخيزل فدى كل ماشية الهيدى
وكل نجاة بجاوية خنوف وما بي حسن المتبني
ولكنهن حبال الحياة وكيد العداة وميط الأذى

واضح جلياً أنه يفدى الخيل والنياق وصروب سيرها بكل امرأة حميلة حسنة المشية ، ويقول وما بي حسن مشي النسوة أي لا آبه ولا أحمل سمحاس مشيهن . وتحتل العبارة وحهاً آخر أن تكون الألف واللام في المتبني عوضاً عن ضمير مضاف إليه يرجع ، لا إلى المرأة ، لكن إلى الحبل والإبل ، أي أنه لم يؤثرها على النساء لحسن مشيتها على مشيهن ، كلا فإنه

لا يهتم ولا يحفل ما يشتغل به الضعفة من التلهي بالمخاسن البادية ولكنه اعتصم بها فوصل ساحل الحياة وشارف بر السلامة فأعاناه على كيد عداه وكتبهم ودفع أذاهم عنه . ذلك هو المعنى الفحلى تترك أساريه بأشعة الصواب وهو مراد أبى الطيب فى مقام المفاضلة بين الماشيتين .

نقول والذي يقرأ هذا يحسبنا وصمنا المتنبى بسبة ، وطوقناه بعار ! ، يرمض على لأقل له معهم معنى البيت . وما فعلنا شيئاً من هذا وإنما أرسا أن نتخذ من قوله دليلاً على نزعتة . ولا بأس من العود إلى هذه النقطة لنجلوها وتدفع الأشكال فنقول إن الخيزلى هذه مشية يصفونها بأن فيها سحر . فكك من مشية النساء ، واخيلنى مشية سريعة للإبل والخير . وسعد سدة السريعة لنى شحى راكمها والبحاوية بسبة إلى بجاوة وإسا سب الوقى . ومعنى الأبيات الثلاثة : فدت كل امرأة تمشى الخيزلى كل ناقة تمشى الهيلنى ، أى أنه ليس من أهل الغزل وليس به حب النساء وإنما هو رجل أسفار يحب كل ناقة سريعة السير توصل إلى الحياة وتكيد الأعداء وتدفع الأذى

هذا هو المعنى الصريح الذى لا يحتاج إلى تأويل ولا يستلزم أن نحل لأف واللام محلى ضمير محذوف مضاف إليه ، والذي لم نردد كما يزعم لأسند فى منجلاص منجوله وإضافته إلى أمثاله مما سقناه وقد قسا به رجل قوى عظيم الإحساس بالرجولة ومقتضياتها ، وإن إحساسه هذا ظاهر من استكده لظدة والرجوة . ونفوره من نسبة شيء من ذلك إليه من نفسه ، فيما هم حافلة أدة إلى غيبته . ولبقول الأستاذ ما شاء ، فإنه يبقى أن فى لأبيات تعريضا لمتية النساء المسترحية ، وذكرها لرهادته فيها وعرفه عنها . وهذا شأن أبى الطيب فى كل حالاته ، وهو لا يكره التخطى فى مشية وحدها . بل يتجاوز ذلك إلى كراهة الترف والعمومة فى جميع

مظاهرها ، وإذا كان قد بقى بعد الذى سقناه فى كلمتنا السابقة مستراذ فالبك قوله من قصيدة يمدح بها كافورا .

وفى الناس من يرضى بعيسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جنده
ولكن قلباً بين جنينى ماله مدى ينتهى بى فى مراد أحده
يرى جسمه يكسى شفوفاً تره فيخسار أن يكسى دروعاً تهده

والشفوف هى الثياب الرقيقة ، وتره أى تمنعه والمعنى ظاهر ، يقول فنى لا يطلب رفاهية لجسمه بأن يكسوه ثياباً رقيقة ناعمة ، وما يصعب من الدروع الثقيلة ، حتى الثياب الناعمة لا يرتاح إليها وإن كان مختصراً بل يلسها ، إذ كان لا يسع أحداً أن يظل فى الدروع وحبو خديده . وتراه حتى إذا اضطر إلى المفاضلة بين امرأة وامرأة ، أثر الساذجة الجمال لى لا تكسب نفسها الحسن بالاحتياى والتي لا يكون حسبه إلا صعب لا مجلوباً ومن قوله فى ذلك .

ما أوجه المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوباً بقطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب
أدى طباء فلاة ما عرفن بها مصغ الكلام ولاصع الحرجيب
ولا برزن من الحمام مائلة أوراكن من صقيلات العواقيب

لقد كان للمتنبى شغلان بمساعيه عن الحياة الرخوة ، وعما يروق جمعاء وأوساط الناس من العيش الداعم البير . وقد فتح حينه من حتمه . نطلب ذلك « الشيء » الذى ليس له عبة يعرف . له حد بوصف والذي يتر العمر كما قال فى صباه .

نسم نحدد ما يبر الفقر قاعداً فقه واضلن شئى لى يتر «عمر» وهو لا يعرف على وجه الدقة ماذا يريد من دأيم نعمه فقد ظف حبه ، ومعنى أن يؤمر على لباس ، ويكسى أحسب أن لو كان حال ذلك

وطلبهم للمعالي ، ولكنك لا تجد غيره يسمى ما يظنيه « حقاً » له ! انظر
قوله في مستهل قصيدته يمدح بها محمد بن سيار بن مكرم .

سأطلب « حقى » بالقفا ومشايخ
نقال إذا لاقوا - خفاف إذا دعوا -
وطني كأن الطعن لا طعن عنده
بثت حفت بي على كل ساج
أدم إلى هذا الزمان « أهله »
وأكرمهم كلب ، وأبصرهم عمر
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
بقلى - وإن لم أرو منها - ملالة ،
كانهم من طول ما التمشوا مرد ،
كثير إذا شدوا قليل إذا عدوا .
وضرب كأن النار من حبه برد
رحال كأن الموت في فمهم شهد
فأعلمهم قدم ، وأحزمهم وغد
وأشهدهم عهد ، وأشجعهم فرد
عدوا له ما من صديقه يد
وبى عن غوائها - وإن وصلت - صد

وبهذا الكلام الشامل يحبه مملوحه ، ومن الغريب ، بل مما له دلالة
حاسية ، أن أحفل قصائده بمثل هذا التحديث عن نفسه والإشادة
بها أمامه ، وإن أخلاها من ذلك أحاجيه . حتى لكأنه يعتمد أن يتنى عن
نفسه ويذكر فضلها قبل أن يتطرق إلى التثناء على مملوحه !

لم يكن من يقصدهم من الأمراء والملوك يستحون شأنه . أو يقربون
من خطره ، أو لا يعتبرون برأيه فقد كان اهتمامهم لمعرفة حقيقة رأيه
بهم عظيماً . يدل ذلك على ذلك ما حكاه عبد العزيز بن يوسف الحرحاشي ،
وكان كاتب الانشاء عند عضد الدولة ، عظيم اسرلة مه قال : ما دخل
هو الطبيب المتنبي مجلس عضد الدولة ، وانصرف عنه ، أتبعه بعض حسائه
وقال له : « سله كيف شاهد مجلساً ؟ » وأبى الأمراء الذين لقيهم ما ، قال
فانتب أمره ، وحاربت المتنبي في هذا الباب ، وأطلت معه هذا القول .
فكان جوابه عن جميع ما سمعه من أن قال : « ما خدمت عيالى فنبى
بهم » فاحتصر اللفظ وأطال المعنى . وكان ذلك أوكده الأسباب التي
حظى بها عند عضد الدولة .

لما قنع به ولا فعد عن الطلب . ذلك أن نفسه تجيش برغبة جامعة عبيدة
فيما تحسه من أليائه الآتية ، وإن كان لم يسعه ، ولا يسعك تحديده .

ولا تحسن المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضرب أعناق « الملوك » وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر البكر
وتركك في الدنيا « دويلاً » كأنما تداول سمع المسره أتمله العشر

هد هو الذى يتغيه يريد أن يدوخ الدنيا وأن يترك فيها دويلاً لا يتنفع
بُد الدهر ، ولو شاعر غير المتنبي قال هذه الأبيات لجاء البيت الثانى على
الأرجح هكذا .

وتضرب أعناق « الرجال » وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

ولكن نفس المتنبي فوق هذا ، أعناق الرجال العاديين يتركها لعسكره .
أما هو فلا يضرب إلا أعناق « الملوك » . ولو شاعر غير المتنبي قال هذا
وراح في كل شعره يطلب هذا المجد ، ويذكر الفتكات البكر ، لابتسم
القارئ لتسامه أسرور من هذه المبالغات الظرفية الجوفاء ! ولكنك تقرؤها
للمتنبي الغفير ، الصغير الشأن ، الذى زعموه ابن سفاء ، وقال بعضهم
في هجائه أن ثابه :

عاش حيناً يبيع بالكوفة الماء وحيناً يبيع ماله الحيا

نقول تقرأ له هذا - وتلك نشأته - فلا تضحك ولا يخامرك شك في
صدقه وفى إخلاص سريره حين يتحدث إليك بهمة نفسه ومطمح فيه ،
ونحن أنه له كان الخط آناه وحياه الملك لحاول أن يكون كالأحرار
المقلونى .

ولقد صبر عبده من الشعراء وباهوا بأنسبهم . وحادثوا عن أطماعهم .

ولكن هذه النفس الكبيرة التي كان منها في جيش ، كما يقول صاحبها أبو القاسم المظفر بن الطوسي ، لم تخل من مواضع الضعف وإن كان لها من ظروف حياته ما يبررها أو يجعلها معقولة على الأقل ، وأى نفس تحب " أن يكون سيون راس المرأة والفنوة ؟ ألم يكن من أقل الناس كرامة ورجية ووفاء ، ومن أخونهم عهداً ، وأغدرهم ضميراً وأفجرهم يميناً ، لا يأنف أن يتدلى إلى سرقة الحق ، أو يتسفل إلى الكذب ، أو يحقد على رجل من أعوانه فيقتله أو يسمه ؟ يظلم قواده وينشر في صحيفته الرسمية ما يحب أن يعرف عنه ما لا فيه للحق إنصاف . حتى بعد هويته وبعد أن ذهب إلى متفاه كان يزور الحديث ويخلق الأباطيل ويقلب الحقائق ؟ ولكي على الرغم من كل ذلك عظيم بمزايده وإن كثرت عيوبه . وكذلك المتنبي ، وإن لم تكن العيوب واحدة . وليس نابليون بالعظيم الوحيد في الدنيا ، ولم نسقه مثلاً لأن المعايير مشتركة ، بل " لبعض " مشابه نراها بين الرجلين . فكلاهما وضع النشأة ، على الأقل بالقياس إلى الذروة التي نسماها والرفعة التي بلغاها كل في ميدانه . وكان كل منهما يحفز طلبه نجد ، ولا يدع له قراراً دون أن يعرف لغايته حداً . وكما أن المتنبي يرى أن محمد بن ترك في الدنيا يدوي الذي يصفه ، كذلك كان نابليون يفكر بسب شهرة إلا صحة عظيمة كما اشتدت كان ذلك أديع لذلك ، وفي شهادته . ونسب أن القوايين والأنظمة والأهم كلها إلى ماء ، ولأن صحيح الشهادة دائم خالد لا يزال يدوي في آذان الأجيال الآتية . وكلامه كان عملاً لا ولاء ولا صداقة في هذه الدنيا ، ولا يرى ذلك صائداً . وكان يسمون بقول : ما دحل والرحمة والرفقة ؟ ذلك بالنساء أخرى ونحن ندرجهم فيكم كاسيف مصاء وكالطود ثباتاً . ومن لم يأس من نفسه ذلك فليس من مبادئ الحرب والحكمة . وما كذا فعل المتنبي

ومن عرف الأيما معرضي بها وبالناس ، روى رحمه غير راحم ليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجارى عليهم بأنهم ولكن بينهما على ذلك من الاختلاف ما بين اثنين عاش أحدهما بالفضيلة ، ونجح الآخر في حياته ثم هوى بغيرها .

(٤)

سخافة وحكمة - مقتضيات الخلود - العفو أو التعمد في حكمة المتنبي

أحكى للقارئ قصة شخصية تبقى سخافتها بي عالقة وإن كنت قد تدبيتها ، وتدل على مكان المتنبي من الفضل وحكمة التصع وبولا ذلك ما سقتها : صنعت يوماً قصيدة ، هي قصة مروية على لسان بطلها ، وحملت الجحيم مسرحها ، وتصورت فيها بعض ما يقع في ديب هذه وما تجيش به نفوسنا من شتى العواطف والغرائز الأرضية ، وبوردت بعض آياتها في موقف ليفهم القارئ المراد :

ذهبت أجوس خلال الجحيم
فما راعني غير مرأى اللعين
وأنصفه : إنه كيس
وبولاه آخت حياة الوري
جمالاً وليس له مدرك ،
والليس ، فاعلم ، أبو مرة ،
عني بقوته والجلال
مؤاة عليه أنصفه
وما كان يعدم من حربه
فنازعتني الشوق أن أنصفه

وأنفص أجوازها والحجر
بليس يرمض كـ
ظريف ، وإن كان ينبوع شر
كجنات ربك ذات السدر
وحير ولكن من مقتصر ؟
له حرارة البر إن اعتكم
لا يسأل أحلق أن يتصر
أم ارتدت ساحته بالعرز
رمسولاً ، وإن أعوزته التذر
وخامرني الخوف مما يسر

وأدرك أنى له وامق
 صحا وانفض لي رأسه
 وقال ، وفي صوته نبرة
 « رصفي الجليل ! - إذا لم أكن
 بذلك توشتك أن تنثنى
 لا صر ذلك خير سوى
 سرح عن عطفها شعرها
 ... خالق هذا الجمال
 وضوي من قد غدا لصقها
 تعاضيه أنفاسها حرة
 وتدفع في صدرها وجهه
 تجعل من معصيه لها
 ... مكنت يمينها له ،
 ... وهو في غمرة ،
 ونحنو معانيتها لا ترضن
 ويأتى العرير سوى أن يضر !

وأنى ... مستعصم بالحسن
 كما يفعل الأنصوان الذكر
 من السخر شائكة كالأبر
 ركبت من الوهم شر الحمر !
 إلى الله مستغفرا ، لو غفر !
 ونحنت مختارها المنهر !
 إذا أسقط الوجد عنها الأرض
 ومشبعه بالشباب النضر !
 وإن عجز من عنفها أو جار
 وتلمسه جسمها والشعر
 ونحو على شعره بالفر
 نطقا ، وتدعوه أن يهتضر
 وتناد من بعد إذ تاد
 وتورده ، ويشاء الصد
 عليه بشيء ولا تلخص
 فواها له من سعيد بطر !

وكت ضنيا بها ، مزهوا بفكرتها ، أحلها معى إلى حيثما ذهبت .
 ثم ضاعت منى مسودتها - ولا أدري كيف حدث ذلك - كما ضاع
 غدا . تأملت . أليس من أسكر اقتدها إلى إخواني ، وراد في أمي
 نى لا أدد منى . لا كمن أو أهدى شطير لا خير فيها . وعلمها أود
 ما في الفصيلة . وانقضت شهور وشهور ، وهى بين العين والقلب ،
 والذكاء كبحون ما عهدتها . ثم أصبحت يوما على ذكر ما كنس نوردوا
 مسودتها . وقد فيه مسودة الصلابة . وفى هذا اليوم معى إيتنا ما كنس
 ... فأصبحت تدفع من الموانع من مقدار الحسارده واج . وأور

معلقة بين العواطف المتعارضة التى حركتها فى النفس وفاة هذا العالم الكبير
 واعتدائى إلى قصيدتى الثالثة ! ولم يزل يحبب لى التفكير ويوضع بهذه
 المناسبة حتى ذكرت قول لى الطيب من قصيدة يرثى بها مولى تركيا
 لسيف الدولة اسمه يماك :

مُنينا إلى الدنيا فلو عاش أهلها مُنعنا بها من جيفة وذهب
 تملكها الآتى تملك سالب وفارقها الماضى فراق سلب
 ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

فعدت إلى قصيدتى وتناولت مسودتها ومزقتها بيدي غير آسف على
 ترميقها !

...

وأنت أيها القارئ أفهمت ؟ لا أدري ! ولكن الذى أدريه لى من
 عسى إن المتنبى أصاب كد الحقيقة حين قال إن موت هو عند سحره
 بكرم والصبر ، ولو اتسع مصراعا البيت لقار إليه معك كل شئ
 والعواطف والعرائر الإنسانية حليلها ودقيقها وشريفها ووصيفها . ومعنى
 من شاء إلا أن يتصور أن الله حما الناس الحدود وحمهم الموت . فكل
 عرائر الإنسان يكون لها حينئذ محل أو عمل ؟ امرء حرد . ومنى كد
 الخلود مضمون والموت مأمونا فلا عمل لغريزة حفظ الذات ولا حاجة
 الإنسان إلى الطعام يدفع به عائدة الجوع . وهو أنسط مضمر مبررة

لأنه لا عائلة هناك ، ويموت به جسمه لأنه لا حاجة له القوة ولا خوف
 من مبرها بفضال أو بقسها كلال . ولا لزوم نسعى ونكدح إذ لا نصل
 أحدهم ولا صبر من رفع مؤونتهما . والأحباء يصل . ويذهب معه كل
 ما عسى أن يوفق الإنسان إليه من العلوم والمعارف والاختراعات
 ، والاستكشافات . فيعيش الإنسان على أنه ولاء . وأصدق وزاد مع المبكرات

التي تفتت بالعالم الآن ، ويلقى بنفسه في أطنى لجج اليم وكأنه يطمس على برشه برثر ، ويساكن الوحوش الصارية التي لم تعد أنيابها ومحالها وذى وتردى ويهدم سدس ويرمى بالثياب ويوتر العرى إذ ما حاسنه إليها ؟ وأى سوء يقيه بها ؟ ولا يعود « يستحي » أن يمشى هكذا عارياً كما مشيت ذلك - بل لا يعود يحس حتى الحاجة إلى النوم لأن جسمه مركبٌ بحيث لا يضمحل ولا يتباه الداعى أو يعدو عليه الفناء . ولا يبقى له فرق بين بسا وسار ، لا شجاعة ، لأن معنى الشجاعة الإقدام على الخطر أو ما يتوهم المرء خطراً ، وليس هناك خطر ما ، ولا كرم لأن الفقر والغنى سيات ، وما بأحد حاجة إلى شيء . ولا يخل إذ لا كرم ولا خوف من الفقر وما ينطوى تحته من المعانى . والأرض ما الداعى إلى حرثها . سعاد ؟ مصع ماذا سئنها ؟ والمتاجر لأية عاية نتخذها ؟ والسفر ما اضاغة الوقت فى لبثائها ؟ وأى داعٍ للعجلة فى الانتقال من مكان إلى مكان ؟ والعمر عمر الأبد لا يحد ؟ بل ما الحاجة إلى الانتقال وكل بقعة تكفى غنة ؟ حتى حكومات ماذا نقيمها ونظم أمورنا بواسطتها وليس لنا أمور أو شؤون تنظيم ؟ والمثل العليا هل يشدها أحد أو يحلم بها ؟ كلا ! ولا تبقى هناك آداب ولا علوم ولا صناعات ولا ملاه ولا شيء على إطلاق إلا جسم خامد لا يحفز حافز حتى إلى تحريك إصبعه .

بقيت العريزة النوعية ، ومظهرها الحب وغايتها حفظ النوع . وهي حتى ، تحت نعمة مصع مسعياً إليها . أما إذا أصبحت العاية موجودة ضعيفة الخ . وهذا النوع ما بق حاله لا خوف عليه ، فإن العريزة لا يبقى له أمل . وقد على حصل العريزة انعدمت وظل كل ما نتج عنها من تعصف وجد . أحل على الذاقة ولا يشعر الحاجة إلى التعارف بينهما . المرأة ترى الرجل ولا تحس أنه نصفها الثانى كما يقولون فى تعابيرهم

الجديدة ، أو أن بها حاجة إلى تكميل نفسها به . لا يجذب أحدهما الآخر أو يصغيه إليه أو يحرك فيه بواعث الشعر والعناء . متى منعت الشعور جنسى المتبادل بين الرجل والمرأة امتنع تبعاً لذلك ما سميد لأن جسمين والحياء والخفر والدلال والوصل والمهجر والغيرة وسائر أمثال هذه المعانى التي ترجع فى مرة أمرها إلى الحب ، وزالت عاطفة الأمومة والأبوة . وتجرد « البيت » من معناه ، واستحال أن يكون « للأسرة » وجود ، وتحوشت دعائم الاجتماع وصار الإنسان مخلوقاً غير مسمى . يصع ! لا يخالجه غضب أو رضى أو حب أو بعض أو قوة أو أمل أو ندم . ولا خوف ولا يأس ولا احتقار ولا رحمة أو قسوة ولا غيرة . يحس . وزايلته مادة الحياة الحاضرة بأسرها .

وعسى من يسأل . ولكن ألا يبقى له شيء ؟ ألا يحتفظ بصفة واحدة أو شهوة من شهواته كالشهوة والحكم ؟ كلا ! حتى ولا هذه ! لأنه جميعاً ليست إلا مظاهر للتعري عن الخلود الممتنع فى حياة محدود . وماذا يصع الإنسان بالشهوة ؟ ولماذا يطلها وليس من يكثر من . بينهما ؟ وبأى شيء يريد أن يشتهر ؟ الأدب معدومة نوعه . ويعوم لاضرورة إلى تحصيلها ، واحير ليس حيراً ، والشرع يعد شيئاً ولا معنى هناك ينفع أو يضر . وما يُستطاع من الأعمال سوى بعدد دُرِّ عُمره خيلة مستحيل إذا ضمن الخلود إذ ما هى البطولة الخيرية مثلاً ؟ هى تقوى بشجاعتك وتصرك بمعنون القتار على سحق عدوك وحصصه . والسرف فى حضوره هو هول الفتك به . وأل فتصور حبس رحمة بالذوق وقل لى كيف يستطيع أحدهما أن يقهر حصه ؟ الموت هو ضد حياة الحيوية ، والحال لا يموت أى لا تمتد قوته ولا يعود نصيبه . يضل الحيشاك بنحاريات أما الدهر فلا سحرة ، فؤاد لا يتحرر .

وعلى أن الباعث على التقاتل يمتنع من تلقاء نفسه مع الخلود . وهب هذا
 ماغيت نطمع أو شهوة التحكم أو غير ذلك فما محله مع الخلود ؟ الطمع
 لا يشعر به الخالد لأنه بلغ أقصى غاية الطمع وصار في غنى عن كل
 ما دونه . وشهوة التحكم يثيرها علم المرء أن في الناس الخنوع والخوف
 والحين ورهبة القوة ، والخلود يُعنى على هاتيك جميعاً ويقطع الطريق
 على نشوئها وإذا كان لا فضل لإنسان على آخر ولا مزية ، لأن الخلود
 يبت بين الناس ، فكيف يمكن أن يبلج بالمرء مثل شهوة الحكم ولا قوة
 . يمد بها ، ولا في غيره عجز عما يطيقه ولا من وراء ذلك غاية ؟

إذاً فالناس إذا خلدوا يتجردون من كل صفاتهم ونزعاتهم وغرائزهم
 وعواطفهم وإحساساتهم التي نعرفها ونسير بها في حياتنا وفق طبائعها ،
 ويقولون مخلوقات أخرى يستحيل على العقل آدمي أن يتصور حالها
 وما تكون عليه أو ما تغري به ، وكل ما يهدينا إليه القياس هو أن كل
 . للإنسان ما ذكرنا يصبح باطلاً ومحالاً . ومن هنا كان من السخافة
 المطبقة أن أتصور أن مثل ما يقع لنا في حياتنا يمكن أن يكون جائزاً مقبولاً
 ومعتبراً مع الخلود في الآخرة . ولهذا لم يسعني إلا تمزيق القصيدة إذ
 كنت فكرتها قائمة على استحالة !

ولكن هل كان المتنى يقصد إلى كل هذه المعاني حين قال :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفنى لولا لقاء شعوب ؟

أنس الأصح أن كان يدرك ما يعطون تحت بيته هذا من المعاني
 التي استحصاها لأي علمها في بيت أو أنات أخرى يُسمى فيها المسألة
 . بين ما نصل من الحجاب منحه منحه ؟ أليس أقرب إلى العوالم
 والأصح في الرأي أن يكون هذا البيت مدحاً منه عمواً كالشجاعة بطله

من حافر الحواد وهو يعدو على الحصى والحجارة ؟ . كما أن الخلود
 يعتمد أن يفدح الشجاعة ، كذلك المتنى لعل يندفع الدهن في محراب السلام
 عن الموت قاده عمواً إلى هذا الحاطر دون أن يفتش في عمق ما تشف
 عنه . نقول : قد يكون هذا كذلك فما تنكر أن للذهن انتباهات يرى فيها
 حتى الغيب كما يقول ابن الرومي :

وللنفس حالات تطل كأنها تشاهد فيها كل عيب سينبئ .

ولكن السياق يرجع عكس ذلك ، لأنه في معرض التقدم بالعزاء لسيف
 دولة عن بماكه التركي ، وقد شاء أن يعريه عن فقدته بأن يبين به ضرورة
 الموت وفضله وأنه حزم لا هفر منه ، فمضى يقول له لو أن من سبقوا
 عاشوا أبداً وخلدوا في الدنيا لما وجدنا نحن ، فإذا كانت الحياة خيراً فالفضل
 وب للموت الذي عصف بسائقينا ، وأراد أن يريد في بيان ما لموت من
 الفضل وما ينتجه من المزايا ويخلقه في النفس من الخلال الحميدة ، فقال
 به الذي جعلناه مدار هذا الفصل . ولعله يعتمد أن بعض أن موت سب
 برذائل كما هو علة الفصائل ، لأن المقام استوحش منه أن لا يذكر إلا حسب
 الموت وأياديه البيضاء على الإنسانية ، ليحمل سامعه عن الرضى بهذا قدر
 . أو لعله لم يقط حين قال هذا البيت إلى كل حوسب مكروه سي
 ساقها . وما أض شاعراً أو كاتباً لم يحرر ذلك . يحظر له معنى فسر
 . في تقييده ، ثم يقط فيما بعد إن أنه لم يحط بكل حوسب . وقد يشير
 . أن يفتح ما كتب أو نظم فيوفى المعنى حقه ، وقد نتبعه شرواح من
 . حيث فيبقى المعنى بعضاً وإن كان قد تم ويصح في ذهن صاحبه ويحيى
 . قد مثل أو مثلك أيها القارئ فبذلك قد انقصر في استبعاد المعنى ويخرج
 . ذلك وسعاه على فائه . بفضل ويرمر ويحب الدنيا ويقصد كأنه يقو بسب
 . ناموا دكانى وقطى ! ما أعظمهم وكبرهم ! وما أشد إرأهما على

ولقد عرف الفارسي مما كتبنا عن المتنبى ، ومن شعره نفسه ، أنه كان
 « يتعاطى كبر النفس وعلو الهمة وطلب الملك » كما يقول أبو البركات بن
 أبي الفرج المعروف بلقب زيد التكريسي الشاعر . ولم يكن يخفى على
 المتنبى أن المال « عضل » المساعي والمطالب الضخمة كما يقولون .
 أو « زندها » كما يقول المتنبى . والمال عند المتنبى لم يكن مطلوباً لذاته ،
 ولا لأجل قيمة وثمة بنفسها ، ولا لأجل به مرضاً يدفعه إلى التماسه
 وتكديسه ، بل لأنه عون على الغايات وفي ذلك يقول :

وما رغبتي في عسجد أستفيد ولكنهما في مفخر أستجده

ويقول لكافور وهو بمدحه ويطلب منه الولاية التي جاءه طامعاً فيها :

« عـ حق الله من زاد همه وقصر عما تشتهي النفس وجده
 ولا ينحلل في المجد ماله كله فينحل مجداً كان بالمال عقده
 وديره تدبير الذي المجد كفه إذا حارب الأعداء ، والمال زنده
 فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده »

أي أنه يقول : أشقى الناس من زادت همته وقصر ماله عن مبلغ ما يهيم
 به ، وينصح لكافور أن لا يُسرف في العطاء فيذهب ماله كله في طلب
 مجد . لأن المجد لا ينفد إلا بالمال فإذا ذهب المال انحل ما كان
 معقوداً به . ولا يكون إلا باحتتماع الكف والزند ، كذلك
 المجد والمال قرينان . وصاحب المال بلا مجد فقير زري وصاحب المجد
 لا مال موشك أن يزول عنه مجده .

« قد غم عصمه أنه بما يصف كأميراً المحل في هذه الأوقات لأجل
 حربه . ومن غم عصمه أنه سلك في ذلك مسلك كثير إذ دخل على
 هشام فمدحه فلم يشبه فقال كثير يخاطبه :

إذا المال لم يوجب عليك عطاؤه صنعة تقوى أو خليلاً توافقه
 منعت ، وبعض المنع حزم وقوة ومجد ولا يعينك إلا حقاله

فقل لكثير : ما حملك على أن تعلم أمير المؤمنين البخل ؟ فقال : إنه
 منعني من رفته ، وألغى برده ، فأردت أن أحجب إليه المال ، فيمنع غيري
 كما منعني ، فيتفق الناس على ذمه !

وهي حكاية مخترعة . والحقيقة الواضحة أن بعض المولعين بالتأليف
 عثر على هذين البيتين في قصيدة كثير ، فوجدوا غريبين من شاعر يريد
 أن يمدح ملكاً بالكرم ليستوكف رفته ، فنسج حولهما هذه القصيدة سخيفة
 فقد كان هشام بخيلاً بطبعه لا يحتاج أن يعلمه كثير حرص . وهو كان
 جواداً لما بلغ كثير عزة غايته منه ببنتيه هذين .

وفرق بين بيتيه وأبيات المتنبى التي يوصي فيها بالحزم وضبط الأموال
 لغاية مفهومة معقول أن يُضبط لها المال . وقد صارت القضية الآن جلية
 بعد الذي سقناه . رجل له غاية معينة ، يريد أن يوفرها بوسائل ، وأن
 يحشد لها المال ، في غير كزازة ، إذ كان المال أقوى أداة ، وأمن وسيلة

يقول عن نفسه في مستهلها أن المتنبى كان يأتمنه على غيبته لسيف الدولة ،
وإن ما بينهما كان عامراً دون سائر الشعراء . فأما وهو شاهد عيان فلا محل
على الإطلاق لهذه المقدمة التي يُخيل لنا أنها دفاع سابق لتهمة مقدرة .

ولم يعرف عن المتنبى أنه كان ممن يختابون الناس ، وبخاصة سيف
لدولة . وهذا بالبداية لا يمنع أنه كان يشكو جفوته في بعض الأحيان ،
ولكن العيبة شيء والشكوى شيء آخر . وما حاجة المتنبى إلى موثمن على
الغيبة وهو يعلن عبه ويذمعه في شعره السائر مسير الشمس حتى قبل أن
يفارق سيف الدولة ؟

وليس هناك من الشهود على صحة الحكاية غير ابن خالويه ، وهذا
حتمه سني لا صدق قوله فيه . وفي الحكاية مبالغة ظاهرة لا يُعقل أن
تصدر عن كالمُتنبى تعاضلاً وترفعاً . ومن ذا الذي يصدق أن المتنبى
يسمع من حماقته واستهاتته بكرامته أن لا يكفى بمزاحمة الغلمان له على
الدنانير حتى يرضى أن يدوسوه ويركبوه ؟

وحكوا غير ذلك : أن أبا الطيب دخل مجلس ابن العميد وكان
يستعرض سبوقاً ، فلما نظر أبا الطيب نهض من مجلسه وأجلسه في دمه ،
ثم قال اختر سيفاً من هذه السيوف ، فاختار منها واحداً ثقیلاً الخلق ،
واختار ابن العميد غيره ، ثم قال كل واحد منهما « سيفي الذي اخترته
أحد ، ثم اصطحبا على تجربتهما فقال ابن العميد « فيماذا تجربهما ؟ »
فقال أنه شيب . في الدنانير يوتى بها قبضد بعضها على بعض ثم نصرب
به فإن قاده فطع . فاستدعى ابن العميد عشرين ديناراً ثم ضربها أبو الطيب
فقد في المجلس فقام من مجلسه المحم يلتقط الدنانير المتبددة . فقال
ابن العميد « ليلوم الشيخ مجلسه فإن أحد الخدام يلتقطها ويأتي بها
إليك » ، فقال أبو الطيب « بل صاحب الحاجة أولى » .

نقول والاختراع في الحكاية واضح . وحسب القارئ أن ننبهه إلى
أنها ناقصة ! ماذا فعل ابن العميد بسيفه الذي اختاره ؟ لقد عرفنا أن المتنبى
حرب سيفه فقد به الدنانير فبين له ولغيره أنه قاطع . ولكننا لم نعرف شيئاً
عن سيف ابن العميد . وهذا على الرغم من أن القصة محورها حكاية من
أبي السيفين أقطع !!

ومن هذا النقص حين للقارئ أن الراوى - وهو مجهول ! - إنما
ساق الحكاية للتنديد بالمتنبى ، ولهذا سعى أن يتمها على عادة المشنعين .
وهذا أيضاً خرى فيها أن يحمل السامع أو القارئ على ارداء عمل متنبى .
وذلك بأن يفخم من أمره لتزداد الهوة التي انخرت إليها عمق . فجعل من
العميد يتخلى له عن مجلسه . ثم يعرض عليه السيوف دون حوصيين
جميعاً ويفرده فصلاً عن ذلك باختيار واحد لنفسه . ثم يبيى روى
المجهول إلا أن يجعل المتنبى يختار سيفاً كبير الخلق ثقیلاً ليوقع في بؤس
أن أبا الطيب نظر إلى الخلق ولم ينظر إلى مهر السيف وفرده . ثم بعد ذلك
يقيم المتنبى من مجلسه يلتقط الدنانير ويحسم لك الأمر . فمقد
المجلس - هنا فقط - بأنه فخم !

وبعد ، فهل بقيت بنا أو بالقارئ حاجة إلى تقصى أخبار مجلس مروءة
عن المتنبى لربها وحصها ؟ لست أسمر بأخبار إن ذلك . وأسرع حتى أن
بالقارئ مثل استعائني عنه . فإذا شاء المزيد فعليه بالصبح متى شاءه
من كل كتاب لم يتوخ صاحبه إلا مجرد القيل حتى نحسبها جميعاً من أجل
واحد لولا ما تمنحه من قصد هذا إلى الدفاع . ومن تعدد ذلك لثمة
المنهية . ولو أن هؤلاء أو غيرهم من الكتّاب معصرون سبيى من هم
حنا في هذا الباب نظروا إلى شعر الرجل باعتباره صورة لنفسه وحسب
الشعده لسدوا هذه القصص ، ولمضوا إلى أن المتنبى لم يكن بالرجل السحير
إنما كان رجلاً يعرف قيمة المال وما له من الأثر البالغ في حبه .

ذكاء صاحبكم الشاعر أو الكاتب الذي كتبت تحسونه بهذا الأوائل والأواخر ١» وصاحبنا الشاعر أو الكاتب - إذا كان معاصراً وكان واسع الصدر - يضحك ويقول « ما أظلم الدنيا والحظ ١ » .

ولعل بعد أخطأت حين مزقت القصيدة . ذلك أن المرء ليس مطالباً بما يحرق صوق الإنسان ويحاور مدى قدرته . وليس من العيب أن يعجزه أن يتصور حياة مخلدة في الآخرة أو غيرها إلا على مثال الدنيا . وإنه ليكون من العنت البحث أن يطالب أحد بأن يكون صادق التصوير لنوع من الحياة لا يعلمه ولا هو يتاح له أن يجربه في مدى عمره أو عمر سواه من الخلق . وأحسب أن لو استطاع أحد أن يصف لنا حقيقة الحياة الخالدة لنا وسعنا أن نفهمها نحن أبناء الموت ، بل لبدت لنا حافلة بكل ضروب لاستحالات .

ولكني مع ذلك فعلتها ! فكنت سخيلاً في الأولى والثانية !

(٥)

حكايات بخله - نقدها - الحزم لا البخل -
شاهد من شعره

زعموا أن المتنبي يخيل كثر ، وأنه ألعان نفسه الكبيرة - أو التي زعمها كبيرة - في سبيل المال ، وقالوا إن بخله هذا ودعواه الشجاعة لا يتفقان ، وسعدوا في ذلك كله على مشهور الاعتقاد دون الانتقاد . وأخذوا به بالتفصيل لا بالتعميم ، والاحسان ، وقالوا أصحاب هذا الرأي بالتسليم ، لا بالتمسك . ولا يجرى واحد ممن قلنا هم في هذا الباب بأن يبين عروءاً يؤي عن لرحل وسنة الحظ فيما حكموه منه وحملته ، وليس هد من فقد الأذى في شيء . ولا هم يدل على وجود الاستعداد لفهم الشعر

على الوجه الصحيح . ويحسن بنا قبل أن نخوض في هذه المسألة أن نورد ما يستندون إليه في دعواهم .

حكوا أن أبا الفرج قال « كان أبو الطيب يأنس بي ويشكو من سيف الدولة ويأمنني على غيبته له ، وكان ما بيني وبينه عامراً دون باقي الشعراء ، وكان سيف الدولة يفتاظ من تعاطفه ويعفو عليه إذا كلمه والمتنبي يجيبه في أكثر الأوقات ويتعاضى في بعضها » قال أبو الفرج سعد ، بعد وأذكر ليلة ، وقد استدعى سيف الدولة بدرّة مشقه بسكين مدونه . بعد أبو عبد الله بن خالويه طيلسانه فحتا فيه سيف الدولة صدخاً . وممدت ديل دراغتي فحتا لي جانباً ، والمتنبي حاضر ، وسيف الدولة يتنظر منه أن يعمل مثل فعلنا . فما فعل ! فغاظه ذلك ، فنثرها كلها على عمار . وقد رأى المتنبي أنها قد فاتته راحم العلماء ينتقط معهم ، فعمهم عيب سيف الدولة فداوسوه وركبوه وصارت عمامته في رقبته ، فاستحى ومضت به ليلة عظيمة وانصرف فحاطب أبو عبد الله بن خالويه سيف مدونه في ذلك فقال : يتعاضم تلك العظمة وينزل تلك المنزلة لولا حماقته ؟ »

هذه هي أشهر القصص التي تروى عن المتنبي ، وهي إذا أصبحت أول على حماقة مها على البخل - وعلى حماقة لحظة دور حماقة عمر سي نعي المداوى . ولكن فيها مواضع للنظر تبعث على شئ في صحتها وشبه الريب في صدق راويها . ذلك أن أبا الفرج ابعثه لم يكن يحتاج إلى كل هذه المقدمة في بيان منزلته من أبي الطيب وإطلاعه على سره . وإنه كان حقيقة بحيث يصف نفسه . إذن لكان هذا معروفاً لا يحتاج إلى شرح ، ومفهوماً بطبيعة الحال لا يستلزم أن يسوقه نوضفة للحكاية ، ولنباحظ القارئ كذلك أن أبا الفرج هذا جعل نفسه شاهد عيان معاداة أبي رويها . ولو أنه كان يحكيها على أنه سمعها من منسى نفسه لعهد منه أن

تقليد القدماء

كتبنا نقد حافظ مد أعوام ، ولم يكن الناعث ما عليه ، بحسب
بعض البله والحمقى ، ضغينة نعملها للرجل أو عداوة بينت وبينه ، فيجب
بكون شيء من ذلك ولا علم لنا به ولا صداقة ولا صحة (١) ، ولا حتى
يرتق من الكتابة والشعر ، أو نراحمه على الشهرة ، لأن ما يس من تنامي
المذهب واختلاف المنزع لا يدع محالاً لذلك . ولكنني لسوء الحظ أخذت
من يمثلون المذهب الجديد الذي يدعو إلى الإقلاع عن التقليد ، تنكبت
عن احتذاء الأولين فيما طال عليه القدم ، ولم يعد يصح لنا أو يصحح -
أقول لسوء الحظ ، لأنه لو كان الناس كلهم يرون رأياً في ضرورة دين ،
وفي وجوب الرجوع عن خطأ التقليد لربحنا من الوقت ما نخسره الله
في الدعوة إلى مذهبنا ومحاولة رد جمهور الناس عن عادة إذا مشوا عليها
أفقدتهم فضيلة الصدق ومزية النظر ، وهما عماد الأدب وفروغ شعر
والكتابة .

ولو كان الناس اعتادوا النقد وألفوا الصراحة في القول وتوحي نقد
في العبارة عن الرأي ، لما كانت بي حاجة إلى هذه المقدمة أو ضرورة إلى
سرقة نفسي ودفع ما يرموسى به ، ولكنت أنشر النقد على ثقة من حسن

(١) عدنا شعر حافظ في ١٩١٣ ثم جمعنا متفرقه وطبعناه في ١٩١٤ .
جمعنا هذا المقال مقدمه له ، ولم يكن بينا يومئذ وبين حافظ به صلة . وقد كتب هذا
عنا للدلالة على حال الأدب يومئذ .

طى القراء بي وبحلوص نيتي وبراءة سريرتي مما تصفه الأوهام ويصوره
 الجهن . وبكنا سوء الحظ مضطرون أن نثبت حسن القصد في كل ما ننقد
 كأن المرء لا يمكن أن يفعل شيئاً إلا ودافعه الضغائن والأحقاد ! ومن
 سوء حظ نقد في مصر أنه يكتب لقوم لا يستطيع أن يركن إلى انصافهم
 أو يعور عن صحة رأيهم . وليساعني القراء في ذلك فقد رأيت عجباً
 أيام كنت أنشر هذا النقد : من ذلك أنني كتبت إذا قلت إن حافظاً أخطأ
 في هذا المعنى أو ذاك ، قال بعضهم « لم يخطئ حافظ وإنما تابع العرب ،
 وقد ورد في شعرهم أشبه ذلك » كأن كل ما قال العرب لا ينبغي أن
 يأتيه الباطل ولا يجوز إلا أن يكون صحيحاً مبرأ من كل عيب ! إلى غير
 ذلك مما يُغري المرء باليأس ويحمله على القنوط من صلاح هذه العقول !
 وإذا فرضنا أن العرب أصابوا في كل ما قالوا ، افتري ذلك يستدعي
 أن نقصد قصدهم ونحتذي مثالمهم في كل شيء ونحن لا نحيا حياتهم ؟
 ألسنا الوارثين لغتهم وللوارث حق التصرف في ما يرث ؟ هل تقليدك
 العرب وجريك على أسلوبهم يشفعان لك في خطأ نحوي أو منطقي ؟
 فلا بد فكيف يشفع بك في غير ذلك مما لا يصح في العقول ولا يتفق
 مع حق ؟ وكيف تحاكم العقل في الأولى ولا نستقصيه في الثانية ؟
 لا سكر . دراسة لأدب القديم من الفع والمائدة ، وما للخبرة
 سرغت الأعضاء ، قديمهم وحديثهم . من الفائدة والأثر الجليل في تربية
 الروح . وحده لا يحصى عما أن ذلك ربما كان مدعاة لفناء الشخصية
 والذهول عن الغاية التي يسعى إليها الأدب والعرض الذي يعالجه الشاعر .
 والأصل في الكتابة بوجه عام .

على أنه مهما يكن فصل القدماء ومرثيتهم فليس ثم مساع للشك في
 أنك لا تستطيع أن تنبع منهم من طريق الحكاية والتقليد . فإن الغفير

لا يغنى بالافتراض من المؤسرين . ولست أقصد إلى نذ الكتاب والشعراء
 الأولين جملة وعدم الاحتفال بهم فإن هذا سحف وجهل . ولكني أقول
 إنه ينبغي أن يدرس المرء في كتاباتهم الأصول الأدبية العامة التي لا يسعى
 لكاتب أن يجيد عنها أو يغفلها بحال من الأحوال - كالصدق والاحلاص
 في العبارة عن الرأي أو الاحساس - وهذا وحده كفيل بالقضاء على فكرة
 التقليد .

(وبعد) فإنه لا يسع من ورد شرعة الأدب . وعلم أنه يحتاج من
 مواهب وملكات غير الكد والدؤوب والاحتيا في حكاية السنف والفسر
 على قلوبهم والاقتراس بهم فيما سلوكه من مناهجهم . ومن تسط في شعر
 الأولين ، لا ليسرق منه ما يتنى به بيوتاً كيبوت العنكبوت ولكن ليستعين
 سورة ويستعين به على استجلاء غوامض الطبيعة وأسرارها ومعانيها . ويهتدي
 بنجوم العبقرية في ظلمة الحياة وحلوكه العيش ، وليتعبق بطر شعاعها
 المتعلقة إلى ما لم يتمثل في خاطر ولم يحلم به حالم - أقول لا يسع من
 هذا شأنه وتلك حاله إلا أن ينظر إلى حال الأدب العصري نظرة في ضيق
 الأسف والخيبة واليأس . وكأنما شاءت الأقدار أن يديب أحد عصره .
 وبصر قلبه ، وينسج آماله ومخاوفه التي هي آمال الإنسانية ومحاورها .
 ويستورى من رفات آلامه شهاباً يضيء للناس وهو يحترق . ثم لا يجد
 من الناس أحداً حنّاناً يؤارره ويعيه على الكشف عن نفسه وإراحة حجب
 العموص عن إحساسات خياله التي ربما التبست على القارئ لمرط حديثها
 أو غابت في مطاوى اللفظ واستسرت في مثنى الكلام .

أليس أحداً بمعدور إن هو صرح وبه من ساح اليأس خاطره يا صبيحة
 عمر ! أقص على الناس حديث النفس ، وأنهم وحد القلب ويجوى
 لغواد ، فيقولون ما أحود لفظه أو أسخفه ! كأنني إن البصق قصدت !! !

وأُصيب قليل عيونهم مرآة للحياة تُريهم ، لو تأملوها ، نفوسهم بادية في صفاء فلا يظنون إلا إلى زخرفها وإلى إظهارها وهل هو مفضض أم مذهب ، وهل هو مستملح في الذوق أم مستهجن ؟ ؟ وأفضى إليهم بما يُعنى أحدهم التماسه من حقائق الحياة فيقولون لو قلت كذا بدل كذا لأعاب الناس مكان ذلك ! ما لهم لا يعيرون البحر بأعوجاج شطآنه وكثرة صخوره ؟ ؟ يا ضيعة العمر !! .

سيفرون ما فضل مذهبكم الجديد على مذهبنا القديم ؟ وماذا فيه من المزية والحسن حتى تدعوننا إليه ؟ ربأى معنى رائع جئتم ؟ وماذا لبتكرتم من المعاني الشريفة والأغراض النبيهة ؟ فنقول قد لا يكون في شعرنا شيء من هذه المعاني الشريفة والأغراض النبيهة التي تطلبونها وتبحثون فيه عنها ، لا يكون (نس) جهد في العوص عليها وفتح أعلاقتها والتكفد ، وقد لا نكون أحسنًا في صوغ القريض ورياضة القوافي ولكن نحييتنا لا يصح . تكون دليلًا على فساد مذهبنا وعقمه ، إذا صح أننا حينما نريد تكلفناه وهو ما لا نظنه ، بل هي دليل على تخلف الطبع لا أكثر - وعلى فرض ذلك كله فإن لنا فضل الصدق وعليكم عار الكذب ودينية الافتراف على نفوسكم وعلى الناس جميعًا ، وحسبنا ذلك فخراً لنا وخزيًا لكم .

س نضع في ندالة على أنكم لا تفهمون الشعر ، ولا تعرفون عذبه ، وأغراضه ، من قولكم إن قلانًا ليس في شعره معاني رائعة شريفة ، لأن الشاعر انطباع لا يمت دهنه ولا يكده خاطره في التفتيت على معنى لأن هذا تكلف لا ضرورة له . أو ليس يكفيكم أن يكون على الشعر طابع ناظمه وميسمه ، وفيه روحه وإحساساته وخواطره ومظاهر نفسه سواء كانت جيده أم ديفيه ، شريفة أم وصيعة ؟ ؟ وهل الشعر إلا صورة للمحسوس . هل كل مظاهر الحياة والعيش حيله شريفة رفيعة حتى لا يبحر

الشاعر في شعره إلا كل جليل من المعاني ورفيع من الأعاص ؟ وكيف يكون معنى شريف وآخر غير شريف ؟ أليس شرف المعنى وحلاته في صدقه ؟ فكل معنى صادق شريف جليل .

ألا إن مزية المعاني وحسبها ليسا في ما رعمته من اشرف ، فإن هذا سخر كما أظهرنا فيما مر ، ولكن في صحة الصلة أو الحقيقة التي أراد الشاعر أن يحلوها عليك في البيت مفردًا أو في القصيدة حمئة . وقد يتاح للإعراب عن هذه الحقيقة أو الصلة في بيت أو بيتين . وقد لا يتأتى له ذلك إلا في قصيدة طويلة ، وهذا يستوجب أن ينظر القارئ في القصيدة حملة لا بيتًا بيتًا كما هي العادة ، فإن ما في الأبيات من المعنى ، بدترتها واحدًا واحدًا ، ليس إلا ذريعة للكشف عن العرض الذي فيه قصد الشاعر وشرحًا له وتبيينًا .

وأتم فما فضل هذا الشعر السياسي الغث الذي تأتوتنا به الحين بعد حين وأي مزية له ؟ وهل تؤمنون به ؟ وهل إذا حوتكم إلى شيبصكم تحمدون من أنفسكم أن صرتم أصداء تردد ما تكلمه صحف لأحبار ؟ هل كل فخركم أنكم تمدحون هذا وترثون ذلك ؟ وأنه لا تعرفون حياة واحد إلا لماله ، ولا تألمون موت الآخر إلا لانقطاع بونه ؟ ما نصيب حياتكم !

لس أدل على سوء حال الأدب عندما من هذا الشك الذي يتحداه النفوس في أولى المسائل وأكبرها . ولقد كتب نقاد العرب في الشعر . على قدر ما وصل إليه علمهم وفهمهم ، ولكنهم لم يبحثوا شيء يصح أن ينجح دليلًا على إدراكهم لحقيقته . ولنا سكر أن كتاب العرب متحالفون في ذلك ، ولكن تحالفهم دليل على نقاد بصائرهم ونقد مطروح أذهابهم ودفع سقيهم وشدة رعنهم في الوصول إلى حقيقة يأس بها العقل ويربح

إليها الفكر ، كما أن إجماع كتاب العرب ونوافقهم دليل على تقصيرهم وتقريرتهم وأنهم كانوا يقلد بعضهم بعضاً إن لم يكن دليلاً على ما هو أشين من ذلك وأعيب .

غير أن هذا القلق والشك المستحوذين على النفوس لعهدنا هذا هما الكفيلان بأن يفسحا رقعة الأمل ويطيلا عناء الرجاء ، لأن القلق دليل الحياة ، والشك آية الفطنة وما يدرينا لعنا في غد نجنى من رياض هذا القلق أزاهير السكينة والطمأنينة !

الحقيقة والمجاز في اللغة

(١)

رأى لوك - نشأة المجاز - الترادف في اللغة

يقول « لوك » في كتابه « العقل الإنساني » :

« وقد يكون مما يهدينا إلى أصل كل آرائنا ومعارفنا أن نلاحظ مع توقف الفاضل على الآراء المخسومة العامة ، وكيف أن الألفاظ التي تستخدم معارة عن أعمال وآراء بعيدة عن الحس ، مرجعها إليه . ومنشؤها ذلك . ثم انتقلت بها الحال من العبارة عن المحسوسات ، إلى ما هو أخفى دلالة ونعوم ، حتى صارت رموز الآراء لا تتناولها المشاعر . مثال ذلك : تخيل ، ويدرك ، ويتصور ، ويتمسك بالشيء ، ويمت ، والتفرز ، والاضطراب ، والسكينة ، إلى آخر ذلك . فهذه كلها ألفاظ مأخوذة عما يتناوله الحس ، ومنقولة إلى أساليب معينة من التفكير . والنفس معناها في الأصل النفس ، وما أشك في أننا نستطيع - إذا احتدينا إلى المصادر الأولى في كل اللغات - أن نرد كل الألفاظ الدالة على غير المحسوسات إلى ما تدركه المشاعر ، وبذلك يتيسر لنا أن نقرر إلى حد ما ، الخواص التي كانت تملأ عقول الأولين على عهد حداثة اللغات . وكيف نشأت هذه الخواص ، ونعلم كيف أن الطبيعة - حتى هي تسمية الأشياء - أوحى إلى الناس أصول المعارف ومبادئها ، وكيف أنهم لما أرادوا العارة عما يحسونه في نفوسهم ، وأن يقلوا الإحساس به إلى سواهم ، استعاروا الألفاظ المؤدية للواقع تحت الحس ، وبذلك أعادوا غيرهم على إدراك

ما يخالفهم ، ويدور في تفوسهم ، مما ليس له مظهر خارجي محسوس . ثم لما صارت لهم ألفاظ معروفة مقررة يرمزون بها إلى ما يدور بأفلاكهم ، استطاعوا أن يعبروا عن كل المعاني الأخرى ، إذ كانت هذه المعاني مكونة من المحسوسات أو آرائهم فيها ، وهذا إنما كان هكذا ، لأن آرائنا كلها ، كما أثبتنا مرجعها إلى ما يقع تحت الحس ، أو ما تدركه في نفوسنا .

هذا ما قاله « لوك » - وهي قطعة مشهورة ، وإن كانت معقدة يعتمدها القموض ، تناولها الكتاب بالتمحيص واختلقوا فيها ، فمنهم من وافق و... إنصاحاً ، مثل : هورن توك ، ومنهم من عالج نقضها وأبى أن يتابع لوك على رأيه فيها ، مثل « فيكتور كوزان » في كتابه « محاضرات في تاريخ الفلسفة في القرن الثامن عشر » وفي الجزء الثاني منه هذه العبارة :

« سأورد لفظين أسألكم أن تردوهما إلى أصليهما الدالين على ما هو نوع تحت الحس . أولهما لفظ « أنا » - هذه اللفظة ، فيما أعلم ، ليست تدل على فرد من أصل أو أن تدخل إلى عناصر أولية . وليست دالة على فكرة محسوسة ، ولا هي تمثل إلا المعنى الذي يفهمه العقل منها ، فهي رمز صاف صاف ، ليس فيه أدنى إشارة إلى فكرة محسوسة ، كذلك لفظ يكون أول دهمي محسوس ، ولا أسرف لغة يؤدي فيها لفظ (يكون) كسمة تعبر عن معنى محسوس . ومن أجل هذا لا أرى من الصواب أن الرموز الدالة على ما يقع تحت الحس هي أصول اللغة » .

على أن اعتراض كوزان لا يخلل القضية من أصلها ، ولا يجعل رأيي يثبت فنلاً . وقد عجز « مولر » عن اعتراض كوزان بما يطول شرحه إذ نحن حاولنا نقله وعلى أن كوزان نفسه عاد فقال :

وهو هذا صحيحاً لا محالة إلى الشك فيه ، وهو ما ليس كذلك . فمادام يكون لنا أن نتخلص منه ؟ إن الإنسان في أول الأمر ، يفعل كل

مداركه ، يخرج من دائرة نفسه إلى العالم الخارجي . ومن المعقول أن تكون ظواهر العالم الخارجي أول ما يلتفت ، ومن هنا كانت هذه الظواهر أول ما سماه الإنسان ، وكانت الألفاظ الأولى من نفسها ، وليست مستعارة من الأشياء المحسوسة ومصطبغة إلى حد ما بالألوان . ومعنى كبر الإنسان إلى نفسه بعد ذلك وعنى بالظواهر العقلية - التي لم تزايله و... كانت مدركة بصورة غامضة - وأراد أن يعبر عن الظواهر الجديدة عند نفسه ، قادته المشابهة إلى وصل الرموز التي يغيها بالرموز المقررة . والمثابهة هي سبيل كل لغة ناشئة ، ومن هنا كانت المحاربات التي رز تحليلنا إليها أكثر الرموز والأسماء المتخذة للمعنويات .

وليس أصدق من قول كوزان ولا أعمق ، فإن المجاز أقوى أداة في لغة . واللغة بدونه خلية أن تضيق على كل شيء . ولا تكاد تسع إلا للأصول البسيطة الأولية . والمجاز ، كما هو معروف ، هو نقل لفظ من وضع له في الأصل إلى غيره مما يشاركه في بعض صفاته أو خصائصه . فالروح في اللغة العربية أيضاً أصل معناها النفس (بالتحريك) ومن ذلك قول ذي الرمة .

فقلت له ارفعها إليك وأحيها
بروحك ولقته لها قية قدرا
ومنه قولهم « ارتاح فلان لأمتة بالرحمة » وهو أن يهتس لمعروف ويهتس له ، ويتحرك كما يروح الشجر والنبات إذا تفتت بالورق والهنر ، وقول النابغة :

وأسم مسارن يرتاح فيه
سنان مثل مقباس الظلام

(١) هذا التعريف غير ما في كتب اللغة وقد امتكره بعض شيوخه وهو نو يسره . وحسبوا داعياً إلى الإسكار والناهته !

أى يهتز . ومثله الشحنة الثوب جاء منها : شملهم الخير أو النعمة ، وفلان مشتمل على داهية ، أو مشتمل على أخلاق جميلة ، ومنها كذلك اشتمل فلان على فلان ، وقاه بنفسه . قال عبيد الله بن زياد للمنذر بن الزبير : « إن شئت اشتملت عليك ثم كانت نفسي دون نفسك » .

ودرك التى ضربها لوك مثلاً أصل معناها لحق ، ومن هنا جاء قولهم أدرك حاجته ، وتدارك الخطأ بالصواب ، وغرس درك الطريق . وصار معنى الدرك أيضاً ما يلحق المرء من التبعة ، ومن ذلك قول بعضهم « ما أدركه من درك فعلى خلاصه » وتداركت الأخبار تلاحقت ، إلى آخر ذلك مما يطول بنا الكلام إذا نحن أردنا أن نتقصى فيه .

وهناك نوعان من المجاز : لفظى وشعرى . فأما اللفظى فذلك الذى من فيه لفظ بنى شواه ما وضع له ، كالأشراق مثلاً يستعمل للشمس والبرق وأوجه والمعاني . وأما الشعرى فعنى به أن يعتمد القائل مثلاً بنى شمس فيجعلها أيدياً يرمي بها للأشعة ، أو للسحب فيسميها جبلاً أو يشبهه بد أمطرت بالإناء ، فيقول مثلاً استحلبت الريح السحاب ، أو شمس برق ناسهم انصى ، أو يجعل الليالى تلد الحوادث ، أو تتمخض عجب . وحدث كثير فى شعر الأقدمين وقد لا يروقنا أو يعجبنا ، بل قد نعتبر عيب فهمه فى بعض الأحيان ، ولكنه لا شك فى أن كل لغة لها بها صور كانت فيه العبارة عما يتجاوز الحياة اليومية الضيقة ، لا تنال بس إلا من طريق هذا النوع اسدادج من المجاز الشعرى . ولعل هذه المجازات التى صارت عبارات تقليدية فى عصرنا ، يفهم المراد منها ، لا تحس حقيقتها . نقول من الأقدمين كانوا يفهموها على أن فيها معنى حقيقى . فقد كان لأقدمهم بصورون كل شيء من ظواهر الطبيعة ونفسه على حياتهم .

ومن هذا جاء إطلاق اللفظ الواحد على عدة أشياء مختلفة . كما استعملوا اللفظ شمس ويوجهه ويباحة الكلام . ومن هنا يجيء كذلك أن دون

فى الألفاظ ، أى استعمال عدة ألفاظ لشيء واحد ، وليس أكثر من هذا فى لغتنا وحسبك ما فيها من أسماء الياف والسيف والحرير ، ويسب معنى هذه المترادفات واحدة فى الحقيقة وإنما هى أوصاف شتى لشيء . مثال ذلك الشمول ، من أسماء الحرير . وهى لا تدل ، وقد يحدس أن يصورها بعملها وسورتها فيقولون الحسا أو برنحتها أو طريقتها غنمها يسمونها الخمرة . وكذلك القول فى سائر مترادفات . ففى أوصاف متخلفة نعت بها الموصوف فى ظروف شتى ثم صارت كثيرة الاستعمال والعادة فى حكم الأسماء ، وأذكر أن رجلاً من علماء اللغة سبب سمه مثل كم اسم للسيف ، قال واحد ، فعجبوا فيسألونهم أن السيف هو سمه من ما عدا ذلك صفات .

ومن سوء حظ الباحث فى اللغة العربية أن تاريخها القديم مجهول ، وأصوبها الأول التى لا بد أن تكون مرت بها غير معروفة . وبما وصلت إليه بعد أن استوت نضوجها وصارت على الحقيقة لغة عصرية روية تامة التكوين . وليس ينفي ذلك أنه ينقصها بعض زيادات ، أو ألفاظ على لأصح تدل على حديث المخترعات وما إليها فإن هذا نقص غير جوهري وليس مرجعه إلى مقومات اللغة وتركيبها . وإنما هو نقص من شاء سد فراغه بأية طريقة وأقرب حيلة ، نعى بالنقل الحرص للألفاظ الجديدة .

ولو أننا كنا نعلم تاريخ الأدوار الأول التى مرت بها لغتنا العربية كغيرها من لغات ، أو لو أن من يبتا من على تدريس اللغة العربية وأمددهم من شتى معها إلى أصل واحد ، لاستطاع الباحثون أن يصوروا ما وصل به العربون . ولكن جهلنا باللغة العربية وتاريخها ذلوع لغوية يحول بنا وبين الرجوع إلى تقدم من نشوء المجاز . ولا شك أن بنا حاجة أن نعرف ما كانت حالة هذه اللغة فى وقت مبكر من عهدنا من حيث

هل اللغة ألفاظ مصطلح عليها ؟

التوليد - طور انعدام الفردية - أصول الاشتقاق - نشأة المجاز

كتبنا فصلاً وجيزاً في المجاز ونشأته في اللغات على العموم ، وإن كنا قد تحريتنا أن نورد الأمثلة من لغتنا العربية على الخصوص . وقد قال لنا بعض الفضلاء إن في مقالنا غموضاً حال دون استجلاء الغرض منه . وذهب آخرون إلى أننا خالفنا ما اشتملت عليه كتب اللغة . ومن أجل هذا لم نجد مندوحة عن العود إلى الموضوع بشيء من البيان نوضح به ما أشكل . ونحب أن ننبه في فاتحة هذه الكلمة إلى أن موضوعنا في وادٍ ، وما احتوته كتب البلاغة في وادٍ آخر - هذه تتناول اللغة بعد أن استوفت نضوجها وصارت كما ورثناها ، ونحن نعالج في بحثنا هذا أن نرسم خط التطور قبل أن تستكمل اللغة أوضاعها . ولما كانت هذه سبيلنا وتلك وجهة نظرنا ، فلا محل في كلامنا لهذه الكتب ، إلا إذا كنا سنشايح أصحابها الذين يقولون - ولا يزال مع الأسف الشديد الأساتذة في عصرنا يدرسون قولهم هذا - إن اللغة هي ذلك الكلام المصطلح عليه بين الناس . وهو تعريف لغة عفى عليه الزمن ولم يعد مما تستطيع أن تقبله العقول وتسيغه الأفهام ، لأن القول بأن الناس اصطلمحوا على الألفاظ معينة وتواضعوا بالاتفاق فيما بينهم على أن يؤدوا بهذه الألفاظ ما يختلج في نفوسهم من المعاني والخواطر - هذا القول ينفخ نفسه . وحسبك أن تسأل : كيف استطاعوا أن يتفقوا على هذه الألفاظ والتراكيب ؟ وبأية لغة تفاهوا قبل أن تكون لهم لغة ؟ أليس من الواضح أن اتفاقهم هذا يستوجب أن تكون لهم لغة يفهمون بها ؟ وإذا كان هذا كذلك ، فعلى أى شيء يتفقون ولماذا يصطلحون ويتواضعون ، ولديهم لغة تكفيهم وتنفي في نقل المعنى أو المحاسن أو الاحساس أو غير ذلك من رأس إلى رأس ؟

و نحن - في هذا العصر الذي يملك فيه لغة واقية واضحة - ماذا يصنع

نحن إذا جال بنفسه معنى جديد أعياه أن يلتصق له لفظاً أو ألفاظاً يعبر بها عنه ؟ أتراه يحشد الخلق مؤتمراً ويشاورهم في طريقة العبارة عن هذا معنى الجديد الذي جاش به صدره ، ودار بنفسه ، وتعاضله أدائه ؟ أيقول هم قد خطر لي أيها الناس معنى لا أدري كيف أصوره لكم وأتقنه بالألفاظ في رؤوسكم ، فاختاروا له اللفظ الذي يؤديه والكلمة التي تحرجه من مصاربه ؟ أم يقول : قام بنفسى معنى هو كيت وكيت ، ويشرح ما سمعتم من يسألهم لفظاً له ؟ إن كانت الأولى فكيف يعبرون له عن معنى مدهون في صدره لا علم لهم به ؟ أو الثانية فما حاجته إلى لفظ له بعد أن اهتدى في العبارة عنه ؟ لا . لم تنشأ اللغة دفعة واحدة ولا تواضع الناس غير أنفسهم واصطلحوا على كيفية تعليق الكلام بعضها ببعض . وربما حدث ذلك شيئاً فشيئاً ، ومرت باللغة - بكل لغة - أطوار متتى وانتقلت بها لأحول من مرحلة إلى مرحلة حتى صار كما نراها اليوم . وإن أحدهم بكده ذهنه إذا خطر له معنى جديد - أو معنى يحسبه جديداً - حتى يعبر عنه التعبير الذي يسعه طوقه ، فيما وفق في ذلك فحاء كلامه مفهوماً . وإذا أخفق فخرج المعنى ملفوفاً في مثل السباب ، وقد يشكر أحداً نصفاً . يحته فإذا وافق مكان الحاجة إليه استقر في موضعه وسار على أنسنه . ولا سقط ولم يلتقطه قائل أو كاتب غيره . وقد تعمدا أن نقول هذا خط أحسن معنى « يحسبه جديداً » ولنا معنى بذلك أن القدماء سبقوا إلى كل معنى يمكن أن يخطر على البال وأنه لا حديد تحت الشمس ، بل قد يكون أدخل في باب اهراء منه في باب الكلام المعقول . وما يسعنا أن نحترم نفسه وما وهبه الله من المدارك والاشاعر أن يقول هذا . وما ينبغي أن كل معنى حديد ، موند ، من معنى آخر أو معاً أخرى

قديمة أو حديثة اتصل بعضها ببعض في الذهن وتزاوجت وانتهجت هذا
المعنى « الجديد » ، فهو كالابن - مخلوق جديد إلا أنه خلاصة أبوين ،
لا بل سلسلة آباء وأجداد لا يأخذهم إحصاء - إذ ليس من المعقول بقاء
ولا من الممكن ، أن ينشأ في الذهن معنى لا صلة له على الإطلاق بأى
شيء في هذا الذهن ، وقد يعيينا أن نعرف هذه الصلة ويعجزنا الاعجاز
النام أن نتيقن أوهى علاقة بين هذا المعنى الطارئ وبين ما في الذهن غيره
أو ما وجد فيه قبله . ولكن هذا يدل على أى شيء ؟ إنه أولاً لا ينفي أن
هناك صلة وإن كانت قد خفيت علينا ثم هو لا يدل بعد ذلك على أكثر
من أن هناك معانى أو خواطر ، أو ما شئت فسمها ، تختفى فيما وراء
الواعية . وهذا هو الثابت علمياً .

٥٥٥

ويعود إن ما استطرنا عنه ، فقول إن اللغة لا يمكن أن تنشأ إلا بعد
أن يقطع الإنسان مرحلة الاستيحاش المطلق ، أى بعد أن يأتى الناس
معهم إلى عصر ويألفوا أن يجتمعوا . إذ كان الاستفراد لا يحوج الكثر
إلى لغة . ومن يحاطب بها وليس إلى جانبه أحد ولا هو يطبق أن يرى إن
حاله أحداً ؟ ، وهو حال يعيينا أن نتصوره ولا نكاد نعقله ، ولكن اخفق
مهما يكن من الأمر ، أن نشوء لغة ما ، معناه وجود جماعة من الحق
الخاصوا أن يفهموا . ويقول « موكالم » الفرنسي « ليس أعظم وفقاً
واعية الإنسان ولا أكمل سرعة إحداث التفاهم المتبادل ، من الأعمال التي
يرادها عدد من الناس معاً لغاية واحدة ويدافع واحد » وهي كلمة حكيمة
تصدق على القدماء صلغها على اثنين ، وأخلق بالناس - قديماً - وهم
يقضون العيران . أو يقيمون الأكواح ، أو يدرون الحبوب ، أن تتبع سبيلهم
التصور التدريجي الذي تقصى إليه جهودهم المشتركة ، وأن تنتفج نبع
هذا التطور الأصوات أو أنصاف الكلمات التي تنبأ عن شفاههم .

٢٠٠

تتور هذه الأصوات أو أنصاف الكلمات شيئاً فشيئاً حتى نصير العاقل
عليها طابع الجماعة الخاص . وهذا دور لا وجود لفردية التميز فيه .
ونقرب هذا للذهن القارئ فنسأله : ألم تشهد قط جماعة من العمال السائين
أو النوتية أو غيرهم وهم يصورون أثناء تادية عملهم الموكول إليهم ؟ إنه منظر
قل من لم يشهده ، وأكثر ما يراه المرء في القرى النائية عن الخواضر .
هناك يرى المرء طائفة من الناس يعنون ، ويواحد منهم يقودهم : يبدأ
بشطر يرددونه بعده ويعود هو فيرتجل شطراً آخر وثالثاً ورابعاً وهكذا
وهم يكررون ، بعد كل شطر أو بيت ، التريفة الأولى ، ثم بكل هذا
التقائد أو الزعيم فينضم إلى المكررين ويحل محله آخر يمضي في الارتحال
الذي يُعين عليه الوزن وامتلاء النفس به وينغمته ، إلى آخر حدود طاقته ،
وهكذا يتعاقب المرتجلون ثم ينفض القوم وتذهب القصيدة مع الريح .
وهي لا تذهب ، فإنها على كل حال ليست من نظم فرد بل مما أخرجه
الجماعة بعملها المشترك ومجهودها المجتمع . لا يعرف أحد ههنا حقوق
لشائيف ، لأن الفردية لا وجود لها أو ليس وجودها على الأصح بارزاً
موكداً . وإذا كان هذا يحدث في القرن العشرين فما ضحك به قبل مئات
من القرون ؟

م يكن في ذلك الوقت للفردية محل على الإطلاق بل كان م يراه
لواحد يراه الآخرون على مواله ، وما يطق به الواحد يضيق به الجميع
ولا مشاحة في أن شعور الناس يومئذ بأعمالهم هو الأصل في مدركتهم
الأولى التي لم تزال تلج بهم حتى رمزوا لها بالإشارات ثم بالألفاظ ويذهب
ماكس مولر في كتابه « أصل الفكر » إلى أن أصول اشتقاق لغة تعبر
عن الإدراك أو الشعور بالأعمال المكررة التي يكون الإنسان في حياته
كثيراً إليها واعتياداً . يعنى بذلك أن الزمور التي عزموا بها تدل على عمل
مكرر ، مثال ذلك « يعمر » ليس معناها أن يصرب امرء الأرض بالنفث
واحدة بل أن يفعل ذلك مرات كثيرة متعاقبة . كذلك « شعبد »

لا تفيد حرك الحجر بالحجر مرة فقط بل الحرك المستمر . وهكذا : وهذا الشعور يفعل عملي مكرر ، كأنه عمل واحد ، هو أول جراثيم التفكير .

والآن فلنتصور أن الإنسان وفق إلى أصول اللغة كلها واستطاع أن يعبر عما تتناوله مداركه الساذجة ويقع تحت حسه ، وأن أفق حياته أضل يتسع بعد ذلك ، ورقعة مساعيه ترحب ، وأنه أراد أن يؤدي معنى ما يتخالف مما لا يدخل في باب المحسوسات ، فماذا تظنه يصنع ؟ أليس المعقول أن يعتمد إلى لفظ يقرب معناه عما يريد ليعبر به عن هذا الجديد ؟ وهو بعد كما أسلفنا ليس جديداً بالمعنى الصحيح بل مولداً مما في رأسه ومن مجموعة حواسه وإحساساته ومدركاته فالخطوة قصيرة ، أو قل إنها ليست من خوض بحيث تبعد المسافة بين الموجود والمطلوب . نعم إنه لا شك في أن أساس كل رماً طويلاً لا يعرف إلا نوعاً واحداً من الحياة هو حياته . وليس له إلا لغة واحدة هي التي تعبر عن أعماله وحالاته هو ، لكنه صطر بعد ذلك أن يلتفت إلى ظواهر الحياة العامة وإلى ما في الوجود سيرة من القوى ، وأن يعطى حده أسماءها من صفاتها وأثارها ، وأن يعزو إليها ما في حياته هو مقابل له فيقول « طلع النهار » و « زحف الليل » ويثبت نسب إليهما ما يعلم نحن أنهما عاجزان عنه غير مطبقين له ، ولكن . يمكن يستصعب أن يتكلم عن الليل والنهار والسماء والفجر والصيف والشتاء إلى آخر ذلك إلا بأن يجعل لها صفات الفرد ، وأن يجعل منها شيئاً ودكوكاً . ثم اندفع في هذا التمثيل الذي بعثت عليه المشابهة إلى آخر مداه ، وأقصى ثوبه على عالم تحاربه كلها . ولما كان ناس ذلك الذين الأول لا يستعملون إلا ألفاظاً قليلة العدد فقد اضطروا ، كلما أرادوا أن يحاوروا أفق حياتهم اليومية الصعبة ، أن ينقلوا اللفظ عما نشأ له في الأصل إلى غيره مما استعد . وهذا هو أصل المحار الذي لولاه لما تعدت اللغات العناصر الأولى القليلة .

وقد قلنا إن هناك نوعين من المحار ، أولهما وأسفهما في الوجود هـ

اللفظي ، ونعني به نقل اللفظ من معناه الذي يقع تحت الحس إلى المدركات المعنوية . مثال ذلك العضد والساعد كلاهما في الأصل معناه الذراع التي تعمل بها ، فإذا أردت أن تقول إن فلاناً يؤازرك وينصرك ، قلت هو عضدي وساعدي ، وليس هو كذلك في الحقيقة ، ولكنك أردت أن تقول إنه يقوم لك مقام الذراع ويغني غناؤها .

كذلك الضحك ، مثلاً ، معروف . وقد نقله الإنسان فوصف به لطبيعة وقال إن الربيع جاء يضحك ، وأنه ليعلم أنه لا يفعل ذلك غير أنه ألقى شبهاً بين إحساسات السرور والانشرح وبين انتعاش الطبيعة في هذا الفصل فنقل الكلمة للدلالة على هذا .

ومن العيب أن نحاول الاستقصاء في التمثيل لذلك فإنه لا آخر له ، وما من كلمة في اللغة إلا استعملت على المجاز وخرجت عن معانيها الأولى ب معاني شتى متصلة بها . ويكفي القارئ أن يتناول ما شاء من الألفاظ وأن يردّها إلى أصلها وأن يتأمل بعد ذلك في أي معنى تستعمل الآن ليتحقق صحة هذا الكلام .

ولكن الإنسان لم يدع شيئاً من الطبيعة إلا نفث فيه من عواطفه ، وكساه ثوب خواطره ، فتراه مثلاً يجعل الشمس آدمية ويقول إنها مدت ذراعها يعني بذلك أشعتها التي تصل إليه . وليس هذا من طرز المنحاز الذي أسلفنا عليه القول . لأن اليد هنا لم تستعمل في غير موضعها ، ولم تنقل إلى معنى خلاف معانيها الأولى ، كما هو الحال مثلاً حين تقول فلان يدي التي أضرب بها ، بل هو استعمل الذراع في مكانها بعد أن تصور الشمس مخلوقاً مثله . وهذا الضرب من المحاز هو الذي يسميه المحار الشرعي كقول ابن الرومي :

إمام يظل الأسس يعمل نحوه تمت ملهوف وبشتاقه الغد

وإنما نشأ هذا الضرب من المجاز لأن أباينا الأولين كانوا يقيسون حياة
 طبيعة على حياتهم ويتصورونها قائمة على ما تقوم عليه حياتهم من التناسل
 وعيره ، ومن ههنا أتوا الشمس في لغتنا والريح وغيرهما ، وذكروا القمر
 والنجوم . ولنا أن نسأل : أترى كانوا يؤمنون بذلك ويعتقدون أن المسألة
 كما عروا عنها ؟ هل الشمس كانت في نظرهم أنثى والقمر ذكراً - أو
 على العكس كما في بعض اللغات الأخرى - وهل جاءت الشمس والقمر
 بسحوب ولادة كما يتناسل الناس وغيرهم من الحيوان ؟ إن هذا السؤال
 يستدعي أن نخوض عبات الأساطير التي نشأت في اللغات وأن نحمل
 بشوئها . وهو باب واسع من الكلام يضيق عنه هذا المقام . وعندما أر
 الأقدمين لم يكونوا أصعب ذهنًا وأهدى عقلاً وأحكم من أن يعتقدوا ذلك
 ويؤمنوا به . وإن من الناس من يؤمن في عصرنا هذا بما هو أبعد عن
 اعتق من ذلك ، فماذا يجمع أن يكون أباؤنا البسطاء السذج قد آمنوا بأن
 لأمر كما وصفوا والحل على ما تخيلوا ؟ ونخشى أن تلج هذا الباب من
 بحث مخرج عما فصلنا إليه ويمتد بنا نفس الكلام إلى غير غاية . وعلى
 أنه موضوع يستطيع كل امرئ أن يسمت فيه لنفسه سمًا وجيهًا .

الواجب

تلقيت كتابي الأنسة مي - الصحائف ، وظلمات وأشعة - في ساعة
 عصي ! وكنت قد باعدت بيني وبين الأدب وطبقته ثلاثاً . أو على الأصح
 فترت عنه وضعفت عندي بواعثه ثم قلت القضية وعكست المسألة وحمست
 الأدب عيسى وزعمته أصل البلاء والداء العياء وإذن فالتجاء منه النجاء !
 وفي الكتب ، كما في الناس ، المجدود والمحوس ، والموموق من القنوب
 والبغيض إلى النفوس ، وما أصدق قول الرصيف القديم إذ نقلت معناه
 إلى الكتب .

عش بجند فلن يضرك نوك إنما عيش من ترى بالجدود
 وهي تلقى من تصاريف الأيام وانتقال الأحوال مثل ما يلقي كسبه
 وقراؤها - وغير كتابها وقرائها - سواء بسواء ، فكم من كتاب جنيل
 لارمى الخمول فكأنه حين خرج من المطبعة سقط في جب ! وكم من
 مؤلف قيم عبر « هولاكو » على جثته ، وأفاص روحه في وثيته فليس
 الناس وحدهم يموتون ، ولكن هي الكتب أيضاً تحيا وتموت ، وتظن
 أجافاً وتقصّر ، وتبيت جميعة وتصبح مفرقة . وبارب كتاب أحمل آخر
 كما يحمل الرجل الرجل . قد يجنى الفضل على الكتاب حنابته على الإنسان ،
 وتسىء إليه صراحته ، وتكسده رجاحته ، ويقعد به ثقل آرائه المعوصة ،
 وتؤخره دقة أفكاره المحصنة . وأمر أنت في القياس إذا شئت ، وعاكس
 الصورة إذا أحببت ، فلن تلقى فيها إلا طبق الأصل :

وقلت لما تلقيت الكتابين : يا لها من نثرارة ! ونحسب أن الواجب

يفتصى أن أقرأهما وأعنى بتدبرهما ثم أكتب عنهما ؟ لا شك أن هذا هو واجبى - على الأقل فى رأى آتستنا ! فما أثقل الواجب ! وما أعظم شكى فى إخلاص من لا يفتأون يتفتنون بحمده ويشيدون بحسنه وجلاله ! من الذى يحب « الواجب » لذاته ؟ أين هذا الفتان الذى يزاول « الواجب » ويتوخاه إرضاءً لعاطفته الفنية ؟ لست أنا به على كل حال ! وما أظن بتدبى إلا أنه مثلى . وإذا كنا من الأوساط فسييلنا أن يدعنا الاحساس بالواجب إلى مباشرة أعمالنا والقيام بما هو مفروض علينا : وإلى مجابهة المغريات التى تلاقىها فى طريقنا ومقاومة المفاتن . ونحن إذ نفعل ذلك نعرف بالحاجة التى تحمل على النهوض بعبء الواجب ، وبالضرورة التى تحم الأذعان لأمره ، ولكننا لا نحس « الحب » لهذا الواجب وإنما نحس ثقله من القاتحة إلى الخاتمة ! وقد لا نقاوم أو نتهاض - بعنف - غير أننا نرى هذا يود لو أن الأمر لم يكن كذلك ، والخال لم تكن تقتضى ذلك ! ويمتنع أحدنا كتاباً - قبح الله الكتب ! - فيلقى « وردزورث » مثلاً قد نظم فى هذا « الواجب » قصيدة من أجف ما قرض وأصلبه ولبعده من الاقبح ! فلا يصدق - أو أنا على الأقل لا أصدق - أن هذا الشاعر صافحت عيه عتامة على وجه هذه الآهة القاسية ! ويتقل إلى « كانت » فإذا به يقارن الواجب ، فى جلالة وروعته ، بصفحة السماء المجلوة ، ويحد نفسه مكروهاً على الاعتراف بأن هذا الفيلسوف قد يجيش صدره مثل هذه العاطفة الصادقة ، فقد كان . كانت « يرى فى الواجب جللاً ويستشعر له روعة ، ولكن « كانت » و « وردزورث » أبعد عن حد الأوساط وأرفع مستوى من أن يصبح اتحادهما مقياساً عاماً لهذا الناس . وبنت كتب الفلسفة الحديثة هذا هى تعالج أن ترد إليه القدرة على الإحسان بالواجب ، « يقول له إن الواجب يمحى أن يجد كل امرئ ! »

يا ترى ؟ قالوا لأنه مرتبط بالحياة العالية أو هما شئ أحد ! فلما من حيروا هذه الحياة العالية وعرفوها فيعضلونها لا محالة على الحياة الواطية ! نعم إن « الواجب » يتصارع مع المتع واللذائذ التى هى أحط ، ولكن هذا الصراع يفتى فى النهاية ويتطابق الواجب والرغبة .

ونقرأ هذا ، نحن الأوساط ، فلا نرى فيه سوى تلاعب بالألفاظ وشعرة بما لا يفهم . والحق أقول إنى ما استطعت أن أسبق الفلسفة فى بدء من أيام حياتى ! وكثيراً ما اتهمت نفسى بكثافة الدهم وضعف الاستعداد حتى رأيت من يحبون الفلسفة ويعكفون على كتبها يقفون مثل حيوات أمه من لا أفهم من رجالها مثل هجل وشمل من لا يصح بعض كلامهم إلا ليعزم به الزم على الجن .

والرجل من الأوساط محق حين يقول : إذا صار الواجب مظلوماً مروعاً فيه ، فإنه لا يبقى ، واجباً ، لأن الأصل فيه أنه واجب من حيث أنفسنا . وأكثر ما يكون الواجب ، سلبياً أو سلبياً مدعى فى من هذا القالب « لا تفعل كذا » « لا تفعل كذا » « لا تفعل كذا » حتى حين يريد أن لا يعمل إلا طبقاً لما يفرضه الواجب ، لا يكون هذا إلا بشرط أن لا يتردد . ولو أن أحدنا استطاع أن يخلق الذئب على ما يحب وينهى ما يلقى لكلمة « الواجب » أثراً فى معاشنا ، ونعمى سبباً فى وحدتنا من مثل يجب وينهى وما هو إليهم أو منهما يسيل ، وما يلقى سوى « أريد » ، ومنى خرجت « أريد » من القلب فقد اتسع حيزه للواجب ! والواجب يتطلب جهداً ، وطبيعة الحياة تدفع إلى توحى سهل اسفل . وكما أن الماء إذا صادفته فى تخدره الصخور يدور حولها ويختر مجرى فيما هو ألي وأقل استدعاءً للمعالة ، كذلك امرء فى مسوكة فى حياته اليومية يؤثر أن يوفق إلى أقصى السهولة والسلاسة ، وأن يفتى كل جهد متعب .

هذا ، على الأقل ، مطلب . وإن كان الواقع أنه لا سبيل إلى انتفاء الجهود
انتفاء تاماً ، ولكن هناك بوناً عظيماً بين الجهد يبذل حين تكون الرغبات
الأولية معترفاً بها وكل مطلب آخر لا يواجه إلا بالمقاومة والخضوع
الحرى ، وبينه حين تكون القيمة الحقيقية للحياة العالية مدركة تمام
الإدراك . وليس ثم من فضيلة في الخضوع مع النفور والتكره ، كما أنه
لا خير في التعليم الذى يلقاه المرء كارهاً مضطراً . وأخلق بالمرء أن لا يفيد
شيئاً من درس يُلقى عليه إذا كان يقاوم السعى لتعليمه . ومن الذى صار
خيراً بالاضطرار إلى فعل الخير على رغم أنفه ؟ ولو أنك ألزمت ابنك لك
بكرهه أن يجود فى كل صباح على متسول بقرش لما صار بذلك كريماً
ولا رحيماً . ولكان الأرجح أن يكف عن هذا التسخى متى رفعت عنه
يدك التى تقسره على البذل للمساكين . ولا شك أنه يجدر بكل امرئ أن
يقوى فى نفسه عواطف الرحمة ، وأن يث مثلاً فى نفوس الصغار ، ولكن
دع لا يتأتى بالفهم . والألمية الصارحة خير فى النهاية وأقل ضرراً من
الاستمرار على إحراز غير المستعد .

وأكثر ما يكون فعل الواجب ، نزولاً على مقتضيات الجماعة التى
عيش فيها . وأكثر ما يكون الناعث على امتثال أمر الواجب أو التعمد
درج نواحيه . الخوف من الرأى العام وعدم الرغبة فى معارضة مألوف
الجمهور أى أن الناس ، فى الأغلب والأعم ، إنما يؤدون الواجب إحسانه
نهيأ أحسن منهم غريب عنهم ، ولكن الأصل فى الواجب ، تأسي
معايه . أن يكون الداعى إليه من النفس ومن الخارج جميعاً . ويكون
من النفس بمعنى أن لا يفعل امرئ غير ما هو فاعل ولو انعمت الدنيا كلها
على خلاف ذلك . ويكون من الخارج لأن هناك دحلاً لما هو فوق إلا أنه
المرئيه والرغبة الشخصية . على هذا لا يكون « الواجب » حراً .

محبواً إلا باعتبار هذا العامل الخارجى ومبلغ بعده عن النفس أو قربه منها
وقابليته للتطابق مع رغباتها . وعلى أنه مهما بلغ من مسايرة لنفسه ،
بطل واجباً . وكفى بهذا إشعاراً لها بسلطان عامل أجنبي حتى حين يطيعه
وهو جذل ، كما أفعل الآن .

• • •

كذلك كنت أحدث نفسي قبل أن أفرض الغلاف عن الكتلين . وقد
مضت على ذلك أسابيع كنت أقدر أن تكون كلها معاناةً للاحساس حرة
لأذعان لعامل أو باعث من غير النفس . ولكنى ما كادت أضحهم وأفر
من هذا فضلاً ومن ذاك صفحة حتى شعرت كأن الواجب قد استحوذ
رغبة . وزايلنى اتقياضى عن الأدب .

الكتب والخلود

ماذا يصنع أحدنا إذا قدمت له صحيفة فيها طعام هذا أو عنبه نه ؟ قد يكون هذا اللون الجديد الذي يطاف به عليه أشهى ما ذاق أو يذوق في حياته . ولكن جهله به حقيق أن يكون مدعاة للتثريب . فتراه يود برميح من إنسان كيف طعمه ؟ وما هو ؟ ومن أى شيء ركب ؟ ليظلمش ويغش عليه آمناً واثقاً من التذاذذ حامعاً بين متعة الخيال وحسن الحقيقة . نه هو - حتى بعد أن يسمع ما ينفي قلقه - لا يملك إلا أن ينظر إليه ويحدق فيه من قريب ومن بعيد : ويمد إليه يده ، ولكن فى إشفاق . ولا يتناول ويأكل كما يفعل المجرب العارف بما ينتظر ، بل يقلبه ويقدم ويؤخر . فعن الفاحص المتقصي ، ويحمل إلى فمه ليسير من هنا وهناك فى حذر وثابة ، ويحرص أن لا يتجاوز النزر الذى لا يملأ الفم ، ثم يلوكه ويتذوقه ، وعيه ثالثة الحملاق ، وعلى وجهه سمات التفكير ، حتى إذا اضمأ مضى ..

كذلك أرائى مع الجديد من الكتب : أخشى التعية وأحاف إصاعة وقت فيما لا طائل تحته ولا محصول وراءه ، أو فيما هو شر من ذلك . ورو أنى لم أكن قرأت شيئاً ما تهيبت جديد . ولا شغقت أن يفسد عى نة قديمة أفدننا . ولكن إنفى للجيد من براعات الكتاب وأشعرء يدعى أن اض بها أن أنقص على نفسى متعتها بهذا الحديد الذى لا أدريه كيف يكون .

ولا يتعمل القارئ فيحسب أنى أكثر القديم لأنه قديم ، ومقت الحديد

أنه جديد ، فما لهذا محل في نظري . وليس من فضل أحدنا أن يتقدم به الزمن أو يتأخر . وقد أتورد في قراءة الكتاب مضي على موت صاحبه مئات من السنين لأنه يكون جديداً بالقياس إلى وإن كان قديماً من حيث عمره في هذه الدنيا . ومع ذلك هبني كنت أؤثر كل قديم على كل جديد . صدق ؟ من الذي يستطيع أن يتجرد من المودات والخصومات وما إلى ذلك وأن يُنصف معاصراً له الإنصاف الواجب ؟ من الذي يسهل أن يكون عري يعني جازم من أن الزمن سيؤيد رأيه في معاصره بعد عشرة أعوام أو عشرين أو مائة ؟ كتابك يا معاصري بديع رائع . أعترف بذلك ولا أنكره . ولكن أنفك الضخم يجعل شكلك مرذولاً أو مضحكاً ، فتقل روعة أنت وحسنها كلما تصورت هذا الأنف الذي ركب على وجهك ، وليس يسعني إلا أن أتصوره وأحضره أمام عيني . وهذا الكاتب الآخر . حر فاضل عظيم المواهب ولكنه صريح جريء يتفخم على الناس بآرائه فيهم ولا يبالي من رضى من منسخط منهم ، وأنا من الساخطين أو المزاحمين له في مبادئه . فليس يروقني أن أرى كلامه مطبوعاً . ولا سبيل إلى شيء من هذا وأشباهه حين تناول كتاباً عليه جلال القدم وبُعْدُ عن عصره بكل ما فيه من الجلائل والصفائر .

وكما كتبنا نحرجه المطابع في العام لا بل في الأسبوع أو اليوم ؟ ليكن محصول المطابع أو ثمراتها - إن صح هذا التعبير - كثيراً أو قليلاً . ما من مث في أن ما نحرجه في اليوم أكثر مما يسع أشهر الناس أن يقرأ في يوم . وما أكثر ما نلطف ونحسر لأن الوقت أضيق من أن ينسج لقرءه . ما بود أن يقرأ من ما لا تصطره المشاغل أو الملل أو غير هذا . وذلك إن صي شباب يريد أن يلتهمهم ، أو إلى الاكتفاء بواحد من مئات

بل من منا لم يخطر له خاطر لم يجد وقتاً لتفسيده . ثم كبرت الأيام واستسرى الخاطر في ظلام النسيان ، فكأنه ما مر بالذهن ؟

والزمن ماضٍ لا يثقل رجله ولا يتوقف . والمطابع دائرة لا تكف عن إخراج الكتب ولا تبالي أقرأها كل شرائها ، أم أهملوها على رفوفهم ، ورد كان الناس اليوم لا يقدرّون أن يقرأوا كل ما يكتب فأحر بهم أن يكونوا في مقبل الأيام أعجز !

فكرت في ذلك حين وردي كتاباً الآسفة مي وقبل أن أقرأها . ودرت في نفسي هذه الخواطر وأنا أنامل غلافهما وورقهما ، وتحتت عني المطابع . فوثب بي الخيال إلى جبل أوليمبيا^(١) أو طاربي إليه . وتصورت المخلدين من الكتاب والشعراء على قممه وسفوحه وفي محاوره . وقد عني بهم وشرق بجموعهم الوافدة عليه من كل أمة . فأدركني العصف عبيد والمريثة لحالم ولما يعانونه من الضيق والكرب . وتراءى لي كأنهم ضاقوا صدرًا بهذا الحال فحشدوا أنفسهم مؤتمراً ونام فيهم الحضاء يشرحون الآمهم ومتاعبهم ويفصلون أسبابها . ويصفون العلاج . ويطرحون الاقتراحات ، وكأنني أسمعهم يذكررون من أسباب هذا الرحام الذي لم يعد يطاق ، فشؤ التزيف في مؤهلات الخلود ، وانتشار المطابع والصحف عن ظهر الأرض التي لا تزال تتبعهم مصائبها ، ويقولون إن الصحف دأبها أن تفرط وتمدح وأنها قلما تعني بالنظية والسفد . أو تكثرت للتصوير بين الجيد والبدى ، حتى احترأ الضعفاء واعتز الأدعياء . ورادت الكتب بأنواعها حتى عن حاجة الأسواق ! وحتى صار كل امرئ بعد موته يثنى

(١) هو جبل يقول القدماء إن الحالمين يعيشون عليه بعد موتهم

إلى الجبل ومعه حمل يعبر من شهادات الصحف ! فكثير بين الخالدين
يواعلون ومن لا يستحقون إلا النار طعاماً لما سَوَدُوا من ورق ! وأصيب
سكاد الحب بغلاء الآكل والاشربيات الأولمبية غلاءً فاحشاً مزعجاً يهدد
بحدوث قحط عام !

ثم بدا لي كأنما أجرى الانتخاب لتأليف لجنة تتولى التحقيق ويوكل
إليها أن تراجع مؤهلات كل من في الجبل للتثبت والتحقق من أنه أهل
للخلود ، وإعلان كل ساكن بإبراز أوراق اعتماده والمستندات التي يثبت
بها حقه ، مخافة أن تكون الأغراض الشخصية قد فعلت فعلها وحشرت
بين الخالدين من لا يستحقون إلا جحيم تارتاروس التي يقذف فيها
العاصين !

ثم أفقت من هذا الحلم ، وابتسمت ، وتناولت الصحائف وأنا أسأل
نفسى : ترى غداً كيف يكون حظ كاتبك ؟ ليس في مصر من لا يشهد
بما يبرعه ، وما من صحيفة إلا وهي تنسى عليها ، فهل تكفى هذه الشهادات
سكى عن حمل أولمبيا ؟ وفتحت الكتاب لعل أهنئ إلى رأى تسكى
إليه نفسى فقرأت فيه :

« من الكتاب من هو منحصرٌ جلسات ، مدون وقائع . ومنهم « كولب »
حاذٍ لاقتحام بحار وركوب الأخطار واكتشاف عوالم مجهولة . »

وهذا صحيح . والزم من يؤخر الملخص والمندوب ويخملهم ، ولا يقدم
ويضع تاج الحديد إلا على مفارق من يكونون في عالم الأدب ما كان
« كولب » في عالم الارتداد .

وقد عهدنا لمن لا يرجو ، لا يعرف وسطاً ، فيما النبوع فالخلود .

من الشعر العربي ، ولكنا مع ذلك نخيل انقضى عن حمية من لزومي
التي قالها لما قُتل يحيى بن عمر بن حسين بن يزيد بن علي . ومطعمها :
أمامك فانظر : أى نهجيك تنهج طريقنا شتى . ستمم وأبوح
وفيها يصف طغيان العباسيين وضلالهم في امتك بالعلوير . مستهكم
وضعفهم إلى حدٍ استباح لنفسه معه أن يقول « لرجالهم » :
فلا تجلسوا وسط المجالس « خسرا »

ولا تركبوا إلا ركائب . تخرج .

فإنه في هذه القصيدة يُشرف على ضمية من مرقب عال يرفع إليه حزن
بقوة روحه وسمو نظراته ، وهو يشعر بمطلع القصيدة أن قتل أبي الحسين
هذا قد أثار مسألة تقتضى الفصل ، وبرسم لك طرفي ضلال وأبرح .
ويهيئ إحساسك الأدبي بالتمرد على الانكاس الحلقى الذى أغشاه به
لقصيدة . ولولا أن المقدم يضيئ عن ذلك لأوردنا القصيدة كتب عن النبوة
ولتناولناها بيتاً بيتاً .

وغير منكور أن الموضوع الجدى يسمو بنفسه ويساعد الشاعر الذى
يتناوله . وليس الحال كذلك حين يعالج الشاعر انكساره وأنت حين تحاذ
قد لا يشق عليك أن تخلق ، ولكنك حين نحج إلى انكساره لا يبرأ من
السهل أن تحافظ على الاستواء الواحد ، وأن تتقى الهبوط . ربح
الاهاجة ، وتكبح عواطفك ، وترحى العنان بعقلك وأن تنيع حمار في
موضوعك لتسد نقصه وتملأ فراغه وتعوض تمهه ، ومن هنا فلما إن عاية
المكاهمة هي أقصى ما هو مقدور للإسك . يعون بدت انحرار من تأثير
المواطف العبيقة ، والقدرة على التأمل في مسكون واضمندر ، والظفر إلى
ما يقع ، لا إلى القدر أو الحظ أو الاتفاق ، ومع احماقات والسحافات
والمناقضات اجساماً رضية .

الطبيعة عند القدماء والمحدثين

يقول « ريندو مجرد » في مقدمة رواية له اسمها « ألان كواترمين » :
 « وإذا نزلت بأحلبنا نازلةً عثرت وجهه ، خللته المدنية وعجرت عن
 الترفيه عنه ، فيميل عنها ويستلقى « كالطفل » على صدر ضيعة أحسن .
 عليها تنسيه بثه أو تسلب الذكرى ألمها ولدعها . ومن ذا بدى ، يستقر .
 وقد تأوخته المموم ، أن يجتلى وجه أمنا جميعاً ، وأن يجتهد حين .
 أو يرقب قطع الغمام تسبح في الفضاء ، أو يصمى بر تهيم دموع
 وتكسرهما على الشيطان - عسى تمتزج حياته نجاتها - وأن يحس دقات
 قلبها الأبدى ونبض عروقها البطيء وأن يسي أشحانه في أشجار الضيعة .
 ويدخ شخصيته تغيب في حركتها الدائمة العظيمة التي لا يدركها حس
 ولا يتولاها شعور ، وأن يفنى فيما منه كنا وإليه نعود » .

وكن من تعجبهم أو لا تعجبهم « دقات قلب » ضيعة و « عروقها »
 ووصف صدرها « بالحناء » فإن كلام الرجل صادق على علانه
 وليس من شك في أن امرء تمر به ساعة تحرك فيها الطبيعة نفسه
 وتحبشها ، وأن هذا قد لا يكون سبب أنها تدخل السرور على نفسه وتفتح
 عقله وذوقه ، فقد يكون الأمر على خلاف ذلك ويقصه . ويسمى
 بالطبيعة الجبال والأودية والسماء والبحار وحده بل الأصغر أيضاً وريف
 وآثار العصور الأولى ، أو بعبارة أعم وأشمل : البساطة التي لم يعد عليها
 الفن ، أو الوجود في ذاته وبكل حرته .

كذلك يصطلمن أمواج العواطف في صدورنا حين نشهد الأصد .

وأحسب أن ليس هذا لأننا نصوب إليهم ، ونلقى عليهم ، نظرة من سماء قوتنا ونضوجنا ! أو لأن العطف يدركنا عليهم ، والمثنية تشيع في نفوسنا لهم ، بل لأننا نرفع ، إلى استعدادهم وطهرهم ، نظرنا من أعماق أعماق صعدنا مرتبطاً بها صرباً إليه من حالة الحديد ، فإن الطفل كله استعداد ، أما الرجل فمعنى تام ، والأول قوة حرة نقية ، وهذه مغلوطة مشوبة مرتقة . ولا نحتاج أن نقول إن هذا الإحساس الذى يخالجتنا حين تجتلى الطبيعة وتأمل بساطتها لا دخل فيه للشعور الفنى ولا للأشياء نفسها ، إذ ماذا فى رهبة أو حذر أو عصور بعد ؟ إنها ليست هى ذاتها التى تثير فى نفوسنا عواطفها ، بل ما هو وراءها : أى الحياة وعملها الباطن أو الوجود الحر فى صلبه . ومن هنا تمثل الطبيعة طفولتنا الذاهبة الخيبية إلينا العزيرة علينا أبداً .

وكالأطفال ، الرجال الذين يظنون ، على الرغم من نضوجهم ، كمدحهم ، أصل القنوب أنواراً يفكرون أو يعملون على نحو بسيط ساذج فى هذه الحياة المكثوفة بالتكلف . وينسون أنهم فى عالم قاسد موبوء . ويذيعون حولهم كأنفاس الرياض ، وينفثون الشجاعة والثقة والقوة ، ويصرمون فى الأفئدة ما تخمد عواصف الحياة :

ولكن السماء كانوا يتوجهون إلى الطبيعة بروح غير روحنا نحن أبناء سبيل . فقد كانوا يعيشون فى ظلها . وكانت لدنث أساليب تفكيرهم وشعورهم وإحساسهم . قرب إلى ساسها ما نحن الدين لم يبق لنا من سسها . إلا غضبة . وهذا كان شعورهم مرآة يحتل فى صقلها هذا تشدب . أنه إن شئت فقل تشدق . وكان شعورهم أدق ما وأعظم أمانة فى وصف طبيعة . وقد لا يبلغ يد فناء إهم لم يخبروا بمنحوتهم من عابيتهم أكثر مما يحسون عيها . أو إهم لم يكنوا يفرقون بينها أى

بين الموجود بذاته - وبين ما هو مدين بوجوده لإرادة الإنسان وفنه من مثل سيف أو درع أو سهم . هذه وتلك كلها كانت سواء لا تستغرق نتيجة الفن من التفاتهم أقل مما تستغرق الشجرة أو الحيرة أو الرعد . وعلى القارئ يعجب ويحسب هذا إما خلطاً منهم وعجزاً عن التمييز . وإما خلطاً منا وتخطئاً فى التقرير . ولكن الأمر ليس فيه ما يعث على العجب أو يغرى بإساءة الظن بهم أو بنا . فقد كانت حياتهم وحياة الطبيعة شيئاً واحداً أو مختزتين . والمرء إذا ألف شيئاً لم يكن حقيقاً أن يسترعى به أو يجتذب التفاته الخاص ، ومن اعتاد أن يسكن البيوت العالية التى يعرج إليها على سلاسل ، كان خليقاً أن لا يستغرب أن تكون البيوت كلها كذلك ولم يجر فى هذا ما يدعو إلى طول التحدث به والعجب له . وإنما يعجب ويصدم ويحس ما يلفته حين تطلأ قدمه عتبة بيت لا يرفعه عن الأرض سلم وليس له إلا طبقة واحدة .

وقد كان الإنسان محور الوجود فى تلك الأزمان الغائرة . وكان ههنا يقيسون كل حياة على حياته ، ولا يتصورونها إلا على مثاله . فالحياة الطبيعية وعزوا إليها مثل إرادة الإنسان وأعماله ، وجردوها من صفة الضرورة الساكنة التى تروغنا اليوم وتجنينا . ولم يكن خيالهم يجوب أرجاء الطبيعة إلا ليتخطاها ويجاوزها إلى رواية الحياة الإنسانية ووقائعها وما يحرق فيها من الصروف والغير على تنوعها . وكانوا ، عفا الله عنهم ، لا يتخرجون من إطلاق العنان لخيالهم ، أو لا يسمعون إلا ذلك ، فلا يأحدون عليه مذهبه أو يحولون دون متوجهه خوفاً من الزلل واشتقاقاً من الغار ، وكانوا من الساطة بحيث يصدق الواحد منهم ما يخترعه خياله . ومن أسدحه بحيث يقيسون كما أسلفنا - حياة الوجود على حياة الحيوان ويرومونها قائمة مثل حياتهم على التنازل ويعبرون إليها من المظاهر شبه ما يحتنون فى معيشتهم ، ولا يزهونها عما يقع لهم من الحالات .

ولسنا اليوم كذلك . وإننا لأسمى من الأقدمين مداركاً ، وأوسع آفاقاً . وأعظم إحلالاً للطبيعة ونسبي ضراً إليها وأشد تعلقاً بها وأقدر على إحساسها والتمسك إليها وإدراك حقيقتها والتأثر بطواهرها . لأننا لم نعد نحتليها في الإنسان أو نواجه بساطتها إلا خارج الدائرة البشرية ، إذ كنا قد صيرنا أقل من الأقدمين تطابقاً مع الطبيعة ، وأشد بعداً عنها ، ومعارضة لها في أساليب حياتنا وعلاقاتنا وأداسا . فهل عجب بعد هذا ، إذا استيقظت في نفس أحدنا غريزة الصدق ونساطة ، أن يصبوا إلى الطفولة ويحن إلى سذاجتها وهي كل ما بقي لنا من يساطة الطبيعة ؟

وكان قوام الحياة في العصور الأولى الإحساس ، لا الفكر ولا الفن ، حتى أديانهم وعقائدهم كانت مما أتتجه الروح الساذجة والخيال المرح ، ولم تكن عيونهم تخطي الطبيعة في الإنسان ، فلم يدهشوا لها ولم ترعهم . وكما أعظم ما إحساساً وأقوى شعوراً بإسائيتهم فتعلقوا بها وأدنوا منها كل ما عداها . وأين نحن من هذا الإحساس ؟ أترانا نعانى إحساساً ألحاً من السخط على ما حرسناه من الحياة ، وارعة في الفرار من جثومها على صدر واحدنا بالمتحقق ؟ أم نعد كأنريض الذي يشواق الصحة ؟ أما هم فكانوا أصحاء معين في أديانهم وأرواحهم فلم يعانون لجاجة الحنين إلى الصحة والنزاع إلى العافية .

وكما بعد الإنسان عن الطبيعة كان أحسن بها وأصلى إليها ، وكانت فكرتها أقرب في ذهنه ، وصورتها أغلق يحاطره . وأضت فكرة وعرضنا ، ولست نجد في كلام القدماء ما تراه في الحديث من الإطالة والاعراق وصف الخصية . ذكر السفة . في في هذا مثال الذي سبقه لك من كلام الأنسة « مي » عن نهر الصفا :

« هنا سالت صوّر الكون الهولية وذلت ذوات الأثير ، هنا اجتمعت

لابل أرفيوس لتعيد ذكرى أوريديس ذات القلب الكبير ، هنا تنهدت العطور تنهداتها الغرامية وتحوّلت الورود إلى أشعة سحرية هنا اغسل قوس قزح فترك في الماء من ألوانه ألحاناً فضية ، ومن دماء الأحلام المتحمدة استخرج قوس قزح ألوانه السمردية ، هنا بعث الأفق بأسرره في لأرص مع خيوط من الأثير ذهبية ، هنا قامت الأشباح بين أجفان بنات المياه فامتزج النور بالظلام وتلاشت اليقظة بالمنام ، هنا ناحت حمام الشعر وغنت أطياف الأنعام ، هنا لثمت النسيم شوقاً وهيام ، ومداعبة المدححة مسيحة تبادل نظرة ابتسام ، وجمود الشاطئ حقدً على فتور العين ومعاكست الأيام ، هنا ارتعاش الأوراق على الغصون تحية همت من مقل كوكب وسلام ، وتمائل الأفان ودلالتها نجوى ملك الوحي والإلهام ، هنا لبثت نور وفجر ظلام ، وألغاز ملامس وألوان وأنعام ، حينما يمر الحجر على قمة نبال يرى صورته في هذه المرآة البلورية - يرى رمز الشبية مع ما يتبعها من الآمال النضرة كالأزهار ، والميول المتقلبة كالأضبار ، ثم يأتي العروب ساكباً في أعماقها مرارة أحزانه ، مع ما يرافقها من الضفوف المنحوية ، والابتسامات المتغيبية ، والجباه الكثيبة ، والشفاة المتحركة بالصوت . الساكنة بالتأملات » .

ولو رجل من عصر هومر ، أو قبله ، عرض له ذكر هذا النهر ، ما ساورته كل هذه الخيالات ، ولا أحس الدافع إلى الاستقصاء ، كأنه لن يفوته شيء ، ولا أخذته هذه الرقة ! ولما ألقى إليث إلا الكلمة أو الجملة بسيطة مشتعلة بخرارة الإلهام ، وفي ررانة وتؤدة ، وإن كان لأرحح من احتمال أن لا يريد على أن يقول : نهر الصفا الذي يجري عند سفح لجبل الفلاتي » .

وسنزيد هذا توضيحاً وتمثل له من الشعر القديم والحديث .

القدماء والمحدثون

البساطة من مظاهر الصحة والاستقامة في الاحساس والنظر . نخذ لذلك مثلاً : طفل يسمع من أبيه أن حارّه ، فلاماً ، أشفى على موت جوعاً ، فلا يكاد يعلم ذلك حتى يعتمد إلى مال أبيه فيقبض منه قميصه ويذهب بها إلى الجار المتضور . فهذه بساطة في الإحساس ، ثم عن صحة في الطبيعة ، وسلامة في العطرة ، واستقامة في النظر . لأن الطفل هنا لم يتمثل لخاطره سوى أمرين : يؤس الجار ، ويسرع طريقة لإقناعه من ميتة الجوع الشنيعة . ولم يخطر له أن في هذه وسيلة سيئة منه حين مات ، وأن هذا الحق ليس قائماً على الطبيعة وحده . وأنه يسمح باليموت من شاء جوعاً ، على حين يضم جاره بالتخمة ... !

وقد يكون فيما أتاه هذا الصبي ما يُسحط أده . ويشير ثثرته . ولكن لأب على الرغم من غضبه وحزنه على ماله ، لا يملك إلا الاعتناء به . ويذكر مرويته ، وصدق عاطفته وغرارتها ، وإلا الشعور بحره عن إقناعه بأن في عمله هذا عيباً أو خطأ أو منكراً .

كذلك عظماء الدنيا يمتازون بالبساطة ، ولا يعرفون هذه الأصول المستحدثة التي هي كالأسناد للضعف . وهم كأقصدال في عمل توصيهم في غير ذلة ، وفي بعدهم عن أدب الرياء . وبراءتهم من المكر والنداء ، وفي إخلاصهم لطبيعتهم وميوهم ، وفي جهلهم سر نفوسهم ، وفي حزنهم من احداة أو استواء لفق عنهم ، إذ لا علم لهم بمحارف طريق مدى تدعيم الطبيعة فيه .

والسساطة في أسلوب التفكير ، تؤدي لا محالة كما لا يحصى - إلى

سماطة في العبارة ، ولست بواجد في عظماء الأدب وفحولتهم تلك الهداية التي يتحراها العلماء ، لاحتساب الأخطاء وتصفية الألفاظ والمعاني ، يسكنها في نار انشلق والحو ، وملاحظه القارئ التفكير فيه حتى لا يصادمه أو يتعمه شيء . كلا ! لا شيء من هذا ، وإنما يلقي إليك المطبوع ما يحظر به في عبارة حرة قوية ، فلا تكاد ترى الرمز الذي وضعه لمعناه ، وإنما يحصر أو تحس المعنى عربياً سافراً ، لا يطويه شيء ، ولا يحجب حسنه أو قوته عن عقلك وقلبك حجاباً من التكلف والأناقة .

والآن فلنسلق لك الأمثال لتوضح ما نعني . وستورد أولاهما من هومر ، كان قوله من تعرف من اتخذ إلينا كلامهم أو شيء منه . وهنا ينبغي أن نلاحظ أن هذا في مقام المفاضلة بين قديم وحديث ، أو غربي وشرفي ، فإلى شيء من هذا نقصد ، وإنما غايته أن نبين بعض ما يختلف فيه قديم عن حديث ، من حيث الروح ووجهة النظر ، وأسلوب تناول

من لا . ولم أكن أطيق صبراً على هومر في أول عهدي بالأدب ، وكان ينفري من . سمعته ، جدازه ، وأنه يقف من موضوعه موقف القضاة ، لا يدينه بل لا يعيه مما يحكي شيء ، وأنه يترث ، أو يمسك ، حيث تحس الحاجة إلى الاتصال ، أو يمضي على مسنه ، حين يطيب لي أن أقف فأكبر ، أعجب ، وأنه لا يظهر في شعره ، بل يتوارى وراءه ، ولا يحدثنا عن نفسه أو يحلوها علينا . فكان شعره بيت في ثرى الأدب بفعل الحبر ولم يحجر به لسان إنسان !

ويعرف من قرأ هومر أن في الكتاب السادس من إليادته حادثة رائعة . يقصها الشاعر بحفوة المعهودة ، وبروده المألوف ، وذلك حين يلتقي جلوكوس وديوميد في ميدان الحرب ، فيهما بالتناحر ، حتى إذا عرفا

أنهما كانا فيما سبق مضيقاً وضيقاً ، ألقيا السلاح وتبادلا التحايا والهدايا . وذلك إن ديوميد يعرف من كلام جلوكوس خصمه ، أن جلوكوس هذا كان من عهد أبويهما صديق أسرته ومضيفها ، فيعرز رمحاً في الأرض ، ويقبل على خصمه بخادته ، ويتفقا على أن يجتنب كل منهما صاحبه . وماذا يقول هومر في هذا الورع الذي يستعرق النفس حتى في ساحة القتال إكباراً لكرم الضيافة ، وحفظاً لحقوقها ؟ لا شيء ! حتى ولا كلمة واحدة ! بل يدع الحادث ينطق بنفسه ، ويكشف عما انطوى عليه من معاني النبيل وسمو النفس ، ولا يزيد على أن يقول (ونحن ننقل من ترجمة بوب الشاعر الانجليزي) على لسان ديوميد :

« فأتانا مضيفك الأمين في أرجوس ، وكذلك أنت مضيفي في ليسيا ، حين أزور تلك البلاد . وللتحاش أن تلتقي رماحنا في ساحة الحرب . أو ليس ثم من أثناء طروادة من أقتلهم غيرك حين يرسلهم إلى إله وتبليعيهم خطاي ؟ وأنت يا جلوكوس ، أليس يكفيك من تلقى من الآشين لتصحى بهم حين تشاء ؟ فلتبادل سلاحنا ليرى الناس كذلك أننا بباهي بأن كما صوباً ومضيفين على عهد آبائنا » . كذلك تكلمنا ثم نزلنا عن مركبيهما ، ونصافقا وأقسما على الولاء والاخاء » .

بقرأ أحدنا هذا فيود لو نعمل هنا هتية ليطوى الكتاب ويتندر ويقف حواطره وينشئها إلى نفسه وعصره ، ولكن هومر جليد بسوق قصصه ولا يعلق عليها ، ولا يكاد يفرغ من هذه الحادثة حتى يحرك في سماطة أن ابن ساترون (زحل) أعمى جلوكوس الذي تبادل السلاح مع ديوميد وأعطاها أسلحة ذهبية تساوي مائة نور وأحد منه سلاحاً لا يساوي إلا تسعة

اقرأ بعد هذا قصة الفارسيين المتزاحمين على قلبه « أنجليكا » كما رواها « أريوستو » في الفصل الأول من « أورلندو فيور بوزو » وهي حكاية ليست دون حكاية هومر دلالة على النخوة ونبل النفس وشرف الفروسية . وخلصتها أن الفارسيين فيرجوس ، وهو مغربي مسلم ، وريئالدو المسيحي ، كانا متنافسين على فتاة ، اسمها أنجليكا ، وكانت قد فرت ، فبعد أن اقتتلا ما شاءا ومزق كل منهما جلد مزاحمه ما استطاع ، تصافحا وامتطيا جوادا واحدا وذهبا يعدوان به في إثر أنجليكا .

ولكن أريوستو كان يعيش في عصر أحدث من عصر هومر ، ولم يكن لتلك البساطة الأولى وجود في زمنه ، فوفقت القصة من نفس راويها الشاعر وقعها من نفوسنا نحن القراء ، وأكبر فيها تغلب الاحساس الأدبي على العاطفة الجامحة ، ولم يستطع أن يخفي إعجابه ويكتمه ، كما فعل هومر ، فبرز من وراء المسرح وترك موضوعه وعقب عليه بقوله .

« ما أثبل الفروسية القديمة وأكرم عاداتها ! إن هذين المتزاحمين كان يعصهما الدين وكان كيانهما يكابد مرارة الألم الناشئ عن عراقك قاس . فانمهما الآن يركبان معا في طريق مظلم معوج دون أن تخالغ أحدهما رية ! ويعدو الحوادئ نستحثه أرجلهما الأربع حتى يبلغ بهما مفترق الطرق ! » .

وكهرمر ، شكسبير إلى حد كبير ، وإن فصلتهما هوة عميقة من الزمن . هذا أيضا يتناول موضوعه كما يتناول الحراح المبضع ولا يتحرج ، مذاع من البرقة وطاوة النفس وسقم الدوق ، أن يمرح ، حتى في أشحى المواقف كما في هملت ، ويمرحها بهراء مجنون كما في رواية الملك لير ومن من الناس يقرأ هملت ولا يستوفقه ، في فاتحة الفصل الخامس ، مراح

حفارى القبور وهم يعدون القبر ليتلمأ على أوفيليا ، ويغنون ويدكرون الحب وحلاوته ، والصبي ورونقه وهم يعملون الناس ويرمون الجماجم ! ويسأل هملت أحدهم :

هملت : لأى رجل تحفر هذا القبر ؟

الحفار : لا لرجل يا سيدى .

هملت : لأى امرأة إذن ؟

الحفار : ولا لامرأة !

هملت : من الذى سيُدفن فيه ؟

الحفار : كانت امرأة يا سيدى ، ولكنها ، رحمها الله ، ماتت !

ثم يسأل هملت : كم لك فى هذه الصاعقة ؟

الحفار : زاولت هذا العمل فى نفس اليوم الذى تغلب فيه ملك الأخير . هملت ، على فورتنبراس .

هملت : منذ كم هذا ؟

الحفار : ألا تدري أنت ؟ إن كل مجنون يعرف هذا ! إنه نفس اليوم الذى ولد فيه هملت الصغير اذى جُن وأرسل إلى إنجلترا

هملت : ولماذا أرسل إلى إنجلترا ؟

الحفار : لماذا ؟ لأنه مجنون ! سيثوب إليه عقله هناك . فإذا لم يثب ، فليس فى هذا بأس هناك .

هملت : لماذا ؟

الحفار : لن يلاحظ هذا لأن الناس هناك مثله جنونا !

هملت : وكيف جن ؟

الحفار : بشكل عريب على ما يقولون .

هملت : كيف ؟

الحفار : بأن فقد عقله !

هملت : كم يضل الرجل في حروف الأرض قبل أن يبل ؟

حفر : إذا لم يكن قد بلى قبل أن يموت ! فإنه ترد علينا في هذه الأيام جثث كثيرة مجدرة لا تكاد تحمل الدفن - فإنه يظل حوالى ثمانية أعوام أو تسعة ، والدباغ يمكث تسعة .

هممت . ونادى يمكث أكثر من سواه ؟

الحفار : لأن جلده يا سيدى تدبغه ممارسته لصناعته فيبقى زمناً لا ينفذ الماء منه . والماء يا سيدى معفنٌ شديد لجسمك الميت الحقيق . هذه حممة لقد ظلت في حروف الأرض ثلاثاً وعشرين سنة .

هملت : جمجمة من هذه ؟

الحفار : ابن خنثى مجنون ! من تظنه ؟

هملت : لا أدري !

الحفار : يا للطاعون لهذا الوغد المجنون ! لقد صلب على رأسى مرة راحة من سيدى كبرى هذه الحممة يا سيدى كانت ليورك مضحك الملك .

منظر قاس ! ولكن الشاعر أعظم وفاء وأصدق من أن تأخذه رقة

أو تنطرى نفسه فيموره الطبيعة الإنسانية . وهذه أبيات لابن الرومى يلقى فيها أوسط أولاده الصغار .

أقرة عيني لو فدى الحى ميت
كأننى ما استمتعت منك بضمة
الأم لما أبدى عليك من الأسى
محمد ما شئى تؤهم سلوة
أرى أخريك الباقيين فإبما
إذا لعبا فى ملعب لك لذعا
فما فيهما لى سلوة ، بل حرازة
والأبيات الثلاثة الأخيرة هي المقصودة . وأخلق بغير الطبع أن يشعر بما يكبحه عن الاعراب عن هذا الجانب من عاطفة حرة ، ويحسنى أن يوصم بالقسوة والتوحش . وابن الرومى لا يجتزئ بهذا بل يمر به إن بقاء ولديه لا يعزيه عن فقد ثالثهما ولا يسد الحلة لشيء أحسن . ويعبر ذلك بقوله :

وأولادنا مثل الجوارح أيها
لكل مكان لا يسد اختلاله
هل العين بعد السمع تكفى مكانه
فقدناه كان القاجع العين فقد
مكان أخيه من جزوع ولا جلد
أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى

جيئة وذهوب

الحركة مبنية على التغير قائمة على التحول ، تستطيع أن تلخص حركتها في أنها جيئة وذهوب . ولا تخش أن نركض بك بين وعوث الفلسفة ووعور ما وراء المادة ، فأنا أشد حرصاً على اعتناقنا أن تدق من أن نعلم فيها ، وأعظم جهلاً بمسالكها ومخارمها ومدخلها ومخارجها من أن نفكر في اعتسافها . وما خامرنا الطمع يوماً أن نقيس بمساطر عقولنا المحدودة هذه المجاهل اللانهائية التي يأتي اللحظ أن يمدد فيها ويستهل القلب أن يتعرفها .

إذن ماذا نريد أن نقول ؟ لا شيء سوى أننا نجى إلى هذه الدنيا من حيث لا نعلم ، ثم نحس أننا جئنا إليها وصرنا فيها ، ثم نمضى عنها ولا ندري أننا مضينا !! وليس في هذا شيء من الفلسفة كما ترى ! وإن لم يكن تدبر هذا بأقل إرغاباً منها ! ويقول مترلنك ، فيما أذكر في بعض رواياته ، إننا ننحدر إلى دنيانا هذه وفي يمين كل واحد منا حقيفة يحمل بها المقدور له والمقضى به عليه ! ويظهر أن الموكل بتحميلنا هذه الحقائق أشد يقظة من أن يدع واحداً يهبط إلى الأرض فارغ اليد ! أترى لم يحاول أحداً أن يفلت ليحيى خالي الوفاض بادی الأنفاض كما يقولون ؟ وكيف يا ترى تكون حياته إذا جاء إلى الدنيا كالصفحة البيضاء التي لم يُخط فيها حرف ؟ أيقى كالدرهم المسيح لا تناوله أيدي الصروف ، ولا يتعاقب عليه من الحياة لا خير ولا شر ؟ ومن الذي يسمه أن يرسم لنفسه صورة ما قبل الحياة ؟

ومن الغريب أن الإنسان فكر فيما يكون بعد الموت وتصوره على وجوه
شتى ، وأعياء أن يرجع البصر إلى ما كان قبل هذه الوفادة إلى دار التحول !
ويذكرني هذا قول توماس هاردي من قصيدة اسمها « ساعة السنين » :
« قال الروح : إنى أستطيع أن أرد ساعة السنين فتكرر عقاربها راجعةً
ولكنى لا أستطيع أن أفها حيث تشاء .

قلت : اتفقنا على هذا .. فامض بها راجعة . فإنه خير من أن أتصورها
(يعنى حيوته) ميتة !

فأجابنى : « سلام ! » ونشر صورتها كما كانت فى آخر عهدي بها .
ثم صارت ترجع أصغر فأصغر حتى عادت إلى يوم عرفتها أول مرة ،
ناضجة الصبي ، ريا الشاب ، فصحت « قف ! وكفى - دعها تبقى هكذا
أبدًا ! » ولكنه هز رأسه ، وأسفاه إلا سبيل إلى الوقوف . فمضت تعود
صبيّة فطفلة ، ويتضاءل وجهها شيئًا فشيئًا ، حتى صارت لا شيء كأن
لم تكن ! فتوجعت وقلت « لقد كان خيرًا من هذا أن تبقى عندى ميتة !
إذ لمقت حيةً بدكرها . أما الآن فلا سبيل إلى ذلك » فقال فى جفوة :
« إنك أنت الذى اخترت أن تغير المقدور وتفسده » .

وأحسب أن أول حيثاتنا شرًا ! ومن ذا الذى لا يحس أن لبن الرومى
إنما يعبر عما يخالجنا جميعًا حين يقول :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يكيه منها وإنها لأرحب مما كان فيه وأرغد ؟
وإذا أبصر الدنيا لتسهل كأنه بما صوف يلقى من أذاها يهدد

ثم هذا البيت الصادق الرائع :

وللفس حالات تظل كأنما تشاهد فيها كل غيب سيشهد

وفى مثل هذا يقول شاعر غريب :

« جئنا إلى هنا باكين ، وإنك لتندى أننا لا نكاد نشق الهواء حتى
نصيح : نصيح حين نولد لأننا جئنا إلى هذا المسرح الكبير للمحبيين ! » .
ولعل هذه هى الجيئة الوحيدة التى نلقى فيها الحفاوة الحارة ! نهبط
إلى الدنيا عرايا عاجزين باكين صارخين فى غير أدب أو رفق ، فيُحتفل
بنا وتُرف البشائر بمقدمنا ، وتُرى التهنئات من أجداننا ، وتبذل العناية
براحتنا ، وتتوخى مرضاتنا . ويسام الخير من نخاتنا . وتؤنس آية إرشاد
من حركاتنا ، ويستشف فى العرف كما يستشف ويقدر حفين لرحيق مى
العناقيد :

ومن العجائب أن نسر بما يشد بأن نهده
كما يقول لبن الرومى :

أو ما أرى ولدى قوى منى بتقضى تستجد
كم من سرور لم يمولو د. أومله لغد
وبأن يهدنى الزما ن رأيت منه تشد !

ثم لا حفاوة ولا احتفال بعد ذلك ! أو لا حرارة فى الحفاوة على
الأصح .

وإنه لمن سوء الأدب ، ولا ذلك ! ؟ أن تستهل حياتنا بكل هذا
الصخب ، وأن نعلن مقدما بمثل هذه التصوياء ! ولكن عسى أن هذا
أول عهدنا بالمسرح ، وأنا أغرار تعورنا اندربةً ويقصص التهديد وإذا
كما لا نحسن الوفادة ولا نتحرى آداب الدخول ، فحسبنا أننا نكفر عن
ذلك حين نخرج ، ومعنى أن يكون حرواحنا لا شدود فيه ، وأن يكون

على أسلوب يقبله الذوق وتقره الآداب . وقد يدعى بعضنا العجب من
يعدون لذهابهم عدته ، ويجمعون له أهبتة ويحرسون على ما يكلف من
نفقة يدخرونها لذلك اليوم الذى يرحلون فيه ، ويطلبون أن يكون تشييعهم
على أسلوب معين يرمونه . غير أن الأمر لا عمل فيه للعجب ، وما يدرينا ؟
لعلنا نريد أن نتفادى أن يقال عنا إنه ليس أجدر بنا ولا أمثل من هذا
الرحيل ! وما أكثر ما نزعج أن الأمر لا يعنيننا ، وأتأنا لا نكثر له ، وأتأنا
سنذهب ، حين يأتى ذلك ، يقدم ثابتة . وقد نجب أن نسمح أعشار قلوبنا
بالسلوان فنقول إن الموت مسألة تافهة وإتأنا نلقى إليه الحياة كما يلقى أحدنا
أعقاب السحائر ! وإتأنا مللنا أن نظل ندفع أيدينا أمام موقد الحياة . وإتأنا
متأهون لترحيل وسنلبس له أبهى الحلل ونلف فى أزهى الحرائر وأغلاها ،
وستوضع على أجدائنا الرياحين والأزاهير ، ويذكرنا الناس على حين ننسأهم
ونذهل عنهم ! وهذه صفة تميز بها الإنسان عن سائر الحيوان ، ونعنى
قدرته على أن يدعى أنه لا يكثر للموت !

وقد كان الرئيس ابن سينا رحمه الله يقول : « اللهم لا أسألك حياة
طويلة ولكن أسألك حياة عريضة » وأحسبها الكلمة الوحيدة التى لا يعنى
المرء أن يفهمها ، من كل ماسح به ذهنه ، على وجه من الوجوه . وأفهم
مها الحاح والاستعناء وتوفر الوسائل لسد الحاجات وإرضاء الشهوات ،
أو أفهم منها أن يتيسر للمرء أن يملأ الأجل القصير بالجلال فكأنه عاش
بأعماله وبما أحس وأدرك ونفطن إليه وحصله ، أحياناً عديدة لا سنوات
قليلة . وعلى أيهما فالدعاء مما تتصاعد به أنفاس الناس جميعاً ، ولست
أعرف ما هو أحكم منه . ذلك أن الحياة منتهية على كل حال طالت أم
قصرت . وليس أسف المعسر على فراقها بأقل من أسف الشاب ، وإد كان

الأسف واحداً ، والأجل إلى انتهاء ، وكل تغز أكلوبة وباطل ومحال ،
فحير فى الجملة أن تقصر مع الامتلاء من أن تطول مع الفراغ !
نعم من الأكاذيب ومغالطة النفس أن يدعى أحد الزهد فى الحياة
والشوق إلى الرحيل ، وأن يتظاهر بالارتياح إلى ذكره بعد دهايه . حتى
التيقن من خلود الذكر ليس فيه سلوان . ونعجبنى قصيدة لتوماس هاردى
أيضاً يتهم فيها ويسخر ، عنوانها « أتخفر فوق قبرى ؟ » وهذا بعصها
(والسائل هنا سيده دفينه) .

- « أهذا أنت يا حبيبى تخفر فوق قبرى لتغرس غصناً ؟ » .

- « كلا ! لقد ذهب أوس وتزوج فتاة صبيحة ربيبة غنى وقال
(عنك) إنها لا يمكن أن يسوءها الآن أن لا أكون وفيّاً ! » .

- « إذن من يخفر فوق قبرى ؟ أهو أدنى أقرابى ؟ » .

- « كلا ! إنهم يجلسون ويقولون : أى جدوى من غرس الأزهار ؟
إن العناية بقبرها لا تخلص روحها من شبك الموت » .

- « ولكن من الذى يخفر فوق قبرى ؟ أهو عدوة لى ؟ » .

- « كلا ! إنها لما سمعت أنك اجتزت الباب الذى يوصد على كل
حى ، عاجلاً ، أو آجلاً لم تترك بعد ذلك أهلاً للبغض ولم تعد تعاب بك
أو بمرقذك » .

- « إذن من الذى يخفر فوق قبرى ؟ - مخبرنى فأتى لم أحسن
التخمين ! » .

- « إنه أنا يا سيدتى العزيزة ! كلبك الصغير الذى لا يزال يعيش
قريباً منك ، وأرجو أن لا تكون حركاتى تزعجك » .

- آه ! نعم ! أنت تحفر فوق قبري ! .. كيف لم يخطر لي أنني خلقت قلباً وفيّاً ورائي ؟ أي إحساس في الإنسان يضارع وفاة الكلب ؟ » .
- سيدتي لقد حفرت فوق قبرك لأدفن عظمة تكون ذخراً لي إذا جعت وأنا أطوف بقرب هذا المكان . وأنى لآسف ، ولكنني نسيت أن هذا مرقدك ؟ !

كلمة في الخيال

كان بودنا لو استطعنا في هذا الفصل أن نعتاض من كلمة « الخيال » لفظاً آخر لم يخرجه سوء الاستعمال عن معناه ، ولم يحطه حوشى أحسبه منه عرية عنه . إذن لاسترحنا وأرحنا وتيسر أن نقيم كل شيء على حده . وأن ننقد الأدب من الموضي التي يعانيها . ولكن حتى لفص ليس الأمر الهين الذي يتأتى كلما أراد المرء ذلك أو تمناه . وعلى أن من فصل به الذي يذكر ليشكر ومن رحمته بنا أن ليس في مقدور أن نستحدث من الألفاظ ما يشاء لما نشاء من المعاني حين نشاء . فيها قدرة كانت حقيقة أن تفضي إلى فوضى أعم وأشمل تشل به الأسرة ويمتد معها شدة الذي لا معدى عنه في حياتنا ، إذ يصبح لكل واحد سار يتكلم به . ومعجم يتناول منه لمعانيه ومقاصده .

وماذا يفهم الناس من لفظ « الخيال » ؟ تسمع من كثيرين قوهم هذا خيال شاعر ! ونعرف بالتجربة الطويلة أنهم يفهمون من الخيال محدودة الحقائق وتكيب التجارب واقتصاص شوارد الأوهام وشذلات ، وكذبهم يحسبون أن المرء على قدر بعده عن مألوف الناس وتحاربهم ، يكون يعيه من الخيال وقدرته عليه ، وأن هذا الناسى للحياة وسهه وحفائقها ولأحواها يكلف ما لا يكلف تحريها وانفاعة بميسورها . وهذا كله خطأ في حقل جهل فوق جهل .

ومن العسير أن تعالج هذه الأوهام التي قررها الجهل وانعاده في الأدهار وعرق أصولها . وقد نستطيع أن نسمع الشاب المتعلم إلى مراتب الأدباء

ومنازل الشعراء بأن كتابة حوالة مالية بمائة جنيه لا تكلف الإنسان فوق ما تكلفه كتابة حوالة أخرى بجنيه واحد ، وأن حامل الحوالة ذات الجنيه الواحد قد يجد الجنيه في المصرف ويرجع به عنه ، على حين يذهب حامل الحوالة الكبيرة فيلقبها مزيفة أو لا يجد لصاحبها وديعة أو رصيداً أو حساباً يأخذ منه ويذر . نقول في وسعك أن تقنع الشاب بهذا ثم تحاول أن تخطو به خطوة أخرى وأن تبين له ، قياساً على هذا المثل الذي تسوقه ، أنه ليس بصحيح أن الشطط الذي تحسبه خيلاً يكون أدل على القدرة ، وأن من يجيشك ، مثلاً ، بوصف بستان يفاير كل ما ألفه الناس وعهدوه في البساتين وارتبطت به آراؤهم وحوالهم ، ليس من اللازم أن يكون أشعر وأقدر على التخيل من لا يعدو أن يسوق إليك وصفاً ساذجاً لا ينكره الحس ولا يتزعج من جرائه العقل - تعالج أن تبين له هذا وتشرحه فيعود إلى رأس أوهامه التي حشاها رأسه معلومه ، ومطالباته للكلام الزائع الذي كلف به من تسميهم نحن أهل المذهب القديم .

كيف إذن نميط هذه الأوهام وننقى أذاها عن العقول لنتزده الأدب عنها ؟ من سوء الحظ أننا مضطرون في مصر أن نقيم الدليل حتى على الدائنة ، وأما لو حلونا من هذا التكليف وارتفعت عنا مؤونته لاستطعنا أن نصرب بسهم في ميدان الأدب وأن يكون لنا فيه عملٌ أجل وأضخم ، ولكن اللاء في مصر أنك تجد فيها أناساً قليلين رفعتهم تربيتهم إلى مراتب العربيين ونقلهم تهذيبهم إلى مستواهم ، على حين ترتع بقية الأمة وتمرح في خبوحه الأمية . وعلى هؤلاء القليلين يقع عبء التهذيب العام ونشره ! ومتى كانت الحاجة هي إلى المكاتب الأولية فمن الحرق أن تبدأ نشر التعليم بإقامة الجامعات ! وليس هذا سوى مثل ..

كذلك نحن . علينا أن نُسفَ دائماً إلى الدائنة وأن نقص أجنحنا حتى

لا نخلق في سماء الأدب حيث لا يرانا أحد ولا يحسنا ديار ! ولا نفر لما حين نكتب في الخيال من أن ننحدر عن القمم السامقة إلى السهول المبسطة التي تأخذها العين بنظرة ، وأن نقرر أن الإنسان عاجز عن أن يتخيل ما لم ير ولم يعرف ، وأن القدرة الفنية ليست في الإغراب وتكثيف الخيال والإتيان بما لا يكون ، بل في حسن اختيار التفاصيل المميزة كما يقول « تين » في فلسفة الفن ، وإنه من أفضح الغلط أن يتوهم المرء أن إبداع الشيء يحصل تناوله إسفافاً ونبذه سموً . فإن الأشياء موجودة براها ونحسها كل يوم من أيام حياتنا ، والحقائق معروضة على أذهاننا وقلوبنا ، غير أن كونه كدلت ليس بمستلزم أن نكون قد انتفعنا بشهودنا إياها ووعيناها وأحسنا بها . وأكثرنا لا يفكر فيها ولا يلتفت إليها أو يعنى بها . وقل من يبس من يحصر إلى ذهنه صورة شيء مما يحيا بينه من المشاهد والمناظر . وما كان ذهنه بطبيعته يعنيه إلى حد كبير أن يجسد لنفسه صورة منظر نجمته وتفاصيله كما هو كائن في الطبيعة أو الواقع ، فإن الأمر يحتاج إلى عزيمة دقيقة لتعمير يستهدى بها الذهن في انتقاء التفاصيل وضم بعضها إلى بعض وترتيبها . وما على القارئ إلا أن يجرب ! هذه هي الدنيا أمامه ، وفيها ما هو أقرب إليه وأمس به وما هو أعرف به وأدرى ، فيتناول ما يرض أنه سهل عليه وأقل مؤونة وليصوره لنفسه وليعرض عليها كل جوانبه ويحاول إحاطة والاستقصاء ليعرف أي عسر يكابد ، وليلدرك أن تناول شئوف ليس فيه إسفاف ، وأن المؤلفات ، وإن كانت في طريق كل أحد ، لا يقص إليها كل ذهن ولا تلتقطها كل عين ، وليصدق قول « جورج إليوت » أن بعض الناس حين يرون الشاعر يسبح بين العصاب يحسبون أن مجرد دهاله في الحو يكسبه حلالاً ، ويتوهمون أنه صار أقرب إلى السماء لأنه نأى عن الأرض !

وهي ملاحظة في الصميم من حجة الصواب ، فما دنا هذا الطائر من السماء ولكن بعدد عن الأرض ، وما اكتسحت عينه بقليل ولا كثير بين أجواز السموات بل غابت عن عينه الأرض واستسر كل ما فيها عنه ، فلا هو وصل إلى شيء وفاته كل شيء ! غير أن الناس يرون الكاتب أو الشاعر بيت كل ما يربطه بحقائق الحياة ويلقى إليهم كلامًا شاردًا مما أمله الأوهام المعرلة فيحسبونه سما إلى منزلة من القدرة الفلسفية لا تدرك !

أقول حقائق الحياة ؟ إذن فما هذه الشياطين وعرائس البحر والغاب وما إليها مما ابتدعه خيال الغربيين ووصفوه في شعرهم ؟ من أين جاءوا بهاتيك المحالات ؟ وكيف عرفوها ووصفوها ولا خير لأحد من أبناء الدنيا بها ولا عهد ؟ ولمن يقوم بنفسه هذا الاعتراض بعض العذر ، فلعله لا يدري أن هذه الشخصيات ليست مخلوقة خلقًا وإنما هي ، على بعدها وغرابتها ، مما استحدثه الخيال النشط من مألوف بنات الدنيا ولصوصها : فهي أسماء مستعارة لشخصيات مكونة من مظروق ما يلحظ في ناس هذه الدنيا : وهو خيال ، ولكنه محلق في مماء الشعر بجناحين من الحقيقة . وليست قدرة الشاعر هنا في أنه أوحد شيئًا من العدم ، فذاك محال ، ولكنما قدرته في أنه استطاع أن يكون صورة من أشنات صور وأن يحضر الصورة المؤلفة إلى ذهنه إحصاءً واضحًا وأن يمثلها لنا كما ينبغي أن تكون .

وليس من فصل في أن تأتي إلى بمعان أو صور كالربيق لا تتمك اليد منه . ولكن المزية كل المزية أن نحس ما يحتمل النقد الصامت للتجربة العامة ، وأن نسوق ما لا يضيره بل يزيده إشرافًا وصحة أن تواجه بالحقائق . ونورد لك مثلاً لما نريد . قول شاعر قديم لا يحضرني اسمه :
بكت عيني اليسرى فلما رحلتها
عن الجهل بعد الحلم أميلنا معنا
فأين فيس عرفنا وعرف أسلافنا
ميعرف من تأتي بعدنا ، إنسان يكي

بعين ولا يكي بالأخرى ؟ ودرجات الحزن لا تقاس بهذا ، حتى إذا أمكن ، فيكون المرء حزينًا إذا بكت له عين واحدة ، وحزينًا جدًا إذا فاضت كلتا عينيه بالدموع ! ومبلغ الفجوعة لا يدل عليه هذا التكلف للمحال ، وما كانت الدموع مظهر الشحى الوحيد والدليل صد عليه . حتى يشط القائل هذا الشطط كله ويخرج عن حدود الصبغة . ومن شأن الحزن العميق أن يصرف النفس عن التصنع فصلاً عن هذا الإفحش . فعد صنع شاعرنا ؟ هذا إلى أنه لم يأت بشيء معقول في ذاته ولا مع سمع والتكلف له . وأقنعنا أنه كاذب فيما رعم من الحزن والأسى وما أراد أن ينتحل نفسه من صفات الرجولة . إذ كان لا ينافي الرجولة أن يكي المرء ، ولا يشتها أن تجمد العين ، لأن جمود العين قد يكون مرجعه إلى ملادة في الإحساس لا إلى القدرة على ضبط النفس وحكمها . فمن حيث عيون إلى هذا البيت لم تجد فيه إلا ما يستحق من أحله أن لا يحسب في شعر وإن كان موزونًا مقفى مع ما سبقه وتلاه .

ولا يتعجل القارئ فيحسب أننا من أنصار « الريالزم » في الشعر ، أي ما يمكن أن نسميه المذهب الحسي ، أو تناول الشيء كما هو ويع تحت الحس ، ولكي نوضح هذا نقول كلمة صغيرة في موضوعه .

الأصل في الشعر وسائر الفنون الأدبية على اختلاف أنواعها مراميها وغاياتها ، النظر بمعناه الشامل المحيط ، وعلى قدر حدوه يصير يكون اختلاف المعاني والأعراض والشاعر لا يسعه إلا أن يصور ما يرى . بالمعنى الأوسع ، وما يراه الواحد قد لا يراه الآخر . وربما أحدث عين الشاعر مطراً فابدع الحياة تويقه ، وأحس ما شاء تويقه وترويقه ، واعلم أن رؤية الشيء في أحل مظاهره وأسمى محالیه وأروع حالاته هي ما يصير عنه « بالأيديالزم » وعلى العكس من ذلك « الريالزم »

ومن الضرب الأول قول البحري يصف الريح :

أتاك الريح الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يكلما
وقد نبه النوروز في غلس الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوما
يفتقها برد الندى فكأنه يث حديثاً كان قبل مكتما
ومن شجر رد الريح لباسه عليه كما نشرت وشياً عنمنما
ورق نسيم الريح حتى حسبه يجي بأنفاس الأحبة نعمما

والآيات مشهورة ، ومنه أيضاً قصيدته البديعة في أيوان كسرى وفيها يقول :

والمنايا موائل وأنوشروان يزوجي الصفوف تحت الدرفس

أما الضرب الثاني - أي الريالزم - فإن من الصعب العسير التمثيل . لأن الخيال لا عمالة عامل في كل ما يزعم الزاعمون أنهم أمناء في تصويره على حاله ، شعروا بذلك أم لم يشعروا . والحقيقة التي لا مساغ تريب فيها عندي هي أن هذا المذهب من الأكاذيب ، فإنهم يقولون إن العناية منه هي تصوير الشيء على حقيقته ، وتلك لعمرى غاية كل شاعر وكاتب ومصور كئناً من كان هذا الشاعر أو المصور ، وما يستطيع أحد أن يعدل عن هذه العناية ، لأن العدول عنها يحالف كل فوائين العقل الأساسي ، فإن الأصل في الفنون قاعبة ، النظر كما أسلفنا . فإذا ابتكر الإنسان شيئاً فإما يؤلف من أشنات الصور العالقة بذاكرته ، وهذه الصور إما حصت بالصر ، فإذا رأيت شاعراً أقرب إلى الحقائق من شاعر فلا تحسب أن هذا إما كان هكذا لأن الأول مذهبه حسي والثاني تخيلي ، فإن شيئاً من هذا لم يكن ، وإما السبب أن هذا أقدر من ذاك وأقوى ملاحظة . وهذا الذي نراه من الاختلاف في الماهج بين شاعر وشاعر راجع إلى الاختلاف بين شخصيتهما . هذا يستمد البواعث على الابتكار من ظواهر الطبيعة . وذلك يستمدّها من نفسه .

كلمة عن

ابن الرومي وحياته

وجدت أكثر من ترجم ابن الرومي من الكتاب المتقدمين في يستقصوا أخباره ولا توخوا الإحاطة بها أو ترتيب ما أثروا منها . ومن أين كانت أن يوفى القول فيه وكل ما انتهى إلينا لا يبرد العلة ولا يسد حاجة ؟ وكيف نقتفي معالم سيرته ، ونستيع نمو عقله ، ونستقري أطوار نفسه ، ونحن لا نعلم أي أخباره أسبق أو أصح ولا نعرف عن كثير من تفصيلهم وصاحبهم وتقلب بينهم إلا أنهم عاشوا وماتوا كسائر الناس ؟

ورأيت ، كذلك ، المؤرخين السابقين رحمهم الله ، قد اتحفونا بطائفة غير صالحة آمن نوادره وقضائله ورذائله ، رواها بعضهم عن بعض بالتواتر . كما هو مألوف العرب وديندهم ، وهو مذهب أشبه بالغميبت الخسالية منه بالتحليل الأخلاقي ، وليس فيه تصوير للنفس ولكنه قياس لطول الصورة وعرضها . وشتان بين أن تجمع شتيت الصفات ثم تسردها واحدة واحدة ، وبين أن ترسم الخلق الحادث من تفاعلها واصطكاك بعضها ببعض . فإن مما لا شبهة فيه أن النفس الإنسانية ليست كخزالة المكت ترى فيها الفضائل والرذائل مرصوفة مرتبة لا تعدو واحدة مكانها ولا تتجاوزها إلى سواه ، وإما هي ميدان لتلاقيها وتفاعلها ، وعالم صغير تتصادم فيه العواثر والملكات ، تقتل على الحياة والتعلب كما يحترب الناس في هذا العالم الكبير وتتارعون الفناء والعلة فيما بينهم ، وحر تشترب فيه الطبائع بعضها في خلال بعض كما تشترب الموحدة في خلال الموحدة وتعيب في أنثائها .

الحقيقة أن كتاب العرب ومؤرخيهم قصروا أشد التقصير وأسوأه في ترجمة شعرائهم وكتابهم وعلمائهم وعظماء رجالهم ، ولم ينصبوا أنفسهم في هذا المعنى على كثرة ما ألفوا وصنفوا ، ولا جاءوا بشيء يضارع ما عند أمم الغرب منه . تأمل « حيوات الشعراء » « لجونسون » مثلاً ، أو تاريخ جونسون « لبوزويل » وقس إليه تراجم ابن خلكان وأشباذه ، وانظر ما بين هذا وذاك من اليون . وإنك لتقرأ للمؤرخ من العرب السفر الضخم ذا الأجزاء العديدة والحواشي والتعليق ، وتعاني في تصفحه من البرح والعنت ما تعاني ، ثم لا تظفر إلا بأشياء لا تستحق ما عالجته في سبيلها من الشدة ، وينت من الجهد ، وأنفقت في طلبها من الوقت والمال والعافية ، ولا تجد إلا قصصاً وأخباراً لا ترى عليها طابع العقل وميسم التفكير ، كذا . يكتب إنسان وهمه الله عقلاً وفهماً وفؤاداً يتذكر وذهناً يتفكر وقلباً يجدير ، أو كأنما كانوا يكتبونها وهم رقود ! حتى ابن خلدون الذي عاب من سبقه من المؤرخين ، وفطن إلى مواضع الضعف فيهم ليس خيراً منهم حالاً .

ولسنا نقصد إلى تنقُّص مؤرخي العرب ، والتسميع بهم ، والوقوع فيه . ونخبر شأنهم ، أو إلى تفصيل مؤرخي الفرنج عليهم والتسوية محذورهم . فإن هذا ما لا يسبح لنا في فكر . وعلى أننا لو قصدنا إلى ذلك التمهيل لا تسع لنا فيه نطاق المعادة ولربنا العفلاء من اللائمة ، فإن لم لا يحصى عن أحد له أدنى معرفة أن مؤرخي العرب لم يظفروا إلا إلى الدولة دون أمة ، وإلى الحكومة دون الشعب ، ولم يعوا إلا بذكر المنوح والحروب ونعائب الولاة واختلاف الحكام ، ولم يفتلوا إلى عظمة الشعر وحلال الأدب فطة العربيين لذلك . وهذه أسفارهم طبراجعها ما شاء وليحكم عقله . وليتجرد من الهوى فإنه لابد صادر عنها بآماله ، وراحت

بالخيبة وحبوط المسمى ، ولعل للعرب ، بعد عدوا من ربههم وأحرار حياتهم ونحن نلوم !

•••

الإنسان وجهة الإنسان ، وموضع عنايته ، وليس أدل على ذلك واستثنائه من حبه للترجمة والتاريخ وكلفه بهما على الرغم مما يُدركه من ذلك ودفعه ، وأى شيء أحلى في القلب . وثُلج لبس . وشرح . من أن يساهم أحدنا شعور أخيه الإنسان . ويشطره بحسبه . ويصنع نظره إلى قلبه ، ويحيط بحركات نفسه ، ويقف على ما يضطرب به جنانه ، ويدور في خاطره ويجرى في ذهنه ؟ بل أى شيء أدعى إلى طرب العقل . وأبعث على لذة الفكر ومتعة الدهن ، من أن يظفر أحدنا من أخيه وبرى العالم كما هو ياد في مرآة عينه ؟

تلك لذة لا تعادها لذة ، ومتعة أنعم بها من متعة ، فأما من تغفرت قلوبهم على البشر واعتقدوا للنوع تبعص والعداء ، وصوبوا حسد عبور على الكراهية والمنقت والاحتقار . أو بدوا كأنما صوبوا على ذلك فلمرى إذ هذا المظهر من مظاهر حبهم لنوع وإحلاصهم له . وبه ست عليهم السوداء واحلوككت الدنيا في عيوبهم . وتكررت من حبة فتكرو لها لا للناس ، وإن خيل غير ذلك . ثم لم يدروا كيف يحارون بعصه بيقضة ، ومقتاً بمقت ، فاقبلوا على الناس إذ لم يصيروا غيرهم . يشفون منه غيظهم ، فهم صديق في ثياب عدو !

قلنا إن من أظهر الأشياء في الإنسان حبه لمأربح وترجمة وكفبه بهما وأنا لا نعرف معنى أجمع لصفات المدنية ولا أدنى على حدح الإنسانية . من ميل المرء إلى ذلك ، ونقلبه وحوه الرنى له ، وتصريفه أعنه الفكر فيه ، ونقول إذ هذا الميل مركب من السلابة ومركوز في بطائع ، وإن

كل إنسان مؤرخ ببعض الاعتبارات . فإن أردت دليلاً محسوساً على ذلك فانظر فيما حولك وتبصر ما يجرى بينهم من الكلام في متحدثاتهم ومجالس سمرهم ، أليس أكثر ما يرد على السمع منه حكايات وقصصاً وأنباء ؟ فمن ناقل إليك ما ترمى إليه من الأخبار ، ومن مُسَيِّر إليك بذات نفسه وما لقيه من نعمة وللاء ، وكيف عدلت الأيام عنه ثم عطفت عليه :

وبينا نعمة إذ حال بوؤس . وبؤس إذ تعقبه ثراء . . .

ومن واجد قد ألزم القلب كفة . ومن طرب يعلو اليفاع ويشرف
ومستعير قد أتبع اللمع زفرة . تكاد لها عوج الضلوع تنقف

ومن لعب مجان جداعب على الناس ويركبهم بالهزل والمزاح ، ويروى
بث الدرة المنضحكة إثر الطريفة المستملحة ، إلى آخر ذلك مما لا حاجة
إلى إفاضة فيه . ثم تأمل الشعر ، أليس شعوراً مترجماً وقصة مروية ،
وحصراً . حلوا ؟ والعلوم أنواعها ، أليست مجموعة تجارب ، فهي أيضاً
تاريخ لعقل الإنسان ؟ وهل الحياة إلا قصة طويلة يمثل كل منا فيها دوره
الذي يخص به وقته له ، ثم يحدث الناس به ؟

والمرء مدفوع إلى ذلك بعاملين : أحدهما علمي والثاني شعري . فأما به
لا يزال يخاف أن يطلع على نفس أخيه الإنسان ويستكشفها ، مسوقاً إلى
ذلك بدافع غنمي . فلأن الطبيعة قد اختصت كل أحد بمسألة من مسائل
الوجود هو مطالب أن يحلها على الوجه الذي يبدو له ، ولو لم يكن من
ذلك إلا كيف وفق بين جسمه وروحه ، وكيف عالج هذا في سبيل
ذاك ، وأراد ذلك على طاعة هذا ، لكان ذلك حسب دافعه وسائقه
مستحثاً . إلا أن العامل الشعري أقوى دافعاً وأشد حملاً للنفس وإغراء

لها وحضاً ، فإن هذا التنازع بين الإرادة البشرية والحاجة المادية . هو
الشعر ولا شعر إلا به . ومارال العنصر الشعري في انفس أقوى من العنصر
العلمي وأظهر ، وإن كنا في الحقيقة مظهرين محتفين بشيء هو في
جوهره واحد ... وكذلك ينظر أحداً بعين الناس فتكتمل عنه صورة
متبينة ، ويشاطروهم إحساسهم ، ويسد القصر في تحاريه . فيحب حياته
كما يحيا حياته ، وكأن كل واحد مرآة محوطة - غمية شعرية - مسيعة
سحرية - نود لو أتيح لنا أن نرفع ما أرسل عيناها من حجب يرى فيها
وجوهنا . ونبصر في صقالها نفوسنا ؛ ونستبين في بورها غمض أسرار
الضمير وأخفى طوايا الصدر ...

ولا يحسن أحد أن الأمر ينتهي عند هذا القدر ، ويقف عند حد .
فإنه أكبر من ذلك وأعظم ، والمسألة أدق وألطف . وما في نفس من
أعرق ، وزعة أثبت من هذه النزعة الإنسانية التاريخية . لأن الإنسان
كما قدمنا قبله الإنسان في كل شيء ، ومن أجل هذا تحد عديته به شديدة .
واهتمامه بآثاره كبيراً ، وإجلاله لقدرها عظيم . ومن أجل هذا يفت
لا ينفك أحداً ، وهو ينظر في قصيدة الشاعر أو رسالة لكتب . يحول
أن يصور لنفسه روحه التي كانت تحفره ، وعقده الذي وحي به . وفسه
الذي أملى عليه . ومن ذا الذي لم تذهله عن نفسه قصيدة من الشعر حتى
تجرد من نفسه وتعرى من شخصيته وروحه وعقده ؟ وأي معنى في ضحك
هذا التحد الوقتي ؟ .. بل أي متعة ألد من هذه العبة وأشهى وضيق على
رغم أنوف القاد الذين لا يفتأون يطلبون أن يتحد امرء من إنسانيته ليتحد
من الهوى وليكون أصبح حكماً وأصدق بصراً ! كأن قيمة الشعر لا تقدر
أيضاً على حسب اللذة المستفادة منه !

كذب النقاد وصدق الإنسان ! ولعمر النقاد لو أن قصيدة ابن الرومي التي يقول فيها :

أجبتك الوجد أغصان وكتبان
وفوق ذنبك أعصاب مهذلة
ونحت هاتيك عتاب تلوح به
غصون بان عليها الدهر فاكهة
ونرجس بات سارى الطل يضربه
الفر من كل شيء طيب حسن
نمار صدق إذا عاينت ظاهرها
بل حلوة مرة ، طوراً يقال لها
يا ليت شعري ، وليت غير مجددة
لأى أمر مراد بالفتى جمعت
تجاوزت فى غصون لس من شجر
تلك الغصون اللواتى فى أكمته
ينبى به الله قوم كى بين له
وما اتلاهم لإعدت ولا عث
لكن ليثبت فى الأعناق حجه
ومن عجائب ما يعنى الرجال به

فيه نوعان : تفاح ورماني
سود لمن من الظلماء ألوان
أطرافهن قلوب القوم قنوان
وما الفواكه مما يحمل البان
وأقحوان منير النور ريان
فهن فاكهة شتى وريحان
لكنها ، حين تلبو الطعم ، خطبان
شهد ، وطوراً يقول الناس ذيفان
إلا استراحة قلب وهو أسوان
تلك الفنون فضمتهم أفنان
لكن غصون لها وصل وهجران
نعم ويؤس وأفسراح وأحزان
فهو الطاعة البر من فيه عصيان
ولا لجهل بما يطويه إبطان
ويحسن العفو ، والرحمن رحمن
مستضعفات لنا منهن أقران ، إلخ

قول لو إن هذه القصيدة الصادقة لم تكنها يد الشاعر أو يد سواه من
سواه وإنما أرسلت حرة على صفحة الطرس من تلقاء نفسها ، وبنت
مشورها فى شئ العرصاس بفعل الهواء وتأثير الحو كما تخضر الأرض
جادتها :

« ديمة سمحة الفهاد مكروب »

أكان يكون لها فى تقديرك ما لها من الواقع ؟ أم كنت مبوئها أحصر
موضع بين غيرها من القصائد « البشرية » كما أنت اليوم صانع بها ؟ كلا !
وبلا نزاع !

وتدبر ذلك تدبر من شأنه التوق إلى أن يعرف الأشياء على حقائقها ،
ويتغلغل إلى دقائقها ، ويتحافى بنفسه عن مرتبة المقلد الذى يجرى مع
الظاهر ، ولا يعدو الذى يكون فى أول المخاطر ، وعن مرتبة منكر الذى
يخطئ كل قول ويعيب كل رأى ، فإنه باب كثير الخاسر حرمه
يؤنس النفس ويشلج الصدر بما يعرض بك إليه من المعرفة ويؤديه بيت من
النبيين ... أو ما ترى الناس يأتون فى كل عام إلى الأهرام ، وما تسهوا
أروع جلالاً ، وأروع تكوينا ، وأقصر جملاً ، ولا أدنى عسى مقبرة من
جبال الحملايا ! ..

ثم ألا ترى كيف تجاوز البحرى حال لبنان وهضبه ر رباغ فتح من
خافان فى قوله :

تلفت من عليا دمشق ودوتنا
إلى الحيرة البيضاء فالكرخ بعدما
مقاصير ملك أقبلت بوحوها
كان الرياض الحو يكسين حولها
ومن شرفات فى السماء كأنها
رباع من الفتح بن خوفان لم تزل
للبنان هضب كالغمام المخلو
دعت مقامى من مصرى وحف
على مطر من عرص دحة موز
أفادى من أفوف وتسكر منق
قوادى يضرب من حمام محقق
عنى عديم أو فكك لمهوق

وكيف أنه وصف الجعفرى والإيوان والكامل ومتوكية والصبوح
والمليح والبركة وغير ذلك ولم يقل بيتاً فى كهف أو حل ؟ وإن كان
هذا كذلك لأن النفس تحد لذة وعزاء فى استعلاء آثار النفس .

كفرحة الأديب بالأديب وطرب الهب بالحبيب

وحنة المريض للطبيب

والناس عن الناس أفهم ، وإليهم أصبى وأسكن ، وبهم آتس وأشغف ،
وليس معنى هذا أن الشيء لا يروك ويقع من قلبك إلا إذا كان صلتك
آدمياً ، فإن هذا ما لا نذهب إليه أو نقول به ، وإنما نعى أن الإنسان
حيبٌ إلى الإنسان أى إلى نفسه ، وأن أكثر ما يفتنه ويستولى على لبه
وهواه ما كان عن الإنسان صدره ، وما تبين عليه ميسمه وأثره ، وهذا
ملموح فى كل حركة ، وملحوظ فى كل لفظة . وما تأملتُ قط هذا الأمر
إلا أثارنى التأمل واستخرج نى التفرس ، غرائب لم أعرفها وعجائب لم أقف
عليها ، وإلا استيقنت أن الأمر كما ذكرت والحال على ما وصفت ، وأن
إنسان لا يزال يتلمس الإنسان ويحاول أن يجتليه فى كل شيء ، كأنما
هو يستوحش الشيء إذا أحس أنه منه خلاء ، ولو لم يكن الأمر كذلك
ما كان الإنسان إنساناً ولا كان على الدنيا طلاوة ، ولا للحياة رونقٌ
وحلاوة . ولعمري هل تروقنا الأرض إلا لأنها مسكننا ومثوانا ، ومراحنا
ومقدنا ؟ وهل يملأ الروض عين من نظر إلا إذا أحس أن رياحيته تحييه ،
وحمامه يغنيه ويثنيه ، وغصونه توسوس إليه ، وأنه متصل بحاضره وماضيه ،
وبذكرياته وأمايه ؟ ولعمري كيف الحياة ؟ وماذا العيش إذ أنت حرمتنا
هذا الاحساس الحلو والأنانية اللذيذة ، وسلبتنا هذا الخلق الإنسانى والغريزة
التاريخية ، وذلك أصل الدين ، وأصل الشعر ، وأصل العلم ؟ ؟

وأى شيء يدفع الناس إلى إبعاد الوقت فى طلب التاريخ ، واستنزاف
الأيام فى معاناته ، والتوجه إلى طلب النعات الدارسة ، والانقطاع لحل
الرموز الغيروعلنية مثلاً وإيضاح مشكلها والكشف عن معانيها ؟ وماذا
يحمل الناس على العوص على آداب العرب والفرس والهند واليونان والرومان ؟
ولماذا يستنفدون الطاقة كلها ويعبون بترجمة هذه الآداب من لغة إلى لغة ؟
أو ليس حسب كل أمة ما عندها من ذلك ؟ وما هو السر فى أن أساطير

الأمم القديمة وقصص البربر والهمج ربما كانت أخلب لللب ، وأفنن للنفس ،
وأسحر للعقل من فلسفة أفلاطون وكانت وغيرهما ؟ وماذا يحث الناس
ويسوقهم إلى هذا الكد والتصرف ؟ أليس هو أن المرء ينبغي أن يعرف
كيف كان الإنسان فى العصر الخالى ليعرف أى شيء هو ؟

يرى سقراط ، ورأيه الحق ، أن غاية الفلسفة أن يحيط المرء بنفسه .
وأن ذلك أحق بالتقديم وأسبق فى استيجاب التعظيم . وأنه لا عرفان إلا
وذلك هو السبيل إليه ، ولا علم إلا وهو الدليل عليه . ولا معرفة إلا وهو
مفتاحها ، ولا حقيقة إلا وهو مصباحها ، ولكنه أخطأ السبيل إلى هذه
الغاية ، وذهب فى مذاهب لا تؤدي إلى هذا العلم ، وطرق لا تقصى إلى
هذه المعرفة . وما أضله إلا حسبان أن الإنسان ليس مظهرًا من مظاهر قوة
بعضها ، ولكنه فرد قائم بذاته ، وروح مستقلة بنفسها منعددة عما عداها .
فهو أبداً يحاول أن يفض ختم هذا السر الإنسانى بأن يتلبس ما يحرق فى
ذهنه ، ويتوسم ما يحصل فى نفسه ، ويحلل المعرفة إلى أصولها . ويضع
لكل شيء حداً ، وما فاز من ذلك بشيء ، ولا عاد إلا بالنجية ، وبقت
الحقيقة عنه مستورة ، واستولى الخفاء عليها ، واستمر السرار بها ، حتى
فطن الناس إلى هذا الغلط الذى دخل عليه ، والرأى الفاسد الذى عن نه
بسوء الاتفاق حتى صار حجازاً بينه وبين العلم بها وسداً دون الوصول
إليها .

الإنسان ليس فرداً قائماً بنفسه ، كاملاً فى ذاته ، وإنما هو واحد من
عشيرة وعضو من فصيلة ، لا يتأتى العلم به والوقوف على أمره إلا بالقباس
إلى أئداده وأشباهه من الناس . وقد يمتد حسب الناس الأرض حسماً معزلاً
لا نظير له ولا شبيه ، فركبهم فى أمرها جهلٌ عظيم وخطأٌ فاحش ،
وسبقت إلى نفوسهم اعتقادات بأن فسادها لما وضع للناس أنها كوكب
كبيرة . وكذلك يختلف اليوم رأينا فى الإنسان عن رأى آبائنا فيه . وقد

كانت كل أمة تمتحن ما عداها من الأمم وغلاها من الشعوب . وتزودها وتستخف بها ، ولا تعدها إلا في الهمج والبربر ، ومن ذلك زعم العرب لعرب أنهم أشرف الأمم . ونحن نرى فيها اليوم إخواناً صدعت شملهم البحار ، وفرقتهم اللغات ، وقطعت بينهم العداوات .. لهذا يعكف أحدنا على تاريخ نباه وأجداده فيقرأ في صفحاته آيات الحكمة الإلهية . ويعبر في سطورهم مظاهر القوة الإنسانية ، واجداً من الروح والخفة ، ومن الأنس والغبطة ، في مطالعة أخبار القرون الخالية والأجيال الماضية ، مالا يجده في أخبار العصر الحاضر .. وكما أن أحدنا ، إذ تلقى المصادفة في يده شيئاً من رسالته القديمة المنجورة ، يقلبها يادئ الأمر وهو غير حافل بها ولا مستمتع بها ، ثم لا يلبث أن يعتاده الذكر ، ويلهيه ماضيه عن حاضره ، فتبذل في قرائتها بعد لحظة ، ويتمهل بعد المسارعة ، ويقف على كل حرف ، ويتحير كل لفظ ، كأنما يستبعد أن يكون هذا خطه وتلك مقاطع قلمه ، ولا يصدق أن هذه الأيام مرت به ، وتلك الهوم والمسررات وردت عليه ، ثم تتزاح عن الماضي حجب الغموض ، وتتفى عنه معتلجات شكبه . فتدب في شحج روح الشباب وتجرى في عروق طيفه دماؤه . ويعلم أن هذه رسالته من غير شك . كذلك يستغرب أحدنا التاريخ القديم في أول الأمر . ونحسب عليه سببه فيه . وقرآنه منه ، وما هي إلا صفحة أو بعضها حتى تذهب عنه لوجسته ، ونحسب الشهية ، وتخل مكانهما بهجة الأسى وروعة يقين . ويصبح وكأنه يقرأ تاريخ نفسه ويتصفح ترحمة حياته ! ولعمري ماذا يعيبنا التاريخ إذا هو لم يحرك في نفوسنا هذا التعاطف . ولم يؤكد العقدة بين الحاضر والماضي ؟ إن الحياة قصة طويلة ، يمثل كل فيها دوراً ، وإذا كان هذا كذلك أفليس يسعى أن نخطط علماً بدور

خلا مكانه ، وحللنا محله لتكون على بينه من أمراً ؟ وهل ثمت شيء من العراية في أن يرجع أحدنا بصره في الفصل المنصره ؟ أه ليس من العسرة رى الذى لا معدل عنه في كل رواية أن تكون المكثرة الأساسية . حده في كل الفصول ؟

ولا ريب في أن كثيراً من فصول هذه الرواية الإنسانية قد امتس خيره ، وامسح أثره وأصبح عند الله علمه . ولكن ذلك لا يعنى أن الناس عن التنقيب والبحث ، ولم يخل دور ما يرومون من فحص الحسب للإنسان والمبالغة في استخبار آثاره عنه ، وإن كانوا بعد ذلك من الحجة ولم يحدوا رائحة الكفاية ، ولا شحوا يرد يقين إلا من على عجزهم الظاهر وقصورهم البادى عن إقصاء من حفسه الأمر . لا يزالون يجمعون ما تصل أيديهم إليه من آثار أنظارهم وحسنهم . وإن كانت في ذاتها تافهة لا قيمة لها ولا وزن ، عليهم يستشغون به نفوسهم ، ويستجلون أحلامهم وهو أجسهم ؟

إلا أنا اليوم على قمة الوسائل ، وبرة المرنج ، وجهد الناس . فطلى معاني العظمة والطولة في الإنسان ، وأشد بركته . ونحن في لحمة تقديرها لها من أسلافنا ، فابهم ، وإن كتب قد رجع أنفسهم من مرات الآلة وممارل الأرباب . غير أن السعد المأمون يحد في عذبيته هذه شيئاً عن عجزه حياتهم . ونحن اليوم لا نسكن عظماء حساً أو رباً . فللهلا . ولا نعتقد أن الشمس من مظاهر نورانية غير أن على ذلك الطفل حسناً وأصمى حسناً وأصبح بصره ووسع بركته وأحسن ماياً . وليس معنى هذا أن آباءنا كانوا لا يقصرون بعظمة . حقيقة منهم كانوا أحسن بها وأسرع إلى الإقرار لها ولكن معناه أن صفتهم

بعظماهم ونسبتهم إليهم كائنات غير متعددة الجوانب ، ولو نحن أردنا أن نثبت ذلك من طريق البرهان القيم والدليل المقنع لأحوجنا إلى التطويل وإلى تكلف مالا يجب وإضاعة ما يجب .

والإنسان مطبوع على الإيمان بالعظيم إيمانه بالحياة ، وليس ثمت ما يُعين على احتمال الحياة ويجلي من وجشتها مثل هذا الإيمان ، لأن العظيم في كل عصر كوكبه اللامع ، ونيراسه الساطع ، وبدره الزاهر ، وبحره الزاخر ، وهل الناس لولا العظماء إلا جبال من الشمال أو تلال من الجنوب ؟

وكما أن الورد لا يعيها أن تسطعك نفحتها ويتنور إلى أنفك نسيمها ، والجميل لا يشق عليه أن يمثّل لعينك حسنه ، وترسم في قلبك ملاحته ، كذلك لا يرهق العظيم أن يسوغك من صفاته ويضفي عليك الإحساس بما أقاض الله عليه وأسنى له وآثره به .

ونكر ذلك لا يتهياً حتى يكون بينه وبين الناس اتصال ، وله إليهم انتساب واتماء ، وحتى يحس الناس - وإن أنكروا وكبروا - أنهم واجدون عنده ما يحبون ، وبالغون منه ما يطلبون .. فإن من الناس من يسأل إليك مالا حاجة بك إليه ، أو يجيبك إلى ما لم تسأله ، وهذا لا طائل وراءه ولا ثمرة عنده ولا خير فيه ، وإنما العظيم من فطن إلى حاجة الناس فسدها ، وأدرك مواضع الافتقار والضعف فراشها ، ومن عرف موضعه وبلغ الناس ما في نفوسهم ، وأمكنهم مما يطلبون ، حتى ولو لم يدرك هو ولا الناس ذلك . وليس يحظى العظيم موضعه ، أو يخفى عنه مرقعه ، لأنه كالنهر يحفر لنفسه مجراه ويكون له مسلاً أينما تحدر ويعمقه مع التدفق .

وأتت إذا رجعت إلى نفسك وظهرت في تاريخ العصور التي ظهر فيها العظماء ، علمت علماً بأنّ أن يكون للشك فيه نصيب ، وللتوقف نحوك مذهب ، أن العظيم لا يظهر إلا إذا كانت الحاجة إليه ماسة ، والافتقار إلى

مثله شديداً ، وأنه لو لم تلد آمنة محمداً لولده غيرها من نساء العرب ، ولو لم يهرب شكسبير من بلده إلى لندن لنبع من غيره مثل هذا الشعر الذي تقرأه له اليوم ، ولأيقنت أن العصر الواحد قد لا يسع أكثر من عظيم واحد ، أو هو يسعه ويسع نقيضه في مذهبه وعكسه في مزجه .

وكما أن النبات يحول معادن الأرض غذاء صالحاً ، للحيوان كذلك العظيم يتناول الطبيعة فيستخدمها ويجيء الناس منها برحمة صالحة ، والطبيعة إذا صادفت كفوّاً حقيقاً بها ، ووالياً مطيقاً لها ، وباهضاً مستقلاً بأعبائها ، أضفت عليه ملابسها ، وكشفت له عن نفائسها ، وأماصت عن سرها الحجب ونفت عنه معتلج الريب ، وكانت له رائداً فيما يصب . وهادياً حيث يؤم ويذهب ، فإنما تفصح الطبيعة عن مضمونها ، وتظهر مكنونها ، لمن تكون فيه القدرة على فهمها ، وتوسمها من معاريف رموزها ، واستشفافها من وراء لثامها ، ومن تظن فيه الإيفاء في الوفاء ، وتستشعر من الأبرار في الحفاظ ، فإن دفاق الطبيعة وأسرارها وحصائص معانيها ليست مبذولة لكل أحد ، ولا مذلة لكل من يسط إليها كفاً . أو يروع إليها طرفاً ، ولكن لمن إذا نظر كان وما ينظر شيئاً أحداً ، والشيء لا يعرف إلا شبيهه ولا يحيط به إلا ضريبه أو ما فيه منه شائش . كما يعرف الحديد الحديد ويجتذبه إليه ، والإنسان من طينة الأرض فليس يسي مسه ، أو تخفى عليه طبيئته وجرثومته ، والطبيعة كتاب مطوى تعبر منه في كل عصر صحائف يتلوها على الناس أناس هدوا إليها ، ودلوا عليها ، وكشف لهم عنها ، ورُفعت الحجب بينهم وبينها .

« وكما أن الماء إذا بلغت حرارته المائة ، لم يرده إلخ الحار شيئاً ، واستوى عند هذه الدرجة كل ماء ، كذلك لعظمة الإنسان عية ليس وراءها زيادة لمستزيد ، ولا فوقها مرتقى لهمة . يستوى عندها كل من يلعبها » مهما تهاوتوا وتفاوتوا .

يظهر في العصر ثلاثة أو أربعة يحاولون أن يلموا هذه الغاية ، ويرتقوا

إلى هذه النهاية . والناس ، من حولهم ، يرمونهم بعيونهم ويتبعونهم بأبصارهم ، وهم محدودون في الإصعاد ، مندفعون في التوقل ، لا يكثرثون لمن نظر ولا لمن لم ينظر ، ولا يبالون ما يعترضهم في سبيلهم ، حتى تتعاضد أحدهم عقبة فيهم ويتعلل بأد لو كان على الجهد مزيد لبلغه ، ويثبط الثاني تعاقب الموانع وتواصل العقل ، فينكل عما شعر له ، والناس بين مبتلى له عاذر ، وضاحك به ساخر ، ويمضى الآخرا حتى تكتنفهما السحب ويغيبا عن عيون الناس وترمقهما النسور ، ثم يشتد البرد ويعظم الخطب وتثور الرياح وتهب العواصف ويتوعر المرتقى وتتصدع الأرض فيهوى أحدهما ، والمجد خور وغرر ، ويطلق الآخر متخطيا رقاب الموانع ، مذلا ظهور العوائق ، بين يروق السحاب ورعودها ، وثورة العواصف وهجودها ، حتى ينتهي إلى العاية ، ويبلغ النهاية ، فيصافح كونفوشيوس وبوذا وموسى وعيسى وعمد وهومر وشكسبير وملتون والمعري والمنتبي وجوته وشيللر وتوماس هاوردي والفردوسي وغيرهم ممن لا حاجة بنا إلى حصرهم .

یہ ، کا آوری جالیو بدائنه مترو ، وکا آوری کیلر بجالیو ، و دیکارٹ
بالجمیع ۔

ولكن - كما يقول صاحب الرأي والمثل السابقين - ما عسى دهشة
صبيان تكون ، إذا علم أننا لا نعتمد اليوم في حساب سنة على سنة
ربون إذا رأنا تسحر من قوله إن الروح مقسمة بد شديدة حركتها
أو لا تكون ، وهو من تعلم ، إذا قيل له إن ماء البحر لا يشفي كثير داء
شعر إذا علم أن المادة تنحرف إلى ما لانتهية به من وأجزاء " ورسالة
بيل له أن حامس العناصر ليس له حركة كبرية لأنه سر مت عشير
دوس " ! أو إيمان إذا علم أن احتلاط الشتاء وهو يقصده سونته
ومعها بعضها قرباً للآفة لا يقع من القصور ولا غيره " كرسام
دعنا له إن الأرض ليست مسطحة ، وإن الخور سر مستدير محدود ،

وإن لحم الإنسان ليس خير طعام للإنسان ، وإن الأب لا ينبغي أن يتزوج من ابنته ، وإنه رب كلمة لا تقتل الحية ولا تذلل الدب ، ولا توقف النسر في الجو ، وإنه وإن كان سيف جوتتر مصنوعاً من خشب السرو فليس يجب من أجل ذلك أن لا يصنع النعش منه ، وإن العنقاء لا تعيش في سر ولا في غيرها ، وإن الهواء لا يحمل الأرض كما تحمل العربة الأتفال . وإن الشمس لا تشرب من البحر ولا القمر من الأنهار . وأخيراً .. إنه لا يعرف شيئاً !! وإن كان أهل أثينا قد نصبوا له تمثالاً نقشوا عليه :

« إلى كريسياس الذي يعرف كل شيء » !!

والأمر في الشعر على خلاف ذلك لأن الآتي لا يفوق الفائت ولكن يبلغ شأوه . ولا خوف على متقدم من متأخر ، فإن المتنبئ لم يخمل اسم الشاعرة . ولا صغر المعرى قدر البحترى ، ولا أنزل الشريف من رتبة نبي هاني ، ولا ابن الرومي من بشار . وتعجبنى كلمة كتبها جوتته إلى معاصره وزميله شيللر قال :

« لقد عادت النفس فحدثني أن أنظم في قصة » ولیم تل « قصيدة ، وست تحسني على من روايتك ولا بأس عليك مني ، ولا بأس على منك . وقد صحيح لأن الشعراء لا يركب بعضهم أكثاف بعض ، ولا يدين بعضهم بعضاً ويمشي أواخرهم على هام الأوائل .

وليس الأصل في الشعر التقليد والحكاية والطبع على غرار من سبق . إذ لو كان هذا كذلك لا مستوحب ذلك أن يظهر المحول في آخر العصور ولما ظهر أحد منهم في أولها ، ولكنت ترى الشعر في جاهلية الأمم وبداهة كالشعر في حضارتها ، لطيف تحيل ، ودقة معنى ، وسداد مسلك ، وفصاحة نغاية . وإن اختلفت وجهه الفخر وباسات أساليب تناول . لأن شاعر

إنسان لا يلحقها نقصان ولا يعروها فتور . كالبحر . وليس ريد البحر صوب العمام ولا يصيره احتباس الغيث . وكما أن البحر إنما حس يست ما في صدره مرة واحدة ، ويفضي لك بجميع سره موجد منتظم ، وأديه المصطفق ، ولجه المريد ، وثيجه المغبر ، كذلك يستريح إليك الشعراء . ستكون سر النفس الإنسانية واطل أمرها ، ويفتتحت صهدها . حسبت من كل عصر ، وكتشاع الأمواج تتلع الشعراء .. « سلس لا يبدد فتور الرومانسيرو ، ويرسب الانجيل فيطفو القرآن » وتأتي بعد نسيم الناس زوبعة ابن الرومي ، وبعد صبا البحترى صرصر المعرى .

ورب مستفسر يقول : إذا كان هذا كذلك أفليس كل واحد صوة معادة لمن سبقه ؟ وهذا خطأ ، وهو أيضاً صواب ، فإن شعراء جميع أشكال ، على أنهم ، بعد ، يتفاوتون التفاوت الشديد . فليس . حد . الأصوات مختلفة ، والقنوب متطابقة والأرواح متباينة . وكل شاعر يصنع الشعر بطابعه ويسمه بميسمه .

كذلك الرياح نسيم وعواصف . وصرصر وحوور . وهي بعد كند . والأيام ست وأحد وإنتان . ولكن يوم حودته ومير . وهي بعد كلها أيام ، والشعراء هومر وشكسبير وفرجيل . ولكن صفة في سير بها ، وهم بعد كلهم شعراء وكلهم هومر وكلهم شكسبير .

وبعد فلما كما رأى القارئ لما نسفعا عليه القول في صير كائنه . إن رأى كارليل الذي بسطه في كتابه . الأصيل وعدة حقويه حيث شاع « هذه حقائق كان الأقدمون أسرع من إدراكها من حين كانوا بدو من النور والمعطف في شأن الكائنات يفترون إليها وجهها بوجه . وإبرون . لإحلال حشر قلوبهم . أنتك كانوا فهم لايت به في كونه وشره . في عبده كانوا يعرفون كيف يمدون النصعة . وحسن من ذلك كيف يعبدون الإنسان ! » .

بيد أننا لم نذهب إلى أن الأقدمين كانوا أضعف منا إدراكاً للعظمة والبطولة ، ولا أقل فطنة لمعانيهما ولا أبطأ حساً . وإنما قلنا إننا أحسن تقدير هذه المعاني منهم وأقل غلوّاً وأدق استشفافاً واستبطاناً لكنهها . وهذا مالا ينكره علينا كارليل في كتابه الذي أشرنا إليه ، فإن الناظر في كتاب لأبطال يعرف من تنويبه وتنسيق فصوله كيف تطور معنى البطولة واتسعت دائرته كما تطور كل شيء في العالم ، وكيف أن الإنسان كان في بادئ الأمر يعبد الأبطال ثم عرف أن الألوهية ليست للإنسان ، فظهر الأنبياء وصرفوا الناس عن عبادة الناس ، وصححوا خطأهم في ذلك وكسروا من غلوّاتهم وأقاموهم على طريقة هي لا ريب أمثل وأفضل ، ثم ترك الناس بعد ذلك أن البطولة ليست مقصورة على الأنبياء وأنهم يختصوا بها وحدهم دون غيرهم ، وأنه رب عيسى كلوثر هو في المنزلة لأولئك من الأبطال ، ثم مضوا إلى أن الأنبياء والقساوسة ليسوا كل العظماء . ولا يتصور عظيم . والفيلسوف عظيم ، والملك عظيم ، فهل يدعى بعد ذلك أحد أن اليوم ليساً توسع من الأقدمين محال فكر وأعد مطارح نظراً . ولا نستطيع للعظمة في جميع مظاهرها ؟ ثم أليس ترى أن الأقدمين كانوا يتوجهون إلى العظماء بقلوبهم دون عقولهم ، وأنا تتوجه إليهم بقلوبهم وعقولنا معاً ؟

...

وبعد ، فسيم كل هذه المقدمة ؟ أليست ترجمة لأبي الرومي ؟ واوحد من الرومي لو علم أنه سيظهر في القرن العشرين وحل يخرج به من الخصومات التي أراحها عليه إهمال المؤرخين السابقين من العرب ، وأسهب على حياته حظه الأعمى وحده العائر ؟ وأن هذا المؤرخ النصف المتعصب القلب سينظمه في سلك العظماء ؟

لا . فما نطمح أن نؤدي للفتاوى ترجمة لهذا الشاعر تحكمة الحدود مدمجة التأليف ، واصحة الطريقة . وأنا من ذلك أهمل يأمل كبير ، فما مدد

رجلاً أصابه ما أصاب أبي الرومي ولا شاعراً نهاناً به من حيث وميت وتناسوا ما يجب له إلا هو ! بل لست أعرف قوم هم أشد استعصاماً بكرائهم ، وأقل إجلالاً لرحالاتهم ، وأعظم تعاماً حنوقتهم . أصل سهل الحقيقة أقدارهم من العرب ! وليس بحسبي ما في هذه النفوس من نفوس البعض موقعاً سيئاً ويصادف منهم كل السخط ، أشد منه لأن للتقديم روعة وحلالاً وقدرراً في النفوس ، ومهية في السور . وسجديد المياغت صدمة يضطرب لها الذهن ويجلد لها العقل ، حتى إذا سكنت طبيعة واطمان الروح ، وثابت النفس تبرز مرة مبعده من غيبوبة . حتى من السداد ، ومن أجل ذلك قالوا ينبغي أن يكتب الكتاب على أن يبرز كنههم أعداء وكلهم خصوم . بيد أن من راض نفسه على عرجي غسق واتحافى عن قول الزور ، ومن شأنه التوق إلى أن تقر لأمر فريده . ونوضع مواضعها ، ومن يربأ نفسه عن مرتبة مقصد سيدي في ربه . وبوأتينا على ما نقوله وإن آلمته الصدمة فإن الحق ، وإن كان صادقاً ، لا أنه حق ، ولحسن حلقاته أن لا تدفعنا العصبية البطلة والتشرف بكذب . بل وصف الزور وسج الأفك وتمويه الحق وتبليسهم بغير وجهته . وربما سببا إن فارت بعض النفوس من الغضب ، وثارت بها حمية متقصعة وخميلة الملققة وشهوة انبهاة الكاذبة ؟ مبهمة الغضب بالحق والشرف . أن كان له أبناء يزعمهم أعياء ؟ وما بيان من سخط من رضى به من حنينا كل ما فيه للتاريخ رصوا ؟ وهل ترى عصبهم يعبر حق صرح بعدم في بدائه العقول ؟ أم هل يلقى تسخطهم أن مؤرخي العرب منسرون ، وأن تعريضهم قد ألسن أبي الرومي وعبره برذا كفيف مسح عند السرح لاسد العين فيه ؟

وليس يزلنا عن رأينا هذا ما عسى أن يفتح به خصومنا في مذهب

من أن البيت الواحد من الشعر كان يرفع قبيلة أو يحط منها ، وأن القبيلة من العرب . كانت إذا بلغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأظعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر وتباشر الرجال والولدان ، وأن أمراء العرب وخلفاءهم كانوا يقربون الشعراء ويملاؤن أكفهم بالعطيات وأيديهم بالجواهر والصلات ، وينزلونهم منهم في أمرع جناب وأصدق منزل ، أو غير ذلك من الحجج والشواهد والنصوص التي لا تدفع قولنا ولا تدل منه ، وإن كانت في ذاتها مما لا يمارى فيه ولا تنكر صحته .

ودلك أن الهجاء والتشهير وخبث اللسان أوجع ما يتجرعه المرء وتتوحره النفس ، وما زال الناس في كل عصر يتفزعون من ذلك ويتوقونه بكل ما في الوسع والطاقة ، تارة بالعطاء الجزل والنائل الغمر ، وأخرى بالمصاحبة والمدارة أو الوعد أو الوعيد . ومن ذا الذي يرضى أن تشتهر له شهرة فاضحة وممعة قبيحة ؟ بل من ذا الذي لا يتقى الذم ولا يحفل بالعضاضة ولا يبالي ما قيل فيه ؟ أو ما ترى كيف أن الكلمة الواحدة تخرج من به الرجل قد تعطل تجارة أمة بأسرها وتفقد ثقة غيرها بها ؟ والعرب قوم أولو سداحة ، شأن كل البدو وسكان الخيام فليس بمستغرب أن يتحجب من أبسطهم لسانا وأقوامهم عارضة وأوراهم زنادا وأسمحهم قريحة دواعي يعمون بها أعراضهم ، ويلبسون بها عن أحسابهم ، وسلاحا يستظهرون به على خصومهم ، ويستطيلون به على أعدائهم كما كانوا يتقنعون في الحديد لصيانة حشومهم وأموالهم وحريمهم ، وكما كانوا يعدون الخيول للملاحم والرحوف . وليس عجيب أن يسط الخلفاء أكفهم للشعراء بالنوال والمراب فإن ذلك أطلق لأستهم بالمدح وأكف لها عن القدح والظلم وأسد للملك وأحفظ له من الضياع .

هذه حقيقة الحال وواقع الأمر ، وليس في ذلك ما يدل على أنهم

أن الشعراء كانوا بمنزلة الخيول والسيوف والدروع ، أو ما يتفكه به على الشراب من التقل ، وما تزين به مجالس اللهو من الرنخان والورد . أو لم يقل ابن رشيق في كتاب العمدة : إن العرب كانوا لا يهشون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج ؟ ! بل لقد قالها والله ! وكفى بذلك هولاء !

مهما قيل في الاحتجاج للعرب والنضج عنهم والتصل لهم مما نغدهم به ، فإنه لا ريب عندي في أن الشعر كان عندهم في منزلة دوز التي هو بها عند غيرهم من الأمم والشعوب ، ولا شك أنهم لم يكونوا من سعة الروح بحيث يفتنون إلى جلاله الشعر ، ويدركون ما هيته وحقيقته وعظم وظيفة الشاعر ، وإلا لكانوا انصرفوا عن هذه السخافات التي أولعوا بها وأمعنوا فيها ، ولتناولوا من الأغراض الشعرية ما هو أشرف من المدح وأنبل من الهجاء .

وهذا باب من القول له اتساع وتفنن لا إلى غاية ، ولم يكن بحث أن سجنه لئلا تستفتح أبواب من اللداد خير لنا أن تظل موصدة ، لأن عهد الناس بأمثال هذه المباحث مازال حديثا ، وما زالت عقول السواد الأعظم غضة ناعمة تجرحها خشونة الحقيقة . وليس الداء بحيث إذا رمت العلاج منه وجدت الإمكان منه مع كل أحد مسعفا ، والسعي فيه محجبا ، فإلك لتلقى الجهد حتى تميل أحدهم عن رأى يكون له ، ثم إذا قدته بالحرائم إلى النزول على رأيك والصدور عن فكرك ، عرض له حاطر يهينه فعاد إلى رأس أمره ! ولكننا خلفاء أن لا سكص عن أمر نحن أنرا هذه الآراء وإن كانوا يشفقون من ليرازها والمعالاة بها ، واللأء ، والداء للباء ، أنهم ربما ماروك ولاحوك بألستهم وهم بقلوبهم يطلقونك ، جردا منهم وراء الجمهور ، ودهلأ إلى رأى الموعاء والأسقاط .

أظهر عيوب الأدب العربي في تقديرنا اثنان : فساد في الذوق ومشطط
في الذهن عن السبيل السواء . وليس يخاف أن هذين العيبين مجداحلان ،
وأنتك تستطيع أن ترد الثاني إلى الأول ، أو الأول إلى الثاني ، ولكنهما على
تداخلهما واضحا الحدود .

وشرح ذلك أن العرب وإن كانوا بطبيعتهم شديدي الإحساس ، لطاف
الشعور ، دقاق الإدراك ككل البدو ، إلا أن فيهم جفوة الصحراء وعنجهية
البادية فهم يجمعون بين فضائل البوادي ورذائلهم وحسناتهم وسيئاتهم
ودمائتهم وتوعرهم ، وهم لما ألفوا من الحرية ، لا يستطيعون أن يكسروا
من عبود نفوسهم أو يخسوا من أعتة عواطفهم . ففي كل حركة
وبعدائهم حدة حاحجة بغير لجام ، وشبهة ماضية بغير عنان . يضحكون
ويبضحكون ، ويثورون ويسكنون ، ويحبون ويغضون ، في غير رفق
ولا تأن . حتى تتكاد تلمح في كل أقوالهم وأفعالهم مظاهر الغلو والت
حدة وتوابع الضعفاء . فكأنهم استعاروا من الشمس وفدتها ، ومن الأرض
حزوتها وجذبها وشدتها . وكأنه شعرهم العود النبات في الخلاء ،
لا يبرقه . هراء في المروسة العذراء . وكأنما المناضهم فهرس للمعنى
س في نفوسهم تشير إليها إشارة النكاح ، وكأن قائدهم لجلاج تحتشد في
حاضره معنى فيجبل بها لسانه في شدقه ثم يحرجهما مزدحمة بعضهم في
ث بعض . وقد تخرج متصادمة . وبينها وفقات ينقى بها صرره . وأسعر
عرب شبيه ! وهل تخرج هذه العياني غير ذلك ؟ وهي لا تألف إلا
نفسه عجيبة . لأطلال الرواق . ولا تعشى إلا الأربع الأدراس . هو
وحدثت حياء منها وصعدت عنها لا فاد أراد الشاعر أن يستمد منها أوجر
كعب إليها صه . الآن ومون الساق . حتى إذا انشأ عنها ، شعله ، صعد
، رأى في طيفه إليها من المحوم . وكيف كان اعتدائه بها ، ومعد

عليه من الرياح ، وأومض من البروق ، خلجها وصادقها ، وأظله من
السحاب ، جهامها ومطرها ، وكيف أذكره القمر وجه حبيبته المذنب .
وجفلة السرب في الظلام نقرتها ليلة السفع ، ثم لا يزال يده يده
الأمر ويفضي بك من حديث إلى حديث حتى ينسى ما أوحى به حسنه
من بنات الشعر فيجتزئ بما قال ؟ !

وهذا صحيح لا يدفعه أنا نرمى به إلى الدعابة والمزح . عرب هرب
نرجم عن جد ، والناظر في شعر العرب يجد أن الشعراء جميعا قد ساء
في طريق واحد كما كانوا يسلكون في صحرائهم حروف
سحر منهم يقلد المتقدم ويحرق عن متبوعه
نمط ولأسلوب لا في الأعراض ، وحسنات دلت دلتا من حسن
حضرة والعجز عن التصرف .

لست نحاول الزاوية على العرب أو الغض من شعرهم ، وإنما نريد
نقول إن العرب ليسوا أشعر الأمم ! ولو أن الله فسح في البشء سوية أعده
وزادها نفسا في أجملها وسعة - ولكنه لم يشأ ! وإن أحلنا ليقا
لذلك فبمسلك قلبه ما يتبين فيها من سمات حداثتها وحداثتها
النبل والشرف ، وما يستشفه من دلائل الحياة والإحساس بالحسن وحبه
وعناديهما في جميع مظاهره . وما يتبين من ذلك شدة ونجته حدة
وحسن النظر وصفاء السيرة وعبر النفس ونسب وزجروها مع
من مظاهر الطبيعة .

هذه حقيقة لا موضع فيها تأسف . وما سكت أن شعوب تارة فقص
من خضرة وحلانة النفس بآسائه وحسن حور
من الخسرة أو من الخسرة حفسه حفسه من
من السائبة لأن من عده

رجل فاز منه بنصيب فهذا السعيد الموفق ، وإلا فهو معذور ومشكور ،
وليس يفض من أحد أنه انتصرف عن هذه الدنيا غير مُنْجَح .

وأنت إذا تأملت شعراء العرب وكتابتهم وكبار رجالهم لتعرف منازلهم
من العظمة ، ومواقعهم من العبقرية ، وجدت أولاهم بذلك ، وأولهم
هناك ، وأسبقهم في استيجاب التعظيم ، واستحقاق التقديم ، قوماً ينتهي
سبهم إلى غير العرب من مثل بشار بن برد ، ومروان بن أبي حفصة ،
وأبي نواس وابن الرومي ومهيار وابن المقفع وابن العميد والخوارزمي وديع
الرماد وأبي إسحاق الصائبي وأبي الفرج الأصبهاني وأبي حنيفة النعمان
وغيرهم من لا ضرورة إلى حصرهم .. وقد تعلم أن للورثة أثراً لا يستهان
به في تركيب الجسم واستعداد العقل ، فليس بمستغرب أن يرث مثل
ابن الرومي وهو آري الأصل - فارس يوناني - كثيراً من سمات قوم
وصفاتهم ، وأن يكون في شعره أشبه بهم من العرب . وحسب القارئ
أن يقارن بين قصيدة لابن الرومي وأخرى لغيره من صميم شعراء العرب
في أي باب من أبواب المعاني ليعلم الفرق بين المتزعين ، وكيف أن
ابن الرومي أقرب إلى شعراء العرب وبهم أشكل ، وإن بقي عريباً في لغته
وموسوعات .

وما ترحمة هذا الرجل ؟ قالوا إن اسمه على بن العباس بن جريح ، وقبل
حورحبوس ! حتى جاءه لم يمن أحد بتحقيق اسمه ! وقالوا إن ولادته كانت
بمدينة بغداد يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة
أحدى وعشرين ومائتين في الموضع المعروف بالعقبة ودرب الخليفة في
دار نراء قصر مولاة عيسى بن جعفر بن المنصور من سل العباس بن
عبد المطلب .

هذا حل ما ذكره المؤرخون من ترحمته « المبسوطة » فيما وصفه .

إليه أيدينا من الكتب ، ولينا جهلنا ذلك وأحطنا بغيره مما طوره عنا ودفعه
في روايا الغيب ! وليت شعري أي نفع لنا من علمنا أنه ولد بعد طلوع
الفجر أو قبله ؟ وليلتين خلتا من رجب أو بقيتا منه أو من سواه ؟ وبالعقبة
أو بغيرها من المواضع التي طمست أشرافها وغفت رسومها ؟ وأنه كان
مولي عيسى بن جعفر أو جعفر بن عيسى ؟ ما دمنا لا ندري كيف كان
مه أو من غيره من الناس ، وكيف كانت مؤلفاتهم له ومعاشرته فيه ،
كأن ابن الرومي لم يكن شاعراً كالبحراني أو أبي نواس اللذان امتلأت من
أخبارهما الأسفار ، أو كأنه لا يستحق من عناية المؤرخين مثل ما استحق
عمر بن أبي ربيعة واضرابه المخشون ، من مثل كثير وجميل ، أو المحدث
الذي ينكره بعضهم وينفي وجوده ، أو مثل ما استحق من كتب
في القاسم ؟ !

مولي عيسى بن جعفر ! مثل ابن الرومي لا يذكره المؤرخون إلا مقروناً
بأنه كان مولي لهذا المخلوق ! وليت المولى مع ذلك تعهده وعى به وكلمه
وستحق أن ينسب ابن الرومي إليه !! هذا العيسى بن جعفر هو الذي
يقول له ابن الرومي :

ما أنزل من القراب وأعمد ؟
لم لا أجرد في الضرائب مرة
لم لا أحكي التجريب أبي صارم
لم لا أحلى حلية أنا أهلها
لما من علمت مكانه وابن الذي
لا يبروا عداي وعند أبي يدا
لما وليكم حديثاً مثله
لم لكم حمداً : حمداً منكم
لما دعونا وانظروا لمسيحكم

لم لا أجرد والسيوف تجرد ؟
يا للرحال واني مهد ؟
ذكر فلم ألقى ولا ألق ؟
فيران سي بطل ويكنى منهيد ؟
ما زال فيكم يستعان فيحمد
بضياء ما تحدث ولبت نحمد
بصل القديم ونستم به اليد
لها ، وهذا مهما لا يعد
فيما علم بك مثله يستعد

ولد في خلافة المعتصم وأدرك الواثق والتوكل والمتصم والمعتز والمهتدي
وعتمد والمعتضد ، فلم يؤاسوه بأموالهم ولا أسهموا له في حياتهم .
ولا سنجحوا أن يكون في عصورهم شاعر مثله في الحضيض الأوهى من
خمر والحفاصة ورقة الحال ، ونسا بض أنه كان من الحمول وعموض
الحال بحيث لم ينتشر به الصوت إليهم فقد كان مولى رجل من العباسيين
وكان متصلاً بالوزير أبي الحسين القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد . وقد
روى المسعودي في مروج الذهب عن محمد بن يحيى الصولي الشطرنجي
قال : كنت يوماً تأكل بين يدي مكتفى فوضعت بين أيديها قطائف رفعت
من يد يده في هدية الصارة ورقة الخبز وإحكام العمل ، فقال هل
وصف شعراء هذا ؟ فقال له يحيى من عن نعم . قال أحمد بن يحيى
فيه

فصاف قد حشيت بالبور والسكر الماذى حشو الموز
سبح في آدى دهن الحور سرور لما وقعت في حورى

سرور عباس بقرب فوز

قال : وأنشدت لأبي الرومي وأنت قطائف بعد ذاك لطائف .

فقال هنا يقتضى ابتداء فأنشدني الشعر من أوله ، فأنشدته لابن

م...

وخبيصة صفراء ديارية نعماً ولوناً زفها لك جوز
نظمت فكدت أن تكون دارة وأنت فجاد إلهها بنظر .

فاستحسن المكتفى الأبيات وأومأ إلى أن أكبها له فكتبها .

وفي موضع آخر من الكتاب قال محمد بن يحيى الصولي : وأما

بن يديه بعد هذا يشهر فجاءت لوزنجة فقال هل وصف ابن الرومي
للوزير ؟ فقلت نعم ، فقال تشديه فأنشدته

لا يخطئني منك لسوريج إذا بدا أعجب أو غريب
لم تغلق الشهوة ثوبها ألا أنت أهدأ من جحش

فحفظها المكتفى فكان ينشدها .

وفي مكان آخر من الكتاب عن أبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن روى
بحرى المعروف بقطويه قال : أخبرني محمد بن محمد بن محمد بن محمد
المكتفى . فقال : فيكم من يحفظ في بيد الدوشاب ؟ فأنشدته في بيده

إذا أهدت حبه وديسه لم أهدت صبره وديسه
ثم أطلت في الإساء حسه شربت منه ليلي حسه

فقال المكتفى قبحه الله ما أشرهه ! لقد شوقني في هذا يوم من
وإنما استكثرنا من إيراد هذه الأحجار تعلم أن سيرة كذا وكذا في
محافل الخلفاء ، وذكره فاشياً على ألسنة بدمائهم . فكتبه عن نفسه
في كل فنون الشعر المعروفة ، وإحاطته في جميع أنواعه . فكتبه
عه من ذلك ، كان من الفاقة وحقارة الشأن وسقوط جده حيث
سجدى من إخوانه الكساء فلا يصيب منه قصاصة ، وفي ذلك مع
... فمن ذلك قوله لأبي جعفر السجستاني

دست كساء منك إذ أنت غم على فناء سعدت تعنى
... معاً إحاثت دوماً غيبة . وفيه سجعته
... فاستغنى عنده نفس به من سرور
... كان نفسي كادني هوى هوى وم حيث صبي فدا حرك
... من لادك حور قصه وبت محمده بجمع واحد
... سنانى نسا حور ... سحبت من حور نسا وأند

وقوله له أيضاً :

كسائي بني نوبخت فهلاً فإنني
أعيزك أن تأتي مسيرة ليلة
كسائي كسائي إله الدرب بيننا
ولا تحسني لا أغرد بالتي
فأعف بحفي في الشتاء فلن أرى
وصيراً فإن الحر باللوم تبتغي

فهنا وما سبق من مثله خليف أن يريك مبلغ فاقته ورقة حاله وخصاصته ،
وإذا ذكرت أنه ربما لزم كسر يته أياماً لا يخرج فيها ولا يتصرف ،
وحول حبة عرثي قد أخذتهم لعوة الجوع ، يشربون على ريقه النفس
وما تملوا شراهم بشيء ، وهو يخشى أن يروح يته مخافة أن يفجأه ما
لا يطيق احتماله ، والناس لا يرحمون ضعفه ولا يرفقون به ، ولا يكفون
من انتضاك منه والعبث به ، فمن هازل يتداعب به ويعيه بمشيته ،
ومن لثيم يزعم أنه عني ويرمي بأنه مخنث ، ومن حاسد يعيب شعره
سبحه ، وما بنفسه عليه ، وأنه ربما رق له حبرانه وحنوا عليه فبعثوا به
شعة من معدة وشربة من ماء ، وأنه كان يمدح أهل الثراء فلا يفيد سوى
الرد ، ويستصرخ ذوى الفنى واليسار فلا يغنون عنه قلامة ظفر - إذا
ذُكرت ذلك لم تسعرب قولنا في مستح هذا الكلام إنا لا نعرف رجلاً
ضله ما نسب من الرومي ، ولا عظيمًا تهون به الناس حينًا ومن
لا هو ، على أنه لو لم يكن عظيمًا ، كان من أخلاف عصره ومحبهم ،
محبين لثوبه ورجوعه ، ولما استعسا كيف يحب عصر من أهل المرأة
ولا يجيب ، فالحق وهو شعر أهل زمانه والرومي على قوله ؟

رومي ثم سحر الحصري في هر الآداب قال : قال علي بن إبراهيم
ابن مسروق الملحى ، كنت جالساً بداري وبدا حجارة سقطت بأعرج
مسي ، فبادرت هرباً وأمرت أعلام بالصعود إلى السطح ونظرت إلى علي

باحية من أين تأتي الحجارة ، فقال امرأة من دار من الرومي مسدود قد
تشتوت وقالت اتقوا الله فيما واسقونا حرة من ماء ، ولا تلمسوا قدس
من عندنا عطشاً فتقدمت إلى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة ، لم تصعد
إليها وتحاطبها ، ففعلت وبادرت بالحرة وأتعتها شيئاً من ما كان
عادت إلى فقالت : ذكرت المرأة (التي في دار من الرومي) أن
مففل عليها من ثلاث سبب طيرة أبي الرومي فتعجب من حبيب
على أن شعره حافل بالشكوى مما لقيه في حياته من أذى الناس وصف
أيام وعنت الليالي وإثكار حقه وفصله على الشعر ، وما حل من مشقة
ذلك لاحتجنا أن ننقل أكثر ديوانه .

ولو وقف الأمر عند حد الفقر والخصاصة لقد فسر بعده ، وفي
أرض كثير لا يحيط بهم حساب ، وممرات نيت حار بأدب
على الأدب فتعرض عنه الدنيا ويسرع عنه ما والست بلا في حبس حبه
منس وظيفة الأدب فهمها ، ويكون طام المجتمع حبه ومفر من
كفاية أسباب الظهور والانتفاع بآتته ، ولكن الأمر أسوء من ذلك
في جاور الاملاق والفاقة إلى ما هو شر من ذلك وضعب

قالوا : كان ابن الرومي مغرط الطيرة شديدة الغلو فيها . وكان من
عده أن يلس ثيابه كل يوم ويتعوذ . ثم يصير إلى الباب ، والمفتاح معه ،
فضع عبه على ثقب في خشب الباب . فتقع عبه على حافة الباب
بآتته ، وكان (أي حارة) أحدث يقع كل يوم على بابه ، فإذا نظرت
رجع وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب .

وفي هذا الأحذب يقول :

فصرت أحاذيه وطال وقته
وأحس منه حساً واحداً
فأدركته منقلاً من أفضله
وأحس منه حساً واحداً

لعلنا نهتدي إلى بعض السر إذا لم نوفق إليه كله ، بقول بعض السر لأن
النفس الإنسانية أعمق من أن يسبر غورها نظر الناظر ، وأعمق من أن
يحسر عنها ظلال الألهام فكر مفر ، تلك دعوى يقصر عنها باعنا ولا يسعها
صوقها . لأن للحقائق المادية حدا تقف عنده ، وعاية تنتهي إليها ، وإنما
ينفون أحدا بالأغلب من الظن إذ قال ، وبالأرحح في الرأي إذا نظر ، وإذا
أصاب فموفق مجدود ، وإن أخطأ فمشكور ومحمود ، وليس يعيب أحدا
أنه سعى فحاج ، وإنما يعيب أنه قصر وعطش ، لأن دواعي الخطأ أكثر من
دواعي الإصابة ، إذ كانت الوسائل قليلة محدودة ، والغايات لا آخر لها
ولا نهاية .

وليس الفرق في درجة حدة الإحساس ، وقد يكون السبب في الحالين وصول مقدار جم من الدم الفاسد إلى موضع في الجسم وقد كان خلافاً هذا الموضع العصبية ووشائجها بقطعها مفرقة حس . ولكن في كثير من العقريه حوساً أو يفتل الحيون عذبة . وليس كما في سراج دشت شادان حاجة لتلا يخرج عما قصدنا إليه وإنما يقول ان الذي حلقه بيننا وبين ماضي من الزمن ، وورطهم فيما تورطوا فيه من الحجابات . وادهم إلى التعلق بالمحالات ، هو حسبانهم أن العقل البشري شيء غير محسوس والله جوهر روحاني متصل بالجسم ولكنه غير خاضع لقوانين المادة . وقد العلم الحديث خطأ هذا الظن وقساد ذلك برغم مبرحه شديداً . والعلما في هذا المعنى إذا أراد التحقيق .

(١) رثى الخمر الرومي أنه بتعبه ميمية يقول فيها .

أبني إنيك والعزاء معاً
تألفه لا تفكك لى شجنا
ما أصبحت دنياى لى وطننا
ما فى النهار وقد ففدتك من
ولقد تسلى القلب ذكرته
أولادنا أأتم لنا فن

أبو بكر بن محمد بن علي بن أبي طالب
فرط آذان الحسان الجور

وقوله :

لِمَ تَسْجُدُ لِلْأَرْضِ بِعَيْنِكَ زَيْنَةً فَتَضْحِكُ فِي أَنْفُسِهَا كِبْرًا ؟

وقوله :

(وخلت عيون النور تخضل بالندى
 (تراعبتها صوراً إليها روانها
 وبين إغضاء الفراق عليهما
 كما أغرورقت عين الشجي لتلماها
 ويحظن الحافظ من الشجو خضما
 كأنهما خلا صفاء تودعا

هذا ، وليس أقطع في الدلالة على ضيق الخلق لمن الرومي ونزق طبعه
فقط ثراه ، من أحاجيه هذه . والظاهر منها أنه كان يدفع في الشبهة
وغيره . وسبب الخلق في الناس لأهون سبب ، ومن أجل أشياء لا تهيج
روح السيد الرشيد ، كان يعيه واحد بمشيه أو ينعي عليه صلعه .
بعض فاته ويملي عشا عن عاتيه ويناوله بكل قبيح ويلصق به كل سوء
شعأ ومعرفة دهماء . وفي ضيق الخلق وتوعره يوهان على الاضطراب
واختلال توازن الأعصاب

ولا يكتفى من كتابا يتحككون به ويهيئونه لما يعلمون من صنف
خاصه وساده خاصه . لأن الناس في العاده لا يستشيرون بالدفعه
والاستشارة . فلهذا من احبب الراسخ البطايع لا تفلقه المحامه والمعاكفه
من يري لأفكاره وفكره في القضاة ، هل يستفرون إلا المرحس
من يمشي . مع حبه واحده . مع غه النادرة ؟ ولقد كان أهل زمانه
يعتبر شرفه من إفادهم بحديثه وحكمه . وإرشادهم له في المحاليس .
ولم يأت على طلاب الأدب في حلقات الدروس . مهل تحسب أنهم كانوا
يعلمون ذلك إلا ليستشيروا ويضحكوا به ؟ ولقد روي لك فيما أوردناه
من أخبار ابن الرومي أن بعضهم قال . كان ابن الرومي إذا فاضه التامد
في مقعد يمشي على ممر حار . فهل بعد هذا شك في مرض ابن الرومي
والحال أن أحسنه ؟

ديوان ابن الرومي

(1)

كلمة عامة تمهيدية

هذا الكتاب أصغر من عنوانه . اسمه « ديوان ابن الرومي » وحقيقته مختارات من شعره التي خها شاب فاضل من أهل بغداد . وهو كامل أفندي كيلاني ، وأهداها إلى شيخه أبيه . وبقيت في مجلد واحد ، جملة صفحاته خمسمائة ، فيها تحريكات من شعراء البيت . وصدرها بمقدمة رائعة وضعها صديق الأستاذ عبد الله بن الرومي . لم يدع فيها شاردة ولا واردة ، ولا شائبة ولا حتى صار قصارى غيره إذا كتب أن يترجمه ويفصل ما أحسن . وهذه المختارات ، في ذاتها ، خير ما كان ينتظر . وإن كانت على حد مجموعة حيثما اتفق ، ومسرودة على غير سبق مفهوم وهذه معيبة ، ولكن وراءها فكرة ظاهرة أو عريضة بطلانها . سوى حشد طائفة من الشعر ! ولقد والله ألما ، ونحن تصدح الكتاب وبعد أن يرى ابن الرومي مقطع الأوصال معبر الأشكال على هذه الصورة ! ولعلنا محظنون أو مبالغون في إسالة الظن بالمختارات على العموم ، وفي عام الركون إليها والاعتماد عليها . ولكن ابن الرومي من شعراء العرب ، وما في الوسخ أن تقتطع من شعره ما يخرج من هذا . ثم نقول هذا هو ابن الرومي . كما لا يسعك أن تختار نخباً من

رواية لشكسبير مثلاً ، وأن تزعمها بعد ذلك هملت أو الملك لير أو مكبث أو غير ذلك ، إنما كان هذا هكذا لأن ابن الرومي أقرب إلى شعره الغرب وبهم أنشبه ، ولأن البيت في قصائده ينذر أن يكون وحدة قائمة بنفسها ، مستقلة عما قبلها وبعدها إلا من حيث معاني النحو ، كما هو في قصائد العرب . وكثيراً ما يشذ ويخالف أوضاع العرب في اعتبار البيت كلاماً تاماً في ذاته غير متعلق بما يليه على مقتضى أحكام اللغة .

ولنا نطمح أن نضيف شيئاً إلى ما قلناه صديقنا الأستاذ العقاد في مقدمته الجامعة ، فإنا من ذلك على يقين كبير ، وإنه ليكون حسينا أن نستطيع أن نصف هذا الشاعر ، لا أن نخلطه ، لمن لا يعرفون عنه إلا اسمه ، والا بضعة ثياب سارت على الرغم من غموم قائلها ، وأن نحببه إليهم ، ونفريهم بقراءته والإقبال على مطالعته . وابن الرومي ، بعد ، أحب شعراء العرب . ونعظمه حبب . فليس أعذب ولا أشهى لللباس أن يفتنى ساعة معه ولو كل أسير .

وكأننا بلبن الرومي قد بدأ التحس برأيه ! ففي بضعة أعوام طبع جزء من ديوانه . جمع له محتات يستحق حاميها وباشرها أضيف البناء . وما يحسن أن يدرى ذلك من حمل في حياته حمولاً منقطع الطيف في - مع أدب . مع موضح حبه وإقراره بالمرء حتى في زمانه . ومن خفي شأنه أكثر من عشرة قرون صديقات انداد ! وإلهيك برجل كان يسبح الشعر محباً . وملا الدنيا بالرائع منه امتدوا الذي يشد في محاليس حياء وأدباء . وفيه في حنقات العلماء والأدباء . وهو مع ذلك يجمع الحبس والحرى . ولا يحد من حد حبه . وروحه مائة . ومات فمات مع دمه وشعره . وبخل معناه كل هذه الحروف لا يعرف

عنه حتى الخاصة أكثر مما ورد في تراجم العرب . غفر الله لهم . من أن اسمه على بن العباس بن جريج أو جورجيوس - فإن في اسم حده شك واختلافاً !! - وأن ولادته كانت ببغداد يوم الأربعاء بعد طلع حجر لليلتين خلقتا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين في موضع يعرف . وكان يعرف ، بالعقيقة وحرب الخلية في دار بازاء قصر لمولاه جيس . جعفر بن المنصور من نسل العباس بن عبد المطلب ! ثم كنهه - جيس !

أما كيف كان يعيش أو ماذا كان يصنع غير الشعر الذي يقولون به كان أقل أدواته « فلا يدرى أحد ! فليس مبدعاً بل مبدعاً . ويؤخذ منه أنه كانت له ضيعة ! نعم ضيعة معه . جيس ! . بعضهم من التحلف ولا تقطاع عنه .

وبعد فإن عذري في قصوري حدوث حوادث منها حريق فلم أسأل له خلفاً ولكن يجمع فداءك إن رآه وأما قل ذاك فلم يكن في غاسي . ضيعة « ما زلت معها غير أن الله لم يبارك له فيها ولا في عنها ! كما هو صريح من رثائه التي أوردناها . وكان إذا أحطاه الحريق حتى يتجيب . . . الحراد يأتي على ررعه كما يقول .

عادني منذ ررعه المواد كنت ررحو حصاده فأتاه قبل أن يبلغ الحصاذ الحصاذ

وكانت له دار غير التي مات فيها ففصبتها منه امرأة !! فكاد يجن ! واستصرح الورير عبد الله من سليمان بقصيدة يقول فيها :

أحين أسرت الدهر بعد عتوه
فأصبحت مكفياً همومي مزايلاً
تهضمني أنثى؟ وتغصب جهرة
لقد أذكرتني لأمرئ القيس قوله
أجرني! وزير الدين والملك إني
توب شخص وأهن الركن والقوى
هو النكر من وجهين: غصب وبدعة
فلا تلمني للأعادي وقولهم :
أريد ارتجاع الدار لي كيف خيلت

وفلت منه كل ناب ومخليب
غمومي، موقى كل سوء ومغليب
عقاري؟ وفي هاتيك أعجب معجب
«فإلك لم يفلح مثل مغلبه» !
إليك بحقي هارب كل مهرب
على أيّد الأركان لم يتوئب
وفي النكر من وجهين موضع معتب
ألا من رأى صقراً فريسة تؤنب!
بعكم ممر أو بلفظ مسبب

يعني بحكم قضائي نافذ أو بحيلة لطيفة . قيا له من مسكين !
ولم يكن مولاه هذا العيسى بن جعفر يوليه شيئاً من جاهه أو ماله
فكثر عتاب ابن الرومي له وبما قاله :

مالى أبل من القرب وأغمد ؟
لم لا أجرد في الضرائب مرة
بل قد حكى التجريب أنى صارم
لم لا أحل حلية فنا أهلها
فأنا من علمت مكنة وابن الذي
لا يتروا عتدي وعند أي بنا
أولسوا وليكم حديثاً مظل
بحر لكم حملين : حملاً منكم
أزعو زروعكم حين تعهد
فأنا من عرفت وفاءه وصفاه
إلا أكن في كل ذلك أوحداً
هني امرأ ليست له بك حرمة

لم لا أجرد والسيوف تجرد ؟
يا للرجال وقتي لمهند ؟
ذكر قلم القتي ولا أقفد ؟
فيزان بي بطل ويكفي مشهد ؟
ما زال فيكم يستعان فيحمد
بيضاء ماجحلت وليست تجحد
يصل القديم وتستقم به اليد
لحماً وحملاً منها لا ينفد
منكم فعل ، زروعكم تستعهد
وولاهه ليلك إذ هو أسرد
فرقاً ، فإني في المودة أوحداً
نرعى ، أسالى رلة تستغمد ؟

فلم يجده العتاب والتألف وقضى أكثر عمره في ضيق ليس أفاع من
الدلالة على أثره في نفسه وفي جسمه من قوله
أيها حسرتنا إن أفسد الضيق صحتي

فضاعف حاجاتي وأوهى ثوب يهضي
وكان يبلغ من غاقه ورقة حاله وهوان أمره ، أن كان يدفع عن الأبواب
بفظظة ، وإلى هذا يشير بقوله :

وكم حاجب غضبان كاسر حاجب
عبوس إذا حيته بتحية
يظل كأن الله يرفع قلره
إذ ما رآني عاد أعنى بلا عني
أزف إليك البكر مازف مثلها
ومن شيم الحجاب أن قلوبهم

عنا الله ما فيه من حس
فيالك من حس من مش
محاط من فدي من مش
وسم سمع من شدي من مش
فيدع منها في مش من مش
قلوب على آداب نسي من مش

بل كان من الفقر بحيث كان يستجدي من إخوانه الكساء فلا يصيب
منه قصاصة ، وله في ذلك شعر كثير ومنه قوله :

جعلت فداك لم أسألك
سألكه لألبسه
ذلك الثوب للكفن !
وروحى بعد في البدن

وربما فاز ، ولكن بما لا يعد ثوباً إلا على اللجار ! كما يقول في ثوب
عتي جاء مرة :

قد طوى قرناً فقرناً
ليس الأيسام حتى
غاب تحت الحس حتى
وقللاً فقللاً
لم يدع فيها لبناً
مما نرى إلا قياساً

وكان يمدح أهل الشراء فلا يصيب إلا الرد ويستنرح القدرين فلا يعور

عنه . بل لا يقرأون كلامه أحياناً كما يدل على ذلك قوله لصاعده اس
مجدد .

يد سيد الله ينشئ عرصه	نظم رائيه ولا حباره
صهره أحسن من عييه	وعنه أحسن من طاهره
ومن هذا ليرى حب سوره	فإنما يقدح من خاطره
ولا يرى أنف من دهره	فيه ولا أيمس من طائره
نور ما نل من حاحه	أن تقرأ الشعر إلى آخره
قرءه صدر عن بيته	تعمهم قلب المرء عن ناظره

وم يكن أخصه على ما يظهر أرق به ولا أحسن رعاية له كما هو واضح
من قوله .

ن من عه يحرق انحر محتهدا
حي فعلن ما يحيى فيخلدلى
على قدماً ولا يصلى له نرا
وكلما كان رندا كنت مسعرا
فونه من قصيدة أخرى وهو أوضح وأعم :

نسى بر بالافكار واصل على حذر في جلهم وعلى بعض

وم فتصر لأمر عن ذلك لما بعض الشيء ولكن شبحنا كان أيضاً
ينصب . وكان طيائفاً ومحمقة . أو إن شئت فقل إنه كان لطيف الشعور
دقيق حس عا فاعبر نفسه . أقدار غيره من معاصريه ، فأورده ذلك موارد
مده . وكان ربما به يته أياماً لا يخرج ولا يتصرف ، وحوله صبه
وساء حياض ضياء . محافة أن يرح الدار فيباعته ما لا قل له باحتماله
لما يتطير منه . وقد كان يتطير من كل شيء . والناس لا يدركهم غيبه
خصف . ولا تأخذهم بضعفه هذا رحمة ، ولا يصدهم إصاف أو نقد .

عن معاشته بما يكره وما ينقل وفعه عنه . فوجد بعضه حسبه ورحمته
مثل مشية المحشين ، كما فعل أخوه . حسبه . ومن من
يتروح استه . وآخر يقدح في شعره . وهم يستجده . يحبه . ومن
هحاء . وكان ذلك دأب الأحفش ووكدته . وثبت بعد بعض حلا
والرائس وإشاره العمامة على خلاف أهل عصره . ومع سبب ذلك
أن صلته والتصانح منها . وهو أحسن بيت كتب من الشعر .
والسكوت . حتى فقد كان في شغل مصير من الدار على حسبه من لا يحسن
عليهم مكانه ، ولا يقصدون إلا أن استتارته ليركبوه .

وهكذا عاش ابن أرومي فقر وعطش وحرب وسجدة لا يرى
ويون مناجزيه من الحادين والفارلين . ولم يكن يفتنه إلا
الوزير أبو القاسم من يطعمه فطيراً مسموماً لشم رؤيته شوقاً من
لما ديول على ما يطهر ! فقد كتبت عنه منذ عشر سنين شعاع من
مكد أفرع من الأولى أو الثانية حتى كسر رجلي ما لا يحسن .
الشيخ شريف الجزء الأول من ديوانه فأحيل إلى معاش . ويصعب
مكنة التجارية هذه المحترات من شعره فهيضت ساقه ! فحسبنا حين يعود
بكلام عليه لا تكون قد دقت عبقاً .

لم يكن ابن الرومي عربياً ولا شبيهاً بالعرب وإن كانت العربية لغته التي لم يكن يعرف - أو التي لا نعلم أنه كان يعرف - سواها ، ولقد ولد وشب وترعرع بين العباسيين ولايسهم وصار منهم ، بقضاء من ختمت رسل الإله به ، كما يقول ، ولكنه لم يصير بذلك كالعرب ، لا في طبيعته ولا في قته ولا في أساليب تفكيره ، بل حتى ولا في عاداته وأخلاقه . وقد ذهب بعض كتاب العرب إلى أنه سمى ابن الرومي لأنه كان جميلاً في صباه ، وأوردوا ذلك على أنه احتمال معقول وتعليل مقبول . وليس الأمر كذلك ولا هو يمكن أن يكون كما زعموا ، وأحسب من يقول بذلك إنما يدل على أنه لم يقرأ شعر ابن الرومي بغير عينية .. فإن الرجل لم يذع مجالاً للشك في أنه رومي على الحقيقة لا على المجاز . ومن غريب ما يلاحظ المطلع على ديوان هذا الشاعر ، أنه يسمي نفسه إلى الروم ، ويذكر في أكثر من موضع واحد أنهم أصله ، وإن كان جده لأمه فارسياً كما أن جده لأبيه رومي . وشاهدنا على ذلك قوله في نونية الشهيرة التي مطلعها :

أجنيك الوجد أغصان وكتبان فيهن نوعان : تفاح ورمان

إن ترجيل إن من آت اسمه أمر ، ثمعه بالبحر إيقاع
فدح القهقي ومن العملات له تحك كل شرود وهي مدح
إن لم أكن منكاً أشقى الحضرة فلم يندى أبو الأملاك (يوان)
بل إن عدت فلم أحسن مياسها فلم يندى أبو السواص (ساسان)
ولكنه يدح القهقي فده أمه ولا ينسب إلا للروم أهل أمه ، حتى .

يبحر بمواليه من بني العباس ويعتده أمه . مع أنه لم يكن يسمي عبد مقدار تغفل الفرس في الدولة العباسية وتغلب المدينة الفارسية عليها :

قومي بنو العباس ، حلمهم حلمي كادت ، وجههم حيل
بلى بالهم ، إذا نزلت بلى شدة ، وجههم حيل
لا أبتغي أبداً بهم بدلاً لف الإله شمه من
ومنى وردت حياضهم معهم لم شرع مقوهم من
قوم ، غدا يرى وتكرمني من شعبهم ، وما جيم شعري
العميون على أنعمهم والحامدون الكل من
أنا منهم ، بقضاء من حتمت رسل الإله ، وجههم حيل
مولاهم وغذى نعمتهم والسرور حيل شعري . صبي

ويكرر ذلك حين يمدح الأخفش المعاصر ، وبعده من الأخفش القديم ، ويذكر أنه غريب بين الاثنين وأنه لذلك بعد عن غيره . وهذا يقول :

ذكر الأخفش القديم قلنا إن للأخفش الحديث فضلاً
وإذا ما حكمت - والروم قومي في كلام معرب كنت عذراً
نا بين المحصور فيه غريب لا أرى سرور مسجدة أهلاً

وعتاب محمد بن عبد الله فيقول في آخر القصيدة :

إذا الشاعر الرومي أطرى أميره مدحت من مصرى ومدحت من مصر

لا كأي نواس الذي كان يخلط في دعونه ويتسب مرة إلى التزارية ، ويسمى مرة أخرى إلى البياضية ، وكان قبل ذلك يتعاجم في شعره ، وفيه يعلم أن الفرس قد معصوا بأصله وإنهم أحق به إذا أراد أن يدعى لأحد . ويظهر أنه كان شديد الإحساس بروميته والشعور بفردته . ولذا

علا زمان . فتراه يرمو تارة ويهاى بأن الروم أصله ، كما هو ظاهر مما مر
بك من كلامه . ويألم تارة أخرى أنه غريب بين العرب ، وفي ظلهم ،
وأنه فقد بذلك وطنه . كما تبين ذلك من قوله لبعضهم وكان قد بلغه أنه
يحسده ويعيب شعره ، ولعله الوحيد الذى فرق بين الجنسية الدينية والجنسية
القومية وأحس الألم لفقدانه « الوطن » :

أيتها الخاسدى صحبتى العسر	وذمى الزمان والاخوانا
حذاء حاجه على ثلب شعرى	ولقائى معيضا غضبانا
وانتفاصى مع « العدو » وقد كا	ن يرى لى نقاصى رجحانا
ليت شعرى ماذا حسدت عليه	أيتها الظالمى إحتاى عيانا ؟
أعلى أثنى ظمئت ، وأضحى	كل من كان صاديا ريانا ؟
أم على أثنى ثكلت شقيقى	وعدمت الثراء والأوطانا ؟

ولسا مطن أحدًا ميقول إته ما جاء بالأوطان إلا من أجل القافية !
فليس ابن الرومى من تعيبه القافية أو تضطره إلى غير ما يريد أن يقول .
ولك لتقرأ شعره فيخيل إليك أنه يتناول الألفاظ ويقسرها قسرا على أداء
لغته التى يقصد إلى تبينها والعبارة عنها .

ومن أجل ذلك لم يكن يفخر بقومه كما فعل مهيار الديلمى - وهو
فارسي الأصل - حين قال يعنى الفرس :

قومى استولوا على الدهر فنى ومشوا فوق رؤوس الخقب
بل كان يقول حتى حين يمدح نفسه ويشيد بكرم أخلاقه :

أعصى الجفون عن السوءى مراقبة	لما يكون من الحسنى وما كانا
أجزى الأخلاء صفحا عن إساءتهم	- إذا أساءوا - وبالإحسان إحسانا
أذكر النفس متى من عاسنهم	إذا ذكرت ذنوب القوم أحدا
وليس لك لآلى ومحمد	لكن لأى اتحدت العدل

والبيت الأخير هو الشاهد . وهو لفرط إحساسه بفقرته دائم الالتفات
إلى هذا المعنى ، يمدح يحيى بن على المنجم فيقول فيه :

رباً أكرومة له لم نخلها قلبه فى الطبع والتركيب
غريته الخلائق الزهر فى النسا من وما أوحشته بالتهريب
فكانه يعنى نفسه بهذا البيت ويحاط فى التعبير من أجلها ويصف حاله
هو لا بمدوحه .

ويهجو اسماعيل بن بلبل فلا يرى إلا أن يشتهر بانتسابه إلى شيان زورا
ويقول :

تشين حين هم بأن يشيا لقد غلط الفتى غلطا عيبا

ويقول فى قصيدة أخرى مشنعا :

عجبت من معشر بعقوتنا	باتوا نبيطا وأصبحوا عر
مثل نبي الصقر إن فيه وفى	دعواه شيان آية عهد
يباه علجا على جبلته	إذ مسه الكيمياء فانتقل
عرب جده السعيد كما	حول رربح حده ذهب
وهكذا هذه الجود لها	أكبر صدق يعرف السب

•••

وبعد ، فلأى غاية نأتى بهذه الشواهد ونستكثر منها ؟ أكل ذلك لقول
إنه كان روميا ولم يكن عربيا ؟ أو لم يكن يكمى أن يذكر اسمه ، وأن
يقول إنه كان مثله أجنبيا من الأمة التى شب وشاب فيها ، وطق لسانها
بحذف علومها ، ونوفر على آدابها ، واستطل بمدبنتها ؟ وما قيمة ذلك ؟
إنه يكن كميره من العرباء من مثل مشار بن مرد ومروان بن نبي حفصة

ولم نواس ومهيار ولمن المفتح وابن العميد والخوارزمي وبديع الزمان
ولم إسحاق الصليبي ولبي الفرج الأصبهاني وغيرهم ممن لا يكاد يأخذهم
حصر ؟ نقول نعم ، كان كهؤلاء من غير الأمة التي نبت فيها ، ولكنه
يختلف عنهم - أو عن كثير منهم - ويأينهم بأنه احتفظ بطبيعة الجنس
الذي انحدر منه ، حتى صارت روميته هذه التي يثبت بها ويعلمها ،
ولا يكتمها ولا يقتبها بالفارسية - مفتاح شعره ونفسه ، وحتى لا سبيل
إلى فهمه وتقديره بغير الالتفات إليها والتنبيه لها . وإنه ليصلح أن يتخذ
المرء شاهداً على قوة الوراثة وفعلها ، على الرغم من كل تأثير يتناقص لها
مضعف لفعلها . « فالرومية » كما يقول صديقنا الأستاذ العقاد بحق « هي
أصل هذا الفن الذي اختلف به ابن الرومي عن عامة الشعراء في هذه
المنعة . وهي السمة التي أفردته بينهم أفراد الطائر الصادح في غير سيرة
ورما يذمهم في أشياء ، وقصر عنهم في أشياء غيرها ، ولكنه لا يشبههم
ولا يشبهونه في تعرفه وتقصيره على السواء . فلماذا انقطع ما بينه وبينهم
من سب الأدب وحرمة الفن ، لا لأنه أفضل منهم جميعاً ولا لأنه
جميعاً أفضل منه . »

وسعدون في المقال الآتي أن يدبر هذا « المفتاح » في القفل ، وب
معرفة عنهما لستأنف ما حولناه مد عشر سنين من تعريف الناس بهد
تدعو القد ، فليد بوقل فإن المهمة شاقة ، وحمل الكلام مفويل ، وشعره
شيرة

(٣)

شخصيته

(أ)

عاش ابن الرومي ، ما عاش ، ماضطاً على الحياة ناقماً على العصر
وأبنائه ، مضطراً على الزمن وصروفه ، طافح النفس بالمرارة والألم .
حد لم يعرفه أحد من الشعراء المعاصرين . وشعره الذي يمد به من حزن
من حالات نفسه ، وأودعه ما استطاع من التفات دمه . حزن . حزن . حزن .
على ذلك . وعذره من هذا التمرد غير كل حساس مضطرب نفس مسر
العقل ، تصطدم عنده الآراء والعقائد بمظاهر حياة . ومع حزن . حزن . حزن .
أقصى من أثر ذلك في النفس ولا أوسع . وسأختار أن جمع من حزن . حزن .
صفة خاصة فإن الحياة كانت قديماً ومرات في سعة . مستطير .
آخر الزمن ، إن كان له آخر ، صراعاً دائماً وحملاً موصداً . حزن . حزن .
الحياة الإنسانية خلت قط من نواعث النسخة وشوحي شاعر . حزن . حزن .
لمرء ليهتدى إلى الشعور بنفسه وليصدق بقوله . حزن . حزن . حزن .
إحساسه إلى جانب هذا - أو قلله - حدود قدرته ، وحسب كنه حزن . حزن .
هذه الدائرة ، ويحدد هذا المجال ، وقد يعرف الحزن أو سلاسه أو كنه حزن . حزن .
على الرضى وإشعار النفس براحة الحيوانية ، فلا يرى مرء صمد حزن . حزن .
ويصدق عليه ، إلا عدلاً مقتضاً وصرفه لا مغرب منها . ولا حزن . حزن .
النرم بها ، وليس كذلك المثقف الذي مشاعر يدى كنه حزن . حزن . حزن .
أعصابه العارية . مثل هذا لا يسمع طوفه أن يعمق عصبه ويصنع عصبه
حتى لا يرى ولا يحس ما في الدنيا من أصله والعن والحنن والحنان والشفقة
ومهما كانت وحوه الاحلاف وموضع شين من عصبه . حزن . حزن . حزن .

وعصر ابن الرومي ، فإن مساوى الحياة ومتاعها واحدة . وما كان سخط
ابن الرومي على مظهر عارض أو عيب طارئ ، فمحتاج أن نصف هنا ما كان
عليه زمانه ، ولكنه كان على ما يخلو منه عصر ولا يبرأ من مثله زمن .
ومن الذى يقرأ قوله مثلاً :

أترانى دون الأولى بلغو الآ
وتجار مثل البهائم فازوا
أصبحوا يلعبون فى ظل دهر
غير مغنين بالسيف ولا الأف
ويظلون فى المناعم واللذات
لهم للسمعات ما يطرب السا
نعم ألبسهم نعم الله
حين لا يشكرونها وهى تنمى
كم لديهم للهوهم من كعاب
خندرس إذا تراخت مذاها
بنت كرم تديرها ذات كرم
لنة الطعم فى يدى لنة الملم
يوق العين حسن ما فى أكف
ومزاج الشراب إن حاولوا المز
من جوار كنهن جوار
لو نرى القوم ينهن لأجبرت
من أناس لا يرتضون حيناً
وكذلك الدنيا الدنيا قلراً

تقول من الذى يقرأ هذه الأبيات - وإن كان ما حلفناه أضعاف
ما أبتناه - ولا يحس ما فيها من الصنق ، ولا يذكرها كثير من يرفلون

فى حلق السعادة ، وهم لم يمدوا إليها يدًا ، ولا سعت لهم فى سائر
اكتسابها قدم ولا استحقوها إلا بأن الخط أورثهم إياها ، وإن كعب
خير الناس ولا أكفأهم ولا أفضلهم ؟

وعسى من يعترض فيقول إن هذا أشبه بأن يكون حسد لا محبة
على جور الخط ، ودليل ذلك قوله بعد أبيات :

لم أكن دون مالكي هذه الأملا
ك لو أنصف الزمان الخبي
تقول كلا ! ليس هذا فى شيء من الحسد . وإنما الذى يغتبط المعترض
أن ابن الرومي يعرف قدر نفسه ولا يخفى عليه مكانه من القصور
والاستحقاق ، وأن إحسانه بثقل القيود المحيطة به ، وشعوره بعرقها وحده
وإدراكه لمبلغ بعويقها ، كل هذا قد نرى أنه فى شعوره وفى حسده
الإنكار الأول من الواعية . ونظراً لنا فى عنى عن الاطالة فى تبيين
بما يبرزها إدراك حدودها والتصادم بما هو خارج عنها . وقد صحح هذا
التعبير . ومن البجلي أن الرجل الذى تتدفق حياته فى مجرى لين لا يعرفه
شيء ، يختلف إحساسه بذاتيته عن تعرضه للعقبات فى كل خطوة .

وقد كان ابن الرومي يريد أن يحيا حياة فنية : أى حياة تكون أقرب
إلى مثله العليا التى كان ينشدها ، وأخلق بما يفهمه من وضيفة الشاعر وبيز
بمنزلته ، كما هى فى نظره ، فبغى ذلك وعجز عنه ولم يصبر به . وعجز
أن يكيف نفسه على مقتضى الظروف والأحوال التى تحيط به . ومن هـ
حقل شعره بذكر نفسه ، واكتظ بالمقابلة بين الرغبة والامكان ، وبين ما
والواقع .

وبرجع إلى القصيدة التى سفا منها هذه الأبيات . فقوله إن من الرومي
بعد أن أقاص فى صفة هؤلاء الناس وما يصحور به استنورد من ذكر رجل

رأه أحمق بهذه النعم الجزيلة منهم وأسيف لما هو فيه ولعدم انتفاعه بفضله وعلمه ، فقال :

كلين عمار الذي تركه
من فتي لو رأيته لرأت عينا
يزه الدهر ما كسا الناس إلا
أوحى ظرفه التي نحسته
سوءة سوءة لصحية دنيا
سوءة سوءة

وليس لمن عمار هذا الذي عدا عليه الدهر وسلبه كل ما كسا الناس إلا اللحم والجلد - نقول ليس هو بالذي كتب إليه القصيدة بل ذاك غيره . فليس بلن الرومي حسداً ، وإنما هو سخط على ظلم المخطوط . ويؤكد ذلك ، وأنه لا يقصد إلا إظهار ما في الدنيا من التخليط والغبن ، نحاول بعد ذلك في القصيدة غيرها على الشرط وهم الأعوان الذين يوكل إليهم حفظ الأمن :

شرط خولوا عقائل بعضا
فإذا ما تعجب الناس قالوا :
أصبحوا ذاهلين عن شجن النسا
في أمور وفي خمور وسمو
وتهاويل غير ذلك من الرقص
في حير متعزم ، وعجير

(١) السور والفتاح باسم الفاتحة والسحاب حيوان تصطد فرائدها لتعومنها وفانتها

في ميسادين يخرقن بساتين
ليتن يثقل ظيرها في اصطحاب
عندهم كل ما اشتهوه من الآ
والطروقات والمراكب والول
واليلنجوج في المجامر والنذ
نعم السور من الأهدر
تنت فلال أيكها ، صبح
كال والأشربت ، لأشد
مدان مثل الشوادن الأوسر
تسرى نشره كمثلي الضباب

ولا ينبغي أن يفوت القارئ وهو يقرأ هذه القصيدة وغيرها من ميسادين التي قد تتخذ دليلاً على ما انطوت عليه نفس بلن الرومي من حسداً ، الحقد ، نقول لا ينبغي أن يفوت أن الرجل كان دقيق الحس صيف الشعر وأنه كان من قوة الخيال بحيث يستطيع أن يحضر بدهمه ويمثل أمامه ما يتخيله ، ويجسده لنفسه كأنه واقع بنفس ويلبس . ومن هنا نرى وصف أفاض واسترسل ، وتوخى الاستقصاء والتقصية وهو يدع شئت ودفعه إلى الاسترسال وأغراه به ، لا الحسد ولكن لطف الحس الذي يشوب أدق الأشياء وأخفاها ، ومراح الخيال لقوى الذي يحسد الصورة وينعم صاحبه اللذة والمتعة المستفادين من استقصاء الحوائج ويتمتع بروحي وقوة الخيال تغري أبداً بمثل هذا وتعت عليه ، وقد يبدأ مرة غير معتم بإطالة ، حتى إذا استولت عليه قوة ما يتحيل ، سحره دلت وتمكنه روح النفس ، فاندفع على غير قصد ومصى ولم يكن في حسده أن يعصى فليس ما به حسداً ولكنه قوة الخيال ودقة الشعور وبرور لاجس النفس ، ومع ذلك هيه كان حسداً وحفداً ، أو ما شئت فسمه . فمدد " أليست هذه طبيعة النفس ؟ أليس قد حقدنا لله كذلك ؟ وفي نفس في أن نكون كما برئنا .

وأن من طيبتنا نعدى ؟

كما يقول ابن الرومي . ورد المسألة بن أصلها الأول ، فقول إنه لم

يستطيع أن يتكيف على مقتضى الأحوال التي يعيش في ظلها كما استطاع
ويستطيع أكثر الناس . وأكثرهم بلا مراء أوساط عاديون . ومرد هذا العجز
إلى حالة الأعصاب ، ولا يخفى أن الدافع إلى التكيف هو الرغبة في سد
حاجة عضوية أو اتقاء متعبة . ومعنى هذا بعبارة أخرى ، أن المرء يسعى
إلى التكيف ليحس الارتياح وليفي أو ينقص المتاعب . فإذا لم يستطيع ذلك
ولم يقو عليه ولم ينل ما يناله من وسعة ذلك من الارتياح ، ولم يتو
ما اتقاه غيره من لاساسات المفضة . ولا مفر له بعد ذلك من أن تثقل
وطأة الحياة والناس عليه ، ومن هنا يأتي سخطه على الحياة ، ونقمته على
منجم ، وتبرمه بأنظمتها وأحواله ، وقلة صبره على ما يسوء مما يحتمه
الأكثرون أو لا يلتفتون إليه ، وسرعة تهيجه وغضبه على معاشريه والمختكرين
به والذين يلتقي بهم في طريقه . ومن هنا أيضاً تنشأ الأوهام وتصير عنده
حقائق ثابتة لا سبيل إلى طردها أو التفتن إلى أنها ليست إلا مما يحدث في
جوفه ويجرى في نفسه لا مما تحدثه إرادة خارجية . ومن هنا كذلك تتولد
مكرة الأضطهاد المتوهم والاشفاق من العالم الخارجي ومن سياكنه ونوع
الأذى من ناحيتهما . وهذا كله ظاهر ينطق به شعر ابن الرومي .

(ب)

كان ابن الرومي في صباه فني غرقاً ، كما يقولون ، وسيم الطلعة ،
مقدود القوام قد السيف ، كما يقول :

أنا من عفت واستدق فما يتقل : أرضاً ولا يسد فضاء
خفيف الروح أنيس الحضرة ، مزهواً بملاحته مفروراً بشباهه ، مدفوعاً
حرارته ونفوة إحساسه إلى اعتام فرصة الحياة ، فلس هذا البرد « لس
استدال » كما يقول ، وأحلفه ولم يصبه ولا أذخر منه شيئاً للكبر ، وفعل
نصاه فوق ما يفعل الناس في العادة . ولعل الذي أعجزه عن القصد وعذل
به عن الاعتدال ، وقلة إحساسه مع الشباب من جهة ، ووسامه من جهة

أخرى ، ولم يكن ابن الرومي يخفى عليه أنه جميل ، وأن جماله يعسى
النساء كما يصيبه حسهن ، ولا كان ينحرج أن يذكر ذلك في شعره ويدهي
به ، حتى بعد أن شينت ديباجته ، وتقوست فاته ، فتره مثلاً يقول وهو
يسعفى عهد الشبيبة ويتلهف عليها :

ولو شهد الشباب ، إذن لراحت وإن بها وعيشك ضعف ما
فياغوثاً هناك بقيد ثأري إذا ما انشأت له حسنة
وقد أورده ذلك ما يورد ، فإغثال اللعب بأولى الدهر شئمة . بأمر
حقود ، والجرائم تحقد ، وتضعضع كياه ودب الكلال في عصمه . . .
على العصا :

ولذت أحاديث الرجال وأعرضت سليمان وريا عن حديثي ومبدأ
وبدل إعجاب الغواني تعجباً فهن روان ، يعثرون ، . . .

وفقد شبابه بسرعة ولم يفقد لباتاته وأوطاره فصار كما يقول
شعر ميت لذى وطرح حى كئار احريق دت مبيد
مع صبو الفتي وعليه صرفة الشيخ . فهو في تعبد

وناهيك بهذا من عذاب ! وقد يحب أن يتعزى فيقول :
لو يدوم الشباب مدة عمري — تدمر شئمة لأوصر
ولكنه لم يستطع عزاء ، وروح شيئاً فشيئاً على مر سنين . وشنته
الأسقام واصطلحت عليه العلل والأمراض ، وصار كما يقول

أنا ذاك الذي سقته بذ السقم ورأيت الحمام في الصور الشنع
ورماه الزمان في شقة النفس وابتلاه في ذلك بالمر والوحشة
ونكلت الشباب بعد رضاع كؤوساً من الشرار رواه
وكانت لولا القضاء قضاء وأصمى مؤده إصماء
حتى أمل منه البلاء كان قبل الغناء قلماً غداء

ولم تسلم حتى عيناه فقد كاتبا كثيرا ما ترمدان ، وفي ذلك يقول لعبيد الله بن عبيد الله :

شغلت عنك بعمار أكمله لا باللهي ولا ماء العناقيد
قاسيت بعدك - لا قاسيت مثلها نهار شكوى يباري ليل تسهيد
ألمسي وأصبح في ظلماء من بصرى فما نهاري من ليل بمحمود
كأنني من كلا يومى وليته في سرمد من ظلام الليل محدود
إذا سمعت بذكر الشمس أشتى فصعدت زفراتي أى تصعيد
لا يطمئن بجنى لبن مضطجع وما فراش أخى شكوى بممهود
أرعى النجوم - وأنى لي برعيتها وطرف عيني في أسر وتقييد ١٢
وإن من يصني أن يوثقه رعى النجوم لمجهود المجاهد
وضاقت الأرض بي طرا بما رجحت فصار حظي منها مثل ملحودى

يعنى بالملحود القير ، وقد لازمته علته هذه شهرا وتكررت ثم انتهت
الأمر به أن يضعف ابصر كما يقول في دالية له يندب فيها شيابه :
وبورك طرفي ، فالشخص حياله قرأت من أدنى مدى ، وهى فرد
وله فى قصيدة أخرى :

وأحدث نقصان القوى بين ناظرى

وسمى ، وبين الشخص والصوت برزخا

وكنت إذا فوّقت للشخص غسنى

طوت دونه سهبا من الأرض سريخا

فحالت صروف الدهر تنسخ جدنى

وما أملت من قبل إلا لتنسخا

وأحق به أن يصعبه وبصيره إلى هذا المصير استهتاره في صدر أهامه .
وإدما به العراة والإطلاع ، فقد أحاط له الرومى بكل ما يحاط به من

العلوم والمعارف والآداب في عصره ، كما يدل على ذلك ما في شعره من
الإشارات التي يحتاج المرء في فهمها إلى العلم بتاريخ العرب ، ومن جميع
الوقوف على كل ما كان لهم في كل باب . وقد ذكرنا ذلك في
مؤرخى العرب قال عنه إن الشعر كان أقل أدواته ، ويقول ابن
نفسه للقاسم بن حبيد الله :

إن أكن غير محسن كل ما تطلب إلى محسن أحسن
معنى ما أردت طالب فحص كنت ممن يشارك الحكماء
ومنى ما أردت قارض شعر كنت ممن يساجل الشعراء
ومنى ما خطبت مى خطيبا حل حصي مصفى بي الخطباء
ومنى حاول الرسائل رسلى بلغتني بلاغتي البلغاء ، إلخ

وليس بغريب بعد ذلك أن لا تسلم أعصابه ، وأن تخصص ويجعل
توارنها . ومهما يكن من الأمر فإن من أحقق أنه لم يكن سيم لأعصاب .
ون جهازه العصبى كله كان غير منتظم . يدل على ذلك موت ابنه شهيد
واحدا بعد واحد ، وفي غير الس التي يكون فيها لإهمل من موت
الوفاة ، ومراثيه لهم ، بحاصة داليته في رثاء أوصيه ، لا يدق شئ
في لغة العرب أو غيرها من اللغات التي اطلعنا على آداب . وقد كان من
حائب ذلك أحق طياشا سريع العصب ، وكان إحساسه بحسنى حد
ليس فيه شئ من الاعتدال البتة ، وهما لا يسعنا تكرها إلا أن يذكر
مناصريه كانوا يستفزونهم بقولهم عنه إنه عني ، وكانت ثور دثرته بدت
بهمجهم أفحش الهجاء وأقده ، ويسكر التهمة ، ويعنى دفعه ، وبك
مع ذلك قال وهو يتعرق على شيبته

لما نسي على القناع الذى تح وأعقت منه شر عقب
مع العين أن تقر ، وقرت غير واش سا وغير رقيب
لم الحلم ثم ننى فأنسى حيث العرس أيمنا نحيب

والبيت الأخير هو الشاهد . والاعتراف فيه صريح لا يحتاج إلى تعليق ،
فكان ما قيل عنه حق ، أو هو إلى الحق أقرب وبه أشبه . ثم لا تنس أنه
في هجائه قلما يغوته أن يسطر لسانه بسطاً شنيعاً في أعراض من يهجوهم
من الرجال والنساء أحيائهم والأموات .

على أنه ليس أقطع في الدلالة على اضطراب أعصابه من طيرته ، وكان
ممرطاً فيها . وبلغ من غلوه أنه كان كلما أراد الخروج من البيت « يتعود »
بعد أن يمس ثيابه ثم يمضي إلى الباب وفي يده المفتاح ، ولكنه لا يديره
فيه . بل ينظر أولاً من ثقب هناك في خشب الباب لأن له جارا أحداً
يتطير من رؤيته ويخشى أن يلقاه ، فإذا رآه من الثقب عاد أدراجه ، وخلع
ثيابه ، وأقام في بيته لا يرحله ، ولعل حاجته إلى الخروج شديدة فوكثيراً
ما كان يصير على الحواح والظما هو ومن معه من الأولاد والنساء ويعتد
الأبواب عنهم ، ويؤثر ذلك على الخروج والتصرف بعد أن رأي أو سمع
ما يتطير منه . وقد وصف جاره الأحمق ألدع وصف . أو رسم على
الحقيقة ، فقال :

قصرت أحماده وطال قداله فكأنه مريض أن يكفعا
وكأنما صفت قفاه مرة وأحسن ثانية لها فتجمعا

وكان إخوانه يعرفون ذلك منه ويعلمونه ، فيعشون إليه من يقرع بابه
فإذا قيل له من ؟ قال : مرة من حطة . فيتشاءم ويستعبد بالله ويقيم في
بيته لا يرحله . وكان على بن سليمان الأحفش أجراً الناس عليه بذلك
وسمع من تميم أنه كان يقلب الأسماء فيقول مثلاً حسن مقلوبه على نوح
ويشاءم . رأى نوى تمر في الطريق ، ويقول إن النوى للفراق ، وإذا
هذا بشير بأن لا تمر ، وإذا أصابه هو أو سواه شيء ، عزله إلى أمر من
هذا القبل . وحدث مرة أن صاحباً له بعث إليه بعلام جميل بهي
ابن الرومي وبطمش إليه فعاء به فلما تخطى باب الصحن في دار صديق
عثر فانقطع شع بعله فدخل مدعوراً وعلل هذه العثرة بأن العلام به

وهي قطع أنثيه . وأقام آخر مهرجاناً وكان من بين الجوارى في ذلك اليوم
صبية حولاء وأخرى في عيناها بكته ، فتطير ابن الرومي . ثم به حدث
بعد مدة أن سقطت ابنة الرجل من بعض السطوح فماتت . أن حد
القاسم بن عبيد الله ابن الرومي فرد هاتين المصبيتين إلى الجاريتين ، وكتب
بذلك إلى والد الفتاة يقول :

أيها المتحفى بحول وعور أين كنت عنك الوجوه الحسن
فتحك المهرجان بالحول والحو
كان من ذاك قفلك ابنتك الحر
وجفاني مؤمل لي خليل
وأخذ في هذه القصيدة ثبت أن الطيرة معقولة ، ويدفع قول من قال
إن النبي نهى عنها :

لا تصدق عن النبيين إلا بحديث يشرح فيه
خير الله أن مشامة كما
أفزر الحديث تقبل أم ما
قاله دو الحلال ، وأحرفاً ؟

وهجا مرة كاتباً اسمه أبو طالب فحذر الناس من شؤمه

أحذر أهل الأرض حدًا لمن طالب
وقد جرئت منه على آل مخلد
أزرق مشعوم ، أحمر قاشر ،
وهل أشبه المربخ إلا وفعله
أعوذ بعز الله من أن يضمني
شيء قدار بل قدار شيء
وهل يتمارى الناس في شؤم كاتب
ويُدعى أبوه طالباً ، وكما كم
ألا فاهروا من طالب ولم طالب
فما زال مشعور على من يصدق
تجاربه ليست مثلن تجارب
لأصحابه يحس على تقوم ذقت
لفعل شيء السوء منه مقارب
واباه في الأرض البسيطة جانت
وإن قيل كيه وإن قيل كاتب
لعمري لو السيف والسيف قاصد ؟
به طيرة أن المية طالب
من طالب مثلها طار هارب !

وكان ينفي عن نفسه أنه نحس ويهجو من يزعمه كذلك كما قال في

ابن موسى :

أُتِمُّر بالتقزز من كلامي وذكرك يُصدى الذهب السيكا؟
زعمت بأنني نحس ، وإنسى مجيبك - معلنا - لا أتفككا

ويقول عن نفسه إنه ميمون مبارك ، كما فعل في هزيرة طويلة وجّه بها

إلى القاسم بن عبيد الله الوزير :

كل شيء أراه منك بشير صدق الله هذه البشراء
وإذا ما مخاض الناس غابت عنك فاستشهد الوجوة الوضاء
إلى أن يقول مخاطباً القاسم :

أجمل بك أطراحي وقد قد ن بريدنا بدولة زهراء
ولى الطائر السعيد الذى كا غير نعماء ظاهرت نعماء
ما تعرفت ، مذ تعيفت ، طيرى من أمير مؤيد إدناء
ثم أدنيتنى فزادك معنى يد الله ثرة يضاء
وتنازلتنى بمر فبرتك مزيدا أوتيته والخفاء بالغ ..
وكذا كلما نويت لمولاك

ولقد طلب إليه فى هذه القصيدة أن يتحذه « عودة » لمحله فقال :

يا لقمى! أآقل الأرض شخصى؟ أم شكت من جفاء خلقى امتلاء؟
أنا من خوف واستدق فما ينقل أرضيا ولا يسد فضاء
إن أكن عاطلاً لديك من الآ لات - حاشاك أن تجور غباء
فلاكن « عودة » لمجلسك المو نى أردد حين الردى عمياء
ويقول فى بآلية له إنه يخاف :

أن يقول الوحشة بى إن شئنى جر هذا الشحوص والإفك حوب

ولو وقف الأمر عند حد التطير لكان بعض الشيء ، ولكنه كان يكدر
ما هو أدهى . ذلك أنه كان مصابا بتوهم الاصطهاد واقعاً منه من سب
ومن الطبيعة نفسها . فأما من الناس فلا تحتاج أن نورد من شعره شيء فقد
عرف القراء أنه سافل وما ينم على ذلك ، وأما من الطبيعة فقد كان يمدح
دلالة ، قوله فى بآليته التى مدح بها أحمد بن ثوانة

وصبرى على الإقترار أيسرُ محملاً على من التعبد بعد تحسار
لقيت من البر التبارج بعد ما لقيت من البحر جفاس
سقيت على رى به ألف مطرة شغفت لبعضها حب محار
ولم أسفها ، بل ساقها لمكيدتى تحامق دهر جدبى كلام
إلى الله أشكو سخف دهرى فإنه يعاشى مد كنت غير مفار
أنى أن يُغيث الأرض حتى إذا ارتمت برحلى أنه يعيث به شارب
سقى الأرض لأجلى فأضحت مزلة تعال صاحب نعلك شارب
لتعويق سيرى أو دحوض مطيتى واحصاب مره عن محار

ولعل ذلك راجع إلى اقتداره على التشخيص وليس معنى صبر
الاحياء ، ولكننا نعود فسنال لماذا يعد نفسه مفضوذاً بآلية

(ج)

الطفل ، إلى حد كبير ، صورة مصعرة من الحبس لآسى يعر به .
باختصار ، ما مرّ بجنسه من الأطوار ، ويتقل شيء فشيء من يديه غير
المدركة ، إلى الداتية المدركة ، ثم إلى التفتط ما هو خارج عنها .
ما يحسه هو ما يحرق فى خوفه ، كما تم على دنت حركاته حتى يسعه .
يقوم بها ، وصيحاته - وهى أيضاً حركات عصبية - وكما يد على ذلك
ما يديه من الشعور بالحالات العامة ، من مثل الخوف والطمأ وما إليهما .
هذا هو الطور الأول ، وهو طور ليس فيه وعى . فلا انح يهيم على
المراكز الدنيا ، ولا ما يتولاه الحس يمكن تربيته وتوليد فكرة منه .

ولا لإرادة دخل في الحركات . ثم يأتي طور آخر تقوى فيه المراكز العليا على الأيام ، فيعنى الطفل بما يأخذه حسه ويكون من ذلك فكرة إلى حد ما ، وتصدر عنه حركات يغني بها غاية . وهذا الدور هو مولد الإرادة ، وبه يرتبط الشعور بالذاتية والتنبيه إلى أنه فرد . غير أنه حتى في هذا الدور تظل واعيته غاصة على الأكثر بحالات نفسه ، ويبقى هو أكثر اشتغالا بما يحرق في جوفه منه بالعالم الخارجى . فهو مثال بارز للأناية إذ كان لا يكثر إلا ما له اتصال مباشر بنفسه وحوائجه وميوله . ثم يترقى فينضج رأيه في علاقته بغيره وبالطبيعة ، ويترن إحساسه بذلك ، وتتضاءل عنايته بما يحرق في كيانه العضوى ، إلا إذا ألحت عليه ضرورة ، ويعظم التفاته إلى ما يتأوله حسه ، فتراجع ذاتيته إلى ما وراء ما عداها ، وتتملأ صورة العالم الخارجى أكثر جوانب الواعية . ويصبح الطفل رجلاً من الأوساط العادية الذين هم السواد الأعظم من الناس الذين تمثل فيهم أسمى درجات الذاتية باشتغالها على ما عداها ، أى بإدراك العالم وبفهم الأناية ، أى بالانتقال إلى ما يسمونه «الأنرويزم» وهو الاهتمام بالغير بدافع من العطف أو سواء مما يجرى مجراه ، لا رضاء لحاجة جسمية ملحة ، ولا إشباعاً لعصر من حوج وقوى ، كما هو الشأن في الجوع وفي الغريزة التناسلية . ومن الواضح أنه لا سبيل إلى الحياة المدنية العادية بغير ذلك أى بغير الأنرويزم . وكيف تكون الحياة الإنسانية إذا كان الناس لا يستطيعون أن يقتصروا لأنفسهم إحساسات سواهم وأن يمثلوها لخواطهم أيشعر بالعطف من لا يسمعه أن يتصور آلام الناس ؟ أيكثرث للناس مخلوق لا يقوى على تحيل الأثر الذى يحدثه ما يعمل أو ما يفعل أن يعمل ؟ - هذا ولا بد للمرء أن يدفع عن نفسه سوء فعل القوات الطبيعة ، وأن يستخدمها لخيرها ولفائدها ، وذلك ما لا سبيل إليه ما لم يعرف هذه القوات معرفتها ، وما لم يستطع أن يتصور فعلها . وهذا كله يستوجب من المرء أن يكون أكثر انتفاعاً إلى ما عداه . وذلك مظهر الرجل العادى فى الأغلب والأعم . عنايته بما يقع فى نفسه من الخارج ، أشد وأعظم استرقاقاً له من عنايته

بما يأتي من ناحية نفسه ، وواعيته أعص بصور العالم الخارجى منها بشاط كيانه وأعضائه ، وليس له من الذاتية أكثر من القدر اللازم للاحتفاظ بمرديته . وليس كذلك الرجل الشاذ الذى يخلق على غير طار . لأوساط . والذى يظل طول عمره أشبه بالطفل من حيث علاقة الذاتية بما عداها . ومن هنا تكون المبالغة فى تقدير العمل الشخصى والعلمى أهميته . وما من شك مثلاً فى أن الأدب من لوازم الحياة الإنسانية ، ولكن يربح معه لا يدور على محوره وحده ، وهب الأمر كذلك فهو على تحقيق ليس رهناً بشعر شاعر واحد معين . ولا ريب فى أن كل الذى يعد عمله ويكبره ، ولكن الفرق بين الرجل العادى وبين الشاذ هو أن الأول لا يعد بعمله ولا يعدو به قدره وأن الثانى يجاور الحد المعقول ، ولا يستطيع أن يتصور أن واحداً من الناس قد يخالفه فى ذلك ولا يرى رأيه فيه . ففعل ، فهو خصم وعدو .

وقد كان ابن الرومى لسوء حظه - أو لحسه وخس حصه - واضحاً واحداً من هؤلاء الشواذ . فاشعر عنده أحق ما فى حبه بالعناية والاكبار ، وقائله أولى الناس بأن توفر له أسباب الحياة التى تتطلبها منه . وهو (ابن الرومى) بصفة خاصة أحق محبوق أو شاعر بذلك فمن حقه على الناس أن يترزقوه إذا لم يستخدموه :

أحييتى بالألمس ثم تميّنتى
ولسو أحنى أحييت ميتاً - عشقته
ألا يعشق المفضال ميتاً أعاشه
أذو آلىة ؟ فاستخدمونى لآلىتى
برفضى وإقصائى وحقى أن أدنى
بحسن الذى آثرت فيه من الحنى
وأجته من معروفة الحلوى ما أجنى ؟
بقوتى - أولاً ، فارزقونى مع الزمنى !

وهى صرخة مؤلمة ! - ثم يحب بعد ذلك ، أى بعد أن يوفر له رزقه ولو من غير طريق الاكتساب ، أن يمكن من السماح لأن أدمه حساسة

واعية تحن إلى السماع الجميل ، ومن إرضاء حواسه الأخرى أيضًا لأنها
قوية مُلحة في طلب الإرضاء :

أذن شخصي إذا شئت لك بستان
فاستارت من اللحدود المغنين
يا لإحضارها مع ابن سريج
وتلتها « عجائب » فتفتت
فحككت هذه وتلك يمينيك
ذا ، ولا تسنى إذا نشر البستان
وحككت الرياض في الحس والطيب
وتغنى القمري فيها أنحاه
وأبدت لك لحظها قضب النر
فجمالًا لمنظر ، وثناء
وأهؤ قري إذا شرعت على دجلة
وأجاب الملاح في بطنها الملاح
واذكرني إذا استرت محابا
فتمالت فؤارة محمد الخضراء
ولماذا

حسن علمي إذ ذاك بالحسن المو
وارتفاعي عن الجفلة المسوين
موجب أن أكون أدنى جليس

(١) معبد وعرض بستان ، والبلاء وحجاب بستان ماسرلان لبستان .

وليس هذا ، على صحته ، بالسبب الموجب على القاسم أن يجعله أدنى
جلساته ! لأن القاسم قد يكون كهؤلاء الحماء الذين لا يحبون من
الضوضاء والغناء الجيد ، وقد لا يجب أن يؤلم نفسه بحضور من هم أقصر
منه وأدق حسًا .

وقد يحتاج أن يتزوج فيخطب لفسه فتاة وحيث عوم البروف فتدبر
صديقًا له بأن يعينه على زفافها :

يا سمى الخليل إيساك أدعو
أمة من إماء فضلك أجمعت
دعوة يمت سمى سمى
على نقلها إلى قري
وما ذنب صاحبه إبراهيم هذا ؟ قال لأنى .
ما تزوجتها على غير تأمليك فانظر أجائر أن أخياه

نقول نعم جائز ! وقد كانت له أرض كما قلنا وكان عليه أن يؤدي عه
لخراج ، فكتب إلى وهب بن سيمان يستعفيه من ذلك
غير أن ليس في خراجي وحدي
لك في مكثري الرعية دوني
ما بأعلاقه يسوغ الشرب
حلب كيف شئت بل أحلات
ولكن غيره قد يستعفون مثله فماذا يكون العمل ؟

ومتى رام رالم كخصوصي
بلى لقوم ومائل يستحقو
مهم معشر ومنهم أناس
أديبًا له ثناء بما يسدى
بعض الرجال فصل على بعض
مد حساء في الرواية والآ
قلت ما كل دعوة تستجاب
ن ، إذا ما دعوا بها ، أن يجلبوا
فضلتهم بفضلها الأكبر
إليه وتثناء ثواب
بما نفتهم الآداب
تبارقنا على العقول ثواب

وهكذا . فما ثم داع للاطالة فإنه هو القاتل :

حق الأديب لازم للذي الكرم
فإن تناسى حقه ، فقد ظلم
أما رآه لم يرل أعنى الحدم
بالأدب الشعري طوراً والحكم
مستملًا من عرب ومن عجم
منحرفاً عن كل كسب يُفتنم ؟

كذلك لم يكن بينه وبين الناس ما ينبغي من التعاطف بل حتى ما يجعل الحياة ممكنة . وقد لا يكون هذا ذنبه إلا من ناحية أعصابه المضطربة ، وذلك ما لا حيلة له فيه . أما الناس فواضح من شعره أنهم لم يكونوا يقدرّون حاجات نفسه ، أو يدركون مبلغ إلحاحها عليه ، وعذره فيها واضطراره إليها ، فلم يستقم الأمر بينه وبينهم . ومهما يكن من الأمر فهذا هو الواقع على كل حال . وما أكثر ما ترى في شعره مثل قوله أو قريباً منه :

حلفت بمن لو شاء سد مفارقى
بما لي فيه عن ذوى اللؤم مرغب
لما آتني شعرٌ إليهم مبغض
ولكنه منعٌ إليهم عجب
وأعجب منهم معشر ليس فيهم
بشعري ولا شيء من الشعر معجب
يردّون ألفهاها قديماً شعرها
عن الشعر تستوفى القديم وتركب
أو قوله :

أنا شاك إليك بعض ثقتي
فافهم اللحن فهو كالاعراب
لي صديق إذا رأى لي طعاماً
لم يكذب أن يجود لي بالشراب
فإذا ما رأيته إلى جميعاً
كفيتني لديه لبس الثياب
فمتى ما رأى الثلاثة عندي
فهي حسبي لديه من آولي
في طبعٍ ملائكي لديه
عازف صادف عن الاطراب
أو حمارة بمقدار حظي
شعبة عنده بلا أتعاب
ليس يملك شاهداً لي بهم
وبيان وحكمة وصواب
ومنى كان قسح باب من الله
توقعت منه إعلاق باب

فما ظنت بعير الثفافة ؟ وهذا يدعوها إلى الكلام على هجاء ابن الرومي

(٤)

السخر

(أ)

كلمة في السخر أولاً ..

ما هو السخر ، إذا ذهبنا نعيّره من فنون الأدب ؟ إن هذه الوجهة هي - بالبداية - كل ما يعيننا . وهو بهذا الاعتبار ، العبارة - كما يجب ذلك من الكلام - عما يثيره المضحك أو غير اللائق ، من الشعر - سبي أو التقرّز ، على أن تكون الفكاهة عصباً بارزاً والكلام ممدّاً في دس أدبي :

ولسنا نظن أننا أخطأ في هذا التعريف بكل ما يعنى السخر . أو أقمنا كل المعالم والحدود . ولكنه على هذا كاف في رأينا لدلالة عن البراد ، فهو حسينا إلى مدى بعيد . فالتشاعر حين يسخر ، يشوبه ما بين الأشياء والطبيعة ، ويركض في حلبة يتفصل عند طرفيه حرق من رحية ومثل الكمال من ناحية أخرى . وقد يعمل دس حذو أو متفكك مداعباً ، أي أنه قد يستوحى إرادته ومشاعره أو يستعمل عقده فذلك كانت الأولى فهو حاج متفهم ، وإن كانت الثانية فهو ساحر يركب ما يدعه بالدعابة . وإلى هنا لا يكون هذا أو ذاك أدباً أو من الأدب في شيء وعسى من يحونه الصبر فبئس . وكيف يكون هذا كدس ؟ أتريد أن نخرج من الأدب كل ما قاله العرب مثلاً في باب الهجاء والتهكم ؟ ألا يعد من الشعر ما نظمه في هذه المعاني حريز وأبرردق أو دعل وشمار ولي الرومي والنسي مثلاً ؟ إذا فعاداً أنفيت ؟ بقول كلا يا سبدي تغارئ ! هوّن عن نفسك ! فما نغصد إن شيء مما قام في وهمت . وما ردنا سوى أن

نقول إن الشعر ليس أداة انتقام ولا هو عبث يتلهى به الفارغون من قائله وقرائه . ومن الصعب على المرء أن لا يفسد الصورة الشعرية حين يهجو جاداً مستطيلاً ، وأن لا يفجع الشعر في حرية الحركة ، وهي من أعلى ما فيه ومن أكرم لوازمه . وهو حين يتفكه كثيراً ما يخطئه روح الشعر وتزداد الحفاضة عن اللانهاية . فالأمر معضل كما ترى فكيف لشير ؟ تشير يا سيدى القارئ بهذا : بأن تخلع في الحالة الأولى على كلامك خلعة من الجلال ، وبأن تضيف عليه في الحالة الثانية حلة من الجمال .

وأحسبك مستقول :

هذا كلام له غيبى معناه ليست لنا عقول

فقول أى نعم والله يا صاحبي ! ولكن المسألة أبسط مما تظن فلا ترخ ! وما عليك إلا أن تنفى عن ذاكرتك - إذا استطعت - ما فيها من « ضوضاء » اصحاء القارص والطنن المقذع . وما كوّنته على أثر هذه الجلبة من الرأى الذى لعنه عن لك بسوء الاتفاق . ثم هنم تفاهم : وما أيسر ذلك إذ أخليت رأسك من هذه الضوضاء ، وتفضلت فتناولت رأيك ووضعتك إلى حاشئ لحظة . وفى وسعك أن تردده إلى مكانه من دماغك إذا لم يعجبك كلامنا !

نحن متفقان - فيما نظر - على أن السحر على العموم معشقه مقابلة الواقع باعتبار ما فيه من النقص ، بصورة الكمال باعتبارها أسمى الحالات التى يسمى أن يكون عليها الواقع كثيراً ما تكون صورة هذا الكمال عاصفة مثبته ، بل لعبها لا تعدو هذا العموص أبداً ، ولا تحلص من ظلاله . فعد إلى نور المصوح والبيان وعلى أنه يكفى الإحساس العام بها ؛ ولما كان المرء قد انتهى به أو لا ينهيا له فقط أن يمشى صور الكمال واصحبه مشرفة ، وأكثر ما يسعه هو أن يلفس إياها ويوقف فى معوسا مثل إحساسه

العام بها . وهذا هو ما ينبغي أن يحمله وكده : أى أن يسه فيها هذا الإحساس الذى لا يستطيع أن يصوره لنا على وجه الدقة وإنهما يرى أن كلامنا أوضح من أن نحتاج معه إلى إفاضة فليخط حصوة أخرى ما أيضاً ما بعدها .

ينفر المرء من شيء واقع أو يتفرز أو يشمئز منه أو ما شئت غير ذلك من هذه المترادفات التى لا أحس أن أرصها رصاً فتشور عليه غسه ولكن لماذا ؟ الآن الشيء فى ذاته ، ومن حيث هو ، من شأنه أن يعث فى النفس الإحساس بالتفرز ويشيرها عليه ! لا نصب أحد سيذهب بـ ذلك . وشبهه بهذا أن يقول قائل إن كلمة معينة من الكلمات رديئة . ورو حروفها التى تتألف منها ثقيلة بغيضة ، وإنها كيفما كانت ، وفى أى كلام وردت ، لا تكون إلا قبيحة كرهية الورود على الأدب . وهو لا يصح عاقلاً يقول بمثله . فالشيء فى ذاته لا يعث على سحر أو رضى . ولا يكون غرضاً لذم أو حمد ، وإنما يكون هذ أو ذك حين تقبسه بـ مثل العليا ، وتجريه على صورها ، وتقرنه بها

وهنا محل التنبيه إلى خطأ كثيراً ما يؤدى إلى الحنط . ذلك أن المرء قد ينج به حاجة من حاجات جسمه أو نفسه . ويلقى شيئاً مما هو كثير . عنة فى سبيل إرضائها فيسخط ، ولكن لا على العراقيل التى تاحد على رغبته مذهبيها ، بل على الجماعة ، وربما تحاورها إلى الحس الإسسى كله . وإلى الحياة على الإطلاق ، لما يتعلق به وهمه من أن مصادر هذا الإحساس عامة ، ولما يعزوه إليه من الواعث الأدبية السامية وهذا هو ذاك الصعاف والمتحلفين . على أن غيرهم قد لا يسلمون من هذا الخلل ، لأن القدرة على تحريك النفوس تحددهم وتعرهم ومهما يكن من الأمر فإن هالك فرقاً بين أن يؤثر الشاعر باهاحة العوظف وترث القلب نستعرفه

الاحساسات المؤلفة ، وبين أن يشير في النفس الاحساس بالاستقلال الأدبي
إحساساً يبقى العقل حراً في اللجاجة فيه على الرغم من الاحتياج . ولا عبرة
بسمو الموضوع أو ضحته ، بضخامته أو ضوئته ، وإنما العبرة بالقاعدة
التي يضع الشاعر عليها الأمر الواقع ، وبقدرته على تهيئة النفوس لقبول
ما يلقي إليها ويضئ فيها ، وبالمثالة التي يشرف منها على غرضه . وما دامت
هذه سامية رفيعة فلا اعتداد بعد ذلك بالموضوع . وبعبارة أخرى يكفي
أن يكون لظرة الشاعر حظاً كبير من الجلال والسمو . ومن العسير التمثيل
لذلك من الشعر العربي ، ولكننا مع ذلك نغفل القارئ على جيمية من
الرومي التي قالها لما قُتل يحيى بن عمر بن حسين بن يزيد بن علي ،
ومطلعها :

أمامك فانظر : أي نهجيك تنهج طريقان شتى ، مستقيم وأعوج
وفيه يصف طغيان العباسيين وضلالهم في الفتك بالعلويين واستهتاكهم
وضعفهم إلى حد استباح لنفسه معه أن يقول « لرجالهم »
فلا تجلسوا وسط المجالس « خسرا »

ولا تركيبوا إلا ركائب « تخدج » !

فإنه في هذه القصيدة تُشرف على ضعة من مرقب عال يرفع إليه القارئ
بقوة روحه وسمو نظره ، وهو يشترك بمطلع القصيدة أن قتل أي الحسين
هذا قد أثار مسألة تقتضي الفصل ، ويرسم لك طريقى الضلال والواجب ،
ويهيح إحساسك الأدبي بالتمرد على الانتكاس الخلقى الذي أنطقه بهذا
القصيدة . ولولا أن المقام يضيق عن ذلك لأوردنا القصيدة كلها على طولها
ولتناولناها بيتاً بيتاً .

وغير منكور أن الموضوع الجدى يسمو بنفسه ويساعد الشاعر الذي
يشاوله . وليس الحال كذلك حين يعالج الشاعر المكاهة . وأنت حين تحا

قد لا يشق عليك أن تخلق ، ولكنك حين تجنح إلى الفكاهة لا يعود من
السهل أن تحافظ على الاستواء الواجب ، وأن تتقي الهبوط ، وتجنب
الاهاجة ، وتكبح عواطفك ، وترخي العنان لعقلك وأن تشيع الجمال في
موضوعك لتسد نقصه وتملاً فراغه وتعوض نقبه ، ومن هنا قالوا إن غاية
المكاهة هي أقصى ما هو مقدور للإنسان . يعنون بذلك التحرر من تأثير
العواطف العنيفة ، والقدرة على التأمل في سكون واطمئنان ، والسطر إلى
ما يقع ، لا إلى القدر أو الحظ أو الاتفاق . ومع الجماعات والسحوات
والتناقضات لبتسامة رضية لا عبرة متحدرة ، وكبح جماح الغضب عند
شهود لوم الإنسان ومعاناته . ولعل خير من يذكر على سبيل التمثيل في
هذا الباب هو « هينه » الألماني . أقول الألماني ؟ كلا والله ! فما تستر
بهينه أمة ولا زمان ولا مكان ! ولقد طلق ألمانيا ولم يصبر وسيب . وبد
اليهودية ولكنه لم يصبح مسيحياً ، ورعته « تيك » في قصة رمزية شيعت
فرماً متقلباً مسيحياً ! ولكن أغانيه أحلى وأعذب ، وأسنيلاء على يسيع
الضحك والبكاء أعظم مما شاء « تيك » أن يعترف .

ولا ينبغي للقارئ أن يتوهم مما أسلفنا الكلام عليه أن العث حائر في
الشعر لأن الشاعر يتناول المضحكات أحياناً ويمزج ويسحر ويرك
الأشياء والناس بالهزل ، فإن هزله أبداً مبطل بالحد ، وهو لا يقصد إلى
اهزل في ذاته حين يريك الهزل ويصوره لك ، ونقد كان . لوسيان .
وه أرستوفانيز ، يتعقبان سقراط بالكات الفاسية ولم يكن غرضهما أن
يبرحا فحسب ، بل كانا يريدان أن يتقما للحقيقة من السفسطة في
أيهما ، وأن يبرزوا إلى المكان الأول ما يلقي به الناس وراء صهورهم من
نقل العليا . ثم ما أجمل ونهر الصور المرئية التي رسمها قدم « سرفانتس »
في قصة دون كيشوت ! وفولتير ؟ ذلك الذي لم يشهد العالم ساحراً مثله ؟

ذلك الذى كان سخره عاملاً كبيراً فى إحداث انقلاب ضخم لا يزال أثره محسوساً إلى هذه الساعة ! من الذى يفوق هذا الأستاذ ويذه ؟ من الذى يشبهه فى أسلوبه ؟ إن الحكم على فولير حكماً فنياً بحثاً يستدعى قبل كل شيء تجريبه - إذا أمكن ذلك - من صفته القومية الحادة ، إذ بغير ذلك لا يستقيم الحكم عليه ولا يتأتى إنصافه وإنصاف الأدب معه ، وما من شك فى أن صدق سريره وبساطة طبيعته تلمحان هنا وهناك فى خارجياته . ونحرق فى نفس القارئ العواطف الشعرية حين يتوخى البساطة فى تمثيل الطبيعة وتصويرها ، كما فعل فى « الأنجيني » أو حين يبغيها ليقصص ما كما فعل فى « الكانديد » وغيرها . وهو فيما عدا ذلك يسلينا ويسرنا بملحة الطريفة ولكن ... نعم ولكن .. لا يصل إلى قلوبنا . وهذا قول قد يسخط الكثيرين من المعجبين به مثلنا ، والمعالين بقدره غيرنا . غير أنه قد يُسمى لنا أن نتهمهم قليلاً ! ومن الذى لا يتهمهم ؟ من الذى يلزم حده نداءً فلا يتقدم عنه ولا يتأخر ؟ أين فى الناس من لا يتناول به الغرور ؟ وإن لنا خطأ من الغرور قسمه الله لنا فلنقتحم إذا !! ولنقل إننا لا نلمح المقدر الكافى من الجد وراء نهكمه فى كثير من المواطن . ولن يفوتك أبداً أن تتفنى بدكانه وبراعته وحدقه ، ولكنه يعيبك أن تهتدى إلى إحساسه ، أن تطلع على شعوره وعواطفه ، وأن تلمس قلبه . وهو دائم الحركة ، لا يقتر ولا يكسر ، غير أنه ليس هناك شيء ثابت وراء هذه الحركة المتواصلة . أو نجم قطبى يصمد إليه ويتجه نحوه ، وقد أسبق على كتاباته مثبات من الكسب ، وصحبها فى أشكال لا يأخذها حصر ، ولم يوفق إلى شكل واحد يصح عنه طلع قلبه ويسمى بميم نفسه . فهو على الذكاء فقير القلب ، حصص المادة سحرى المظهر ، ولكنه كان يمشى فى هذه الدنيا ، ويعرج فيها من درب إلى درب ، ويعرج يميناً وشمالاً ، ويشتر براعته فى كل مكان . ويسبح بملحه وطرائفه سحاً ، وفى جوفه صحراء لا تؤنس وحشيتها واحدة واحدة !

(ب)

من الصعب على الناقد الذى تأخر به الزمن مثلنا أن يحظى بحكمه ما يأخذ به من الآراء فى الأدب عامة والشعر خاصة . على قوم ضوئهم الأيام بخيرهم وشرهم ، وتعبث الدنيا بملهمهم ، فلو أنشروا لأكرموا وما عرفوها . لأن الناقد لا يأمن ، إذا هو فعل ذلك ، أن لا يظلم أو أن لا يخطئ حتى حين يريد إنصافهم وتبيين أقدارهم . ومن أجل ذلك يحيرنا بعد الذى قلناه عن السخر أننا نؤشك أن نظلم ابن الرومى . وإن نعمه حرية أحوال لم تكن مما جنى ، وظروف لا يد له فيها ولا حكم عليه . أو على الأقل هذا ما نرجح أن سيعتقده عامة القراء من عارفى هذا الشاعر أو السامعين به . ولكننا مع ذلك سننصفه من حيث يبدو لنا حمد عيبه وغمطناه .

لم يكن الشعر على عهد ابن الرومى فناً يُراول لذاته ، أى يتفوقه عن النفس وإدخال السرور عليها من طريق الجمال . ومعلوم أن البحث لأول على الشعر هو حدة إحساس المرء ودقة شعوره ، وذلك لأن كل مؤثر قوى يثير فى المرء حركات تتعلق بها المدارك فى صورة عاطفة أو فعل مسمى لا يزال يبغي مخرجاً ويلتمس متعساً حتى يصيبه فى حركة عصبية أو نحو ذلك ، فإذا كان المرء من أوساط الناس العاديين كان ذلك حسبه بترجمة عن عواطفه وإيمالاته . وصار قصاره أن يبكى بدحرج ، وإن يصحك إذا فرح ، وأن يثور ويتوعد إذا عصب ، حتى تسمى العاطفة نفسها ثم يثوب إلى نفسه . ولكن دقيق الشعور لا يكفيه هذا التمسك لأنه أحسن من غيره بما تطلع عليه نفسه من الظواهر ، وأعظم مع دقة أحسن شعوراً . ليس يخفى أن دقة الاحساس وعمق الشعور يطيلان أحل العاطفة ، يمدان فى عمرها ، ويمسحان فى مدتها وبقاتها ، فإذا استولت عليه عاطفة لم تزل تميش وتصطرم حتى نفر وتنظم ، ثم تتحول فكرة فاهرة

تظل تجاذبه وتدافعه حتى ينفس عنها عمل يناسبها - هذا هو الفن لذاته فحسب . ولو أنك أردت أن تجد لهذا ضرباً في عصرنا يقرب إليك المسألة ويصورها على قدر الامكان - لكان بك أن تبغيه بين حدران المدارس . ولقد قدمنا لك في مقال سابق أن خصائص الآباء تظهر في الطفل ، وأنه يعيد في شخصه تاريخ التطور النوعي كله . فاذهب إلى المدرسة إذن فماذا تجد ؟ تجد هناك في ذلك الركن من « الفصل » - كما يسمون مكان الاجتماع لتلقى الدروس - تلميذاً مكباً على غلاف الكتاب ، وفي يده قلم يرسم به خطوطاً قليلة ساذجة يطالعك منها شيء كالوجه . وأظهر ما فيها شاريان ضخمان طويلان مفتولان لا نسبة بينهما وبين بقية الصورة ، إذا جاز أن تسمى هذا التخطيط صورة . فماذا تظنه يعنى ؟ ما هو الغرض الذي صار أمثل في خاطره وأحضر في ذهنه حتى فعل ذلك ؟ لا ندري ! ولعله هو أيضاً لا يدري على وجه الدقة . غير أن الأرجح في الرأي والأقرب إلى الاحتمال أن يكون قد قصد أن يرمز إلى الرحولة التي يتطلع إليها ويحلم بها ، فزاد في الشاريين وبالق فيها على سبه عكسية لتحرده مهما ، إذ هو لا يزال أمرد لم يطر له شارب ولا ست في عذاره شعر . والشوارب أدل على الفتوة ، وادنى إلى معاني القوة من اللحية . وتلميذنا إنما يريد أن يرمز إلى من القوة والفحولة التي تأنس إلى الشوارب ولا تطيق اللحية التي لا يطمئن إليها المرء إلا مع فتور الحيوة .

ونم في مكان آخر من « الفصل » تلميذاً ثانٍ يجفر على غطاء « درجه » يداً ممسكة عصا ضخمة ، فماذا ترى حري بباله حين حفر خطوط هذه وتلك بسمياته ؟ لعل معلمه أداه طعم العصا فخامره الاحساس بها ، وبه تزل تدور في نفسه رهبة هذا السلطان الذي يدل عليه وقع العصا ، فأحري مبراته على الحشب بهذه الخطوط التي تمثل له المظهر المؤلم البارز هذا السلطان . وهناك في مكان ثالث صبي آخر يدينو منه المعلم فتتحرك يده في حفة وسرعة لتخفى في جيبه ورقة ، ويلامحه المعلم فينزعهها منه بإد

فيها صورة أنف كبير كخرطوم الفيل ؟ فماذا يا ترى في هذا أيضاً ؟ مردا يريد فتانا بهذا الأنف الذي كأنما عناه ابن الرومي بقوله
 حملت أنفاً يراه الناس كلهم
 من رأس ميل عين لا سقيس
 لوشت كسباً به، صادفت مكتسباً
 أو انتصاراً مضى كالسيوف .

لعل هذا الأنف رمز لمعلم يتضاحك به التلاميذ ، ولا يقدر هم على حكمهم لضعف فيه أو قلة حزم أو لأن شكل أنفه على وجهه يرمز للتلاميذ ، بالضحك من أن تجدى معهم شدة أو حيلة أو شيء في مدرسه آخر من « الفصل » أيضاً . تلميذاً ناهز الثالثة أو الرابعة عشرة من المدرس كشكوله - كراسة الأعمال اليومية - فإذا هو قد ملأه مدسه أن يكون صوراً أحسام عارية : في صفحة صورة فتاة ناعمة . وفي صفحة مسدل على كتفين يبرز من تحتها ثديان باهذان ، وفي صفحة أخرى رسم أبرز ما فيه ضخامة الردفين والسجام الساقين تحتهم . وفي صفحة ثالثة من كشكول تلميذنا رسم قدمين صغيرتين في حذاءين حبيبين وهكذا .. فإلى أي شيء يرمز هذا الصبي الحري ؟ مد يد يده راسية بالاشتغال بها عن الدروس ؟ لعله هو نفسه لا يفهم أسر ولا يستطيع أن يشرح لك الدافع . ولكن المدرس ، إذا كان نبياً فضلاً ، يربط في هذا التلميذ أكبر من زملائه قليلاً ، وأنه لا يبعد أن يكون قد بدأ يسمع مدح رجال ، وأنه يعبر بما يحفظ عن إحساسه الحسي بمصرى الذي أحده يد في جسمه ويتمشى في نفسه ويقتنه كرهه من صورة ومواضع ملاحة فيها وبواعث الافتتان بها ودواعي الرغبة فيها ..

لماذا يفعل التلاميذ ذلك ؟ بعض أنه لا خلاف في أنهم يمد يدهم يمزولون . إذ كان لا يسعهم أن يقول مد . يصورون . لكل مد مد في موسهم وقع وأثر . ولا يفعلون ذلك طلق نشاء ، أو انتماساً لحسن

الأحدثوة وخلود الذكر ، لأن ذنبهم أن يخفوا هذا الذي يصنعونه ، ولا يدعون عينا أجنبية تطلع عليه . وكل ما في الأمر أنهم دلوا بما خططوا على ما له تأثير في نفوسهم أو ما يشغل خواطرهم . فكانوا بذلك مثالا مصغرا لمزاولة الفن لذاته .

وهناك طور آخر يتلو هذا ويكون الشاعر فيه قوام النظام الاجتماعي ، ونصير الدين أو الملك أو الرئيس أو الوطن أو لسان العصبية . وهو طور حلا به في الواقع عصر القبائل عند العرب ، أيام كان الشاعر عضداً للقبيلة وبصيرها وفارسها وحاجبها وجلادها والداعى إلى خوفها وخشية بأسها ، واشتيد بذكرها واندون لماخرها وأيامها ، أو بعبارة أخرى أيام كان العرب لا يهتدون إلا بمولود يولد وفرس تنتج وشاعر ينبغ : بالمولود ليشت منه فارس يذود عن القبيلة ، ويحمي حقيقتها ، ويدفع عن بيضتها ، وبتناج الفرس ليركب في الحرب ، وبالشاعر ليزيع محامد القبيلة ، ويهجو عداتها ، ويدون تاريخها ويسجل أيامها . ولم يكن الأمر كذلك على عهد ابن الرومي . نعم كان الشاعر لا يجد سوقاً تنفق فيها بضاعته إلا بين الملوك الحكام والأمراء والأشراف والموسرين ، إذ كان هؤلاء وحدهم القادرين على توليه وصلته ، والإحسان إليه جراء إحسانه إليهم وإلى فنه . وما كان هؤلاء ليلقوا بأموالهم من الواقف ، فإذا وصلوه وأجدوا عليه فإنما يفعلون ذلك ليحلدهم في شعره ، ولينتقم لهم من خصومهم ومنافسيهم وحسادهم ولكن حالات الاجتماع كانت قد تغيرت قليلاً ، وتبدلت مراتب الناس وعلاقاتهم ومسايعهم غير ما كانت . والشعر كغيره ظاهرة اجتماعية . فكيف يحو من هذا التطور الذي طرأ على ظروف الاجتماع ؟ كان قضاء الكلام ومباصلة ، الشيوخ والرؤساء أو الملوك والوزراء والأمراء ، فظل هؤلاء ، ولكن ظهر إلى جانبهم العلماء والأدباء والرواة والنقاد ، وبدأ

الجمهور يبرز بعد الحفاء ، ولم يكن يفتق الشعر إلا أن تظهر المضاعف ووسائل النشر التي جددت بعد ذلك . وهي غير ذلك الزمن ، وفي ثم أخرى ، ليستقل هذا الفن عن الملوك والأمراء والرؤساء ، وتدور دونه تحكمهم في الشعر وأغراضه ومسايعه . ولينحدر الشعراء ويحلوهم الحو . ولتصبح الصلة بينهم وبين الجمهور مباشرة لا يعترضها شيء كما هي الآن مثلاً . وهو ما لم يشأه الله للشعر القديم .

إذن فقد كان ابن الرومي في طور انتقال ؟ نعم . وبذلك يشهد شعره وليس في عزمان أن تنقل هنا كل ما يدل على ذلك وسنحرق بأمله فيه منها قصيدته الرائعة لما اقتحم الزنج العسرة وأعملوا في أهلها سيف . وفي مساكنها ومساجدها النار ، فقال ميمته الفريدة في لغة العرب . واستنفر فيها « الناس » - الناس أى الجمهور لا الحليفة ولا ورده ولا الأمراء . وجعل يستنفر نخوتهم فيها بوصف العسرة وعمرها ومرصتها (مينائها) ثم بالأهوال التي حلت بها من عرة الزوج ، والمضطجع نرى اجترحوها ، والحرمان التي استباحوها ، ثم بتصوير الخراب الذي حر بها ، والهووان الذي أصابها ؛ ثم بتصوير الموقف في الآخرة حين يلتقى الضحايا والقاعدون عن نجدتهم . عند حاكم الحكام . وتأييه سبحانه فنه على خذلانهم إخوانهم ؛ ثم باهاتيه « بالناس » أيضاً أن يثقلوا لأنفسهم النسي ~~هنا~~ ولومه أمة ؛ ثم استفارهم بعد كل هذه المثيرات والحوار إلى إدراك النار وانتفاذ السبي . وهي قصيدة في الطبقة الأولى من الشعر ، لو غيرت ما فيها من الأسماء والمحليات لجعل إليك أنها ما قال يبرون في سيل استقلال اليونان أو توماس هاردي في بلاد الحرب العظمى . وإنه ليؤسفنا أنها أطول من أن تنقل ، وأنها لا تختمل الاختيار ولا تقبل الاختصار . فليرجع إليها القراء في الدواير ليروا كيف عدل بالحطاب عن سياقه المألوف

في ذلك العصر ، ولم يعبأ لا بالملوك ولا الأمراء ، ولم يفرض أنهم هم وحدهم المطالبون بالدفاع والنجدة ، بل اتجه إلى جمهور الناس بصفته فرداً يقدر ما عليه وما على الأفراد مثله من واجب قومي ديني لا يخليه هو أو سواه منه شيء . وإنه لعجيب أن تخلو القصيدة من كل ذكر أو إشارة صريحة أو خفية ، للحكام . وليس يسع القارئ إلا أن يذكر بها ما كان يستفر به الكتاب والشعراء والحماهير في أممهم في إبان الحرب العظمى الأخيرة .

ومن الأمثلة أيضاً أسلوبه الروائي الذي يطالعك من أكثر قصائده ، وعدم اقتضاره في الوصف على الظواهر المحسوسة ، ومحاويله الافضاء إلى البواطن وتصويرها ، وتنوعه لحالات نفسه ولما يتقلب عليه ويمر به ، حتى علب ذلك على شعره على الرغم من الأغراض الأخرى التي كان ينظم فيها الشعر من مثل المدح والهجاء والعتاب والاستعطاف وغير ذلك .

وليس يحصى عينا أو عدة من خصائصه هو ، ومميزاته التي انفرد بها . ولكن من الذي يستطيع أن يذكر أن ما تبتكره الشخصيات الممتازة يكون من عوامل التطور التي لا يمكن إغفالها ؟

وبعد ، فإذا كان في أهاجي ابن الرومي كلام لا يعد من الشعر الصحيح بمعناه الإسمي ، فذلك على الأكثر ذنب عصره الذي كان يقبل ذلك ويتسع له ويغرى به في الواقع . كما هو الشأن في أفحاشه وعمره التي لا تطفئ في عصرنا الحاضر مثلاً . ونقول على الأكثر ، لأن ابن الرومي كان حاد المزاج سريع الغضب متمرد الطبع . فعصره ، من ناحية ، كان يبيح له أن يفحش وأن يأتي بالشذات ، ويخرج بالشعر عن سبيله ، ويعدل به عن غايته . ويتجده في بعض الأحيان أداة انتقام شخصي فطبع . والله لا يعيبك ، حتى في أفحاشه ، أن يلمح باعثاً خفياً سامياً يخرجه عن طوره . فقد كان الرجل على كثرة أصاحيكه حاداً في حياته وفي الشعر

إليها . ولم يكن لهوه وعشه إلا لفرط إحساسه بمرارة الحقد في هذه الحياة ، ويشعرك بذلك قوله ، وهو حسينا شاهداً مغنياً عن كثير أمثاله .

كيف العزاء وما في العيش مغتبط
متى نعش ، فيلبي الأحياء يدركنا
لا بد من مية للمساء أو هرم
والبيض والعجون لانهوى فراقهما
وكل هو لهاه الناس مشغلة
ولا اعتباط لأقسام يمتدوا
وإن نعمت ، فلي الأموات يقصوا
يظل منه حبيذاً تقوى موهب
ولا يران ندم البيض وحبوب
عن ذكر ما هم من لأحداث لاف

وهو على كثرة ما في شعره من الفحش ، صحيح الإدراك من حيث الآداب والأخلاق . ومن شاء أن يقدر مبلغ ما رزق ابن الرومي من صحة الإدراك الأخلاقي مما عليه إلا أن يدع ما يراه في كلامه من شتى من المنافي وأن يبحث عن البواعث التي دفعته ، والأسباب التي أعزته . وبه لا يلبث أن يتوسم من معاريف كلامه ، ويستشف من وراء غطه ، صحة مبادئه وعظم نصيبه من سمو النفس وجلالة الروح .

أما أهاجيه الفكاهية فمن أبدع ما له . وهو في أكثرها مصور كعادته . لا تنقصه إلا الريشة واللوحة . بل لا تنقصه هاتان لأنه امتصاص من الريشة بالقلم ، ومن اللوحة بالقرطاس ، فاكفئ بهما وأنت في السطع انديع ما لا تشبه الألوان والأشكال . كما يقول صديق الأستاذ العقاد فمن ذلك قوله في بعضهم :

وخ اس يوسف البت الويخ عاحيه
طول وعرض بلا عقل ولا أدب
فما بدايه في سوده أنوب
فليس يخس إلا وهو مصوب !
ولو غيره من الضعاف لعدل عن « المصوب » إلى ما هو دون ذلك .

ومنه وصفه للأحلب ، وقد تقدم ، وقوله في أبي حفص الوراق وكان قصيراً :

وقصير تراه فوق يفاع
لم تدع قفذه يذُ الدهر حتى
وجلت رأسه - نعمًا - فأضحى
يا أبا حفص الذي فطن الدهر
ظرف الدهر في اتخاذك صفعا
وقوله في بخيل :

غلبونا إلى ميمون نطلب حاجة
وقال : اعزروني إن بخيل جبلة
إلى كثير من وصفه للأفقاء واللحي والعنانين والمواقف المضحكة
كقوله :

إن أبا حفص وعشرونه
قد أغريا بي بهجواتي معا
أقسمت ما استجد عشرونه
إن كان كفواً لي في زعمه

وشبه بهذا الموقف المضحك قوله في متفلس دعى يتسقرط ويزعج
نفسه فارساً كبيراً :

أطلق الجردان بالليل
وصح : هل من مبارز ؟
وقوله في بخيل أو من يزعمه ابن الرومي بخيلاً :

يفتر عيسى على نفسه
فلم يستطع لتفكيره
وليس يساق ولا يخالد
نفس من منح واحد !!

وليلاحظ القارئ أنه لا يخلط بين مجال المصور ومجال الشاعر ،
ولا يحاول أن يجعل قلمه ريشة ، فإن ذلك لا حير فيه ولا ثمرة له ، ولكن
يجب لك بما هو حري أن يعينك على تصور ما يريد . وآية ذلك أنه حين
رأى أن يصف قصر أبي حفص وضعه على يفاع أو مدفع يساعذك على
تقدير النسبة ، وذكر لك أنه صرح : رأسه محنق ، وأنه من الصنع حيث
لا يوارى بيض قملة ، لأنه لا شعر هناك ، وأن صنع الدهر له قمع طوله ،
ونأمل كذلك تصويره معنى البخيل بقوله إن اليد محدوقة حنقة الحفص
والمعنى ماذا يسع المصور بريشته في مثل هذا ؟ إن البخيل يس مما صنع
به الوجه ، ورسم اليد مطبقة لا يدل عليه ولا يفيد الناظر شيئاً فهو
كما ترى مصور ، ولكن في حدود فنه وفي الدائرة التي تعينه قدرة الشاعر

(٥)

فلسفته

(أ)

هل لابن الرومي فلسفة تستخلص من شعره الذي كان يهصب به
ويصح ؟ أو إن شئت ، وكنت مثلاً لا تقوى أضراسك على مصع الحلاميد
أننى يطلقون عليها اسم الفلسفة أحياناً ، فقل هل له مذهب في هذه
الحياة ؟ وكيف كان إدراكه لسننها ، وإحساسه بصروفها ، ومحاولته
لرفعها ، وملابسته لحالاتها ؟ وهل أركض عقله في ميدانها وأطلق حياله
في سمائها ؟ وفي الحواب على ذلك ، الحكم على ابن الرومي . فإذا كان
الحواب نعم ، وكان الرجل عندك صاحب نظرة خاصة إلى الحياة ، فقد
انكته مع الفحول . وإن كان لا ، وأحج أو لا يكون كذلك ، فقد
هبطت به إلى منزلة الظرفاء الذين يلتمسهم امرأة أحياناً ويصو عد عنتهم
لحد والتفكير ، ويحاضروهم محاصرة انفرقه الملهي ، كما يداعب الشيخ

الوقوف غناه الحدث ، ويمسح له جبينه ، ويلمس كفه صباحة عياه الجديد
ونضارة متوسمة القشيب ، ويجرى معه لسانه بالكلام الخفيف ، ويضاغيه
ويلاطه ويمتع سمعه وعينه بسذاجته وبجهله الخلو وغفلته اللذيذة !

ونتندر إلى ابن الرومي من هذا السؤال - لو أنه يعي اعتذارنا أو يحفل
ما نقول فيه ! - وأكبر الظن أنه لو كان حياً ، ورأنا نسأل أله مذهب
أو رأى في الحياة ، لأخبت إلينا وأوضعت أهاجية النارية :

من كل سائرة بذلك يرتمي بركابها الأغوار والأنجاد

فالحمد لله الذي أماته قبل أن يُحيينا ! فما نظنه كان يشفع لنا عنده أنا
نشيد بذكره ونشتر مطويه وننصف عبقرته .

كلّا ! لا مرء في أن ابن الرومي من كبار الفحول ، وأنه كان يحس
الحياة بكل حارحة فيه ، بل يقبل على الحياة وينشد الإحساس بها ويعرّى
أعصابه لها ، ليتمل من الشعور بها يلبسها بروحه ، ويدبر عينه ويقلبها
تارة في نفسه وتارة أخرى فيما حوله ، ولا يمل التأمل ، ولا يفتر عن
التسر . ولا يكف عن المقايسة والمقابلة ، وعن إرسال النظر رائداً واجالة
العكر حاصداً . وبماذا خرج ؟ قد لا يرضيك ما انتهى إليه واستقر عليه .
ولكن ما قيمة ذلك ؟ إن الشاعر ليس مطالباً بأن يقدم لك مذهباً فلسفياً
حامف متصل الحدود واضح المعالم ، ولا بأن يحسر لك ظلال الابهام عن
مشكلات الحياة ، ويربح حجب الظلام عن أسرار الوجود . بل حسبنا منه
أن تكون فكرة عن الحياة بحيرها وشرها ، وسعودها ونحوسها ، وقولها
ومظاهرها . وأن يفضي إليك بوقعها الذي لا مهرب منه ولا متحول عنه ،
والحياة . بعد ، لها آخر من وحه واحد ومظهر واحد وليست صفحتها
العاصفة السوداء التي يفتحها لك الشاعر بأقل فتنة أو أضال نصيباً من
الصواب ، من صفحتها الواضحة البيضاء التي ينشرها لك الفلاسفة

والعلماء . فإذا كان لا يروقك ما خطه ابن الرومي في صفحته ، واطلعتك
منه على جانب من تاريخ الإنسانية ، فإن في الحياة كثيراً مما لا يروق
ولا يعجب . وهو مع ذلك من لوازمها . ولقد سبق من ابن الرومي الاعتذار
من ذلك بأن سأل « أما ترى كيف ركب الشجر ؟ » .

ركب فيه اللحاء والخشب اليا . بس والشوك بينه الشعر
وكان أولى بأن يهذب ما يخلق رب الأرباب لا شـ

وكان ابن الرومي يرى أن الأدب فن نزاول ويتعهد ويكون شامخاً
« أعنى الخدم » وينقطع له ويتوفر عليه وينحرف بسبه عن كل كسب .
ويبت « يمرى فكره تحت الظلم » وأن للأديب من أحل ذلك حقاً على
الناس وحرمة واجبة الرعاية ، وقدما تستحق أن تثاب . وأن من تسي
حقه فقد ظلم . فليس الشعر عنده عبثاً ولا هواً ، بل هو عية لحد .
وليس مطلبه بالسهل الخير بل هو مغاص في درك السجة ، من دون درود
الخطر .

وفيه ما يأخذ التخير من غا ل ثمين ، وفيه ما يلز
وهو فن حي ينشأ ويشب ويهرم ككل حي آخر :

والشعر كالعيش ، فيه مع الشيبة شيب
ولا تُكران أنه قال في آخر حياته :

حقام يا سائس الدنيا توخرني وإني لنظير الصلر لا الكفل
لكل قوم رسوم أنت راسمها ولست فيهم بدى رسم ولا ضل
لا في التجار ولا العمال تنصى وإنسى لقليل شل وسدر
ولكن ذلك لم يكن لزاوية على الأدب ، أو اعتماص لفرده بل هي همة
على سوء حفظه المادى . وكيف تعقل منه الرأية على مه وهو في القصيدة
عينا يقول :

في « دولتي » أنا معصوب ومي رمي عودي طمى بلا رى ولا بلل !

ومن أين جلاوته « الدولة » وصار له « زمن » بغير شعرة ؟ وحسبك شعوره هذا بأن له دولة وزمناً ، دليلاً على إكباره فته . وليس هذا بالخاطر العارض ، فإنه المسائل في معرض هجاء لأبي إسحاق البيهقي :

أيهقي يقول الشعر في زمني ؟ أولى له ، ما لمثل تنبغ النبغة
وما انتهاني به شعري ، وحلقته تهجوه عنى وعن عيرى بكل لغة

ولم يكن يقول كالعرب إن أمتهم أشعر الأمم ، وحكمتها أعظم الحكم . بل كان يقول :

قد تحسن الروم شعراً ما أحسنه العريب
يا منكراً للمجد فيهم أليس منهم صهيبي ؟

وصهيبي هذا ، ابن سنان ، صحابي أصله رومي وأسلم ، وفي نظرت هذه اتساع وانصاف وخلو من عصبية كانت تكون منه متكلفة غير سائغة . وهو كما أسلفنا رحل متشائم . وعنده أن الطفل إنما يبكي « لما تؤذن الدنيا به من صروفها » وأنه لذلك :

إذا أبصر الدنيا استهل ، كأنه بما سوف يلقي من أذاها يهدد

ويعلل ذلك بأن للنفس أحوالاً . تشاهد فيها كل غيب سببشده . وكأنه يريد أن يفعلك أن هذا الرأي هو ثمرة التجربة ، وأنه لا يرمى به جزافاً ، ولا يلقيه على عواحه . ومن أجل هذا يمهده له بأنه إنما يذهب إلى ذلك بعد أن شلت رأسه . وقوت فئاته ، ودب الكلال في عظامه ، وتوكل على العصي . ولا غربة بعد ذلك أن للدنيا عنده :

دار غريب خيرها وترى الشرور بها ثم به
أدوت وغاب دواؤها عن كل نفس مستطبه

والمرء منذ يولد إلى أن يموت في التراب « رهن النوائب » وحسبه من هذه النوائب فقد شبهه :

ولو لم يصيب إلا بشرح شبهه لكان قد استوفى جميع المصائب
وما دام المرء يموت فليس في العيش مغنيط ، وكل فهو مشعة عن داء . يلاقيه المرء من الأحداث . وكيف يطيب العيش بلا ناس وهو موفى أن طيبه سيذهب كالخلم ؟

ومن كان في عيش يرعى زواله فذلك في يؤس . كان في مع
وكرر الأيام انتفاص من القوى . حتى الأساء تحول وتغص من المرء يراد في « الأبد » ويضاف إليه ، وهم عبارة عن قوى تستجدها الحياة بأن تقضها من الأباء ، والمرء يسر بمولوده وهو لا يدري أن يوم يهده شد منه أبنائه .

ومن العجائب أن أسر بما يشد بأن أهد !

ولكن هذا ليس بعجيب إذ لولاه لما طلب الناس الذرية .

والمرء إذا أمل أن يعيش مثل ما عاش « فيا ويحه إن خاب أو أدرك الأمل » لأنه إذا طال عمره اكتملت همته ولم يعد يجد اجتهاجاً بما كان يتتهج به ، أو قدرة عليه أو بشاشة له :

وحسب من عاش من خلوقته خلوقته تحريمه في أمره
وإذا فانت المرء متعة فهو غير معون في الواقع ، لأن من يدرك شيء لا يزال قلقاً خائفاً يترقب انتقاده . أما من فاته متعة فهو مطمئن وقد أمن أن يرزأها :

وكفى حزاة لا مري عن فانت أن لا يخاف عليه صرف زمان
ومتى كان الأمر كذلك :

لا تعطن الترمين فابهم عل حسب م يكسوهم الدهر يسلب

وسليم الزمان كمنكوبه ، وموفوره كمنجوبه ، والمنوح مثل المنوع ،
والمكسوف مثل المسلوب :

ومحبوبه رهن مكروهه ، ومكروهه رهن محبوبه
ومأمونه تحت مخدوره ، ومرجوه تحت مرهوبه
وريب الزمان غذا كائن وغالبه مثل مغلوبه

فإذا غصبك الزمان حفظك فاستر نفسك فإن هذا السر لا يُغصب .
ولا يمر على كل حال من القدر ، فطامن حشاك فإن ما تحب وما تكره
واقعان بك لا محالة :

وإذا أتاك من الأمور مقدر وهربت منه فتجوه فتوجه
واسعاده والشقاوة حظوظ . والحظ يأتي صاحبه وادعاً ، ويعنى سواء
ساعياً :

إذا كان سجرى كوكب سميت هامة علاها ، وإلا اعتاص ذلك مطلباً
والذى يسعى ليدرك حظه « كسار بليل كى يسامت كوكبا » .
ولو لم يمر ، واقاه لاشك طلبه . بغير عناء بادئاً ثم عقبا
ولا يحسب أحد أن ابن الرومى راض عن ذلك . وكيف يرضى عنه
وهو لا يرى مطلب الدنيا يهون إلا للجهلاء والحمقى ؟

فليس ينفك ذو علم وتحربة من مأكل جشب أو مشرب رنق
ودو الجهالة مهسا فى بلهية من مسمع حسر أو منظر أنق
وهل يعد راضياً من يقول :

تبارك العدل فيها حين يقسمها بين البرية فسماً غير متفق
وقد أخى فى قصائد شتى على المخطوط ، وعزى نفسه مرة بأن الصخر
راجح الورن راس ، وأن الدر شائل الورن هاب ، ومرة أخرى بأن الجيف
المتنته هى التى تظفر على النجفة ، أما الدر فيكون نخعها فى حجاب ، وطوراً

بأنه لا وجه للعجب والألم من تحطى الحظ لأصيل الرأى لأن الله خلق
الناس بلا وير وكسا البهائم « أوباراً وأصوافاً » ! وطوراً بأن هذه الدنيا
ليست سوى جيفة ميت :

« وطلأها مثل الكلاب التواهى » !

وأنه لا عمل لتفاضل الناس « بتفاضل الأحوال والأخطار » فإن هذا
جور .

وإذا كانت الدنيا كذلك ، وكان الشر فيها عائلاً ، فالقدر وحسب وحرم
فرص ، ليقل التحنى على المقدور . وعلى المرء إذا ظن شراً أن يحده « وب
شر يقينه مظلونه .

كم ركونى جنى عليك حذاراً من أطلال الركون قل وكوبه
ولا تبين آمناً من أحد ، قاس ما يكون المرء إذا ليس يحسب من
الخطوب .

ومن أمن النفس أن تخاف ، وأن تستشير الحزم ، والعدو مستفاد من
الصدق .

فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب
ومن الحكمة أن لا يقلع المرء الحاكم فى أيامه ، خوفاً سطوته بل حتى
إذا أصابه الزمن بصرفه ، حذراً من رجعه .

فليعلم الرؤساء فى راهب . للشر ، والمرهوب من أسبابه
واعلم أن الناس من طينة خسيصة « يصدق فى الثوب ما التاب »
لولا علاج الناس أخلاقهم إذن لفاح الحمأ للارب
وأديم الإنسان من أديم الأرض ، فهو مثلها حبس ، والمصر تنوم
رجوعاً إلى طبيعتها ، والنوم مركور فى الطبع الشرى . مركب فى الحبلات :
ولابد من أن يلوم المرء بارعاً إلى الحمأ المستون صرية لارب

حتى النفس الكريمة لا مفر لها من رجعة إلى هذا الحمأ المسنون « ثم تكرم » . والشر بين الناس عام مشترك ، وهو الأصل ، أما الخير فيهم فغير مشترك . والضعيف في الدنيا موطأ مهين ، والقوى محترمون مرهوبة شيرته . والخير المسلم أو الملقم الأظفار لا يعاب به أحد أو يحسب له حساباً .

لا بدع ! إن الحرب مرقوبة والسلم لا يرقبه راقب

ولهذا كان الحلم ضعفاً ، وكانت رقابُ أهله مقصودة بالهوان ، فلا بد من اقتراع الجهل فوق الحلم ، وإلا اعتمد المرء بالإساءة واستخف به الناس واستطاعوا عليه .

من صونك الحلم أن تدععه الجحش سهل فظاسه من دونه زرده وأكثر الناس يتسخون طلباً للحمد ونفاقاً ، ويتكلفون الندى ولكن الكريم ليس الذي يعطى عطيته عن ثناء أو التماساً للذكر

بل الكريم الذي يعطى عطيته لغير شيء سوى استحسانه للتفلا

ومن كان هذا شأنه فهو لا يبدل العرف ليصيد به محمداً ولا يمن على من يقلده منه .

وإحسان الذي من هذا الضرب آس للقلوب ، والنفس إذا تذكرت أبايتها الحاضرة لوجه الله « أفادت من معالجة الكروب » . والنعى قيد ، وكسها إذا قولت بالشكر زال القيد ، وتكافأ المعمر والشاكر ، لأنه إذا كان المعمر قد حاد بماله أو حازه ، فقد جاد الشاكر من فؤاده .

ولقد كافأ بالنعى لمرؤ كافأ النعنى بإخلاص الوداد ولا ينبغي أن تكون الفضائل باعثها الرغبة أو الرهبة .

أحب قومًا لم يحبوا بهم إلا لفردوس لديه ونار ؟

والخلف الكاذب جائز عنده مع الاضطراب وضيق الحال :

وإني لذو حلف حاضر
وهل من جناح على مرهق
إذا ما اضطرت وفي الحال ضيق
بمدافع بالله مسالاً يطيق ؟

والحشمة محبوبة بين الصديقين لتحجز بينهما وبين العقوق ، أما النسيب الذي يؤدي إلى بخس واجبات الحقوق فلا حبذا هذا وأقبح به .

• • •

(ب)

قد بلغنا ، ولا حمد ، أعوص مسائل ابن الرومي . ومعنى به بصرته في فلسفة الجمال . وليس وجه الاعتياض أن في شعره عمومته أو اتين أو اضطراباً يدفعك إلى الشك في تأويل بظرفته . أو التردد في حمده على ما يغريك به بعض كلامه . كلا ! فإن ابن الرومي شاعر مشرق لا يحده ناصع الأسلوب ، واضح المحجة . وهو عواص لا يستحقه مدح في أول الخاطر ، ومصنف يأبى أن يدع ذرة تغفلت . ودقيق دوائر العين يظن الإحاطة بجوانب ما يتناول ، وملحاح لا يجترئ أن يدفع إبيت حكمة ناضجة نامة ويدعك وشألك معها ، بل يبرزها لك كلها عرست مسنة ليقسرك على الالتفات إليها والعناية بها ، حتى كأنه لا يصمش ودكائك وقدرتك على الالتقاط والتعطف . وإيما وجه العسر والمشقة هو كيف تناول الموضوع ؟ ومن أية ناحية بظرفه ؟ وماذا مأخذ وماذا مدح ؟ وما يصعب المشقة أننا لا نحب أن نظل مكتف عر ابن الرومي إلى آخر العمر ! وأحر بأن لا نفرغ منه إذا أردنا الاستقصاء . إذ كان معنى الاستقصاء أن نضع عن كتابنا صحفاً له أو لا وليس له آخر في فلسفة الحمار ، وأن نعترف من أجل ابن الرومي وإكراماً لحاظه ولسواد عبيبه . إذ صبح أنهما كتابنا

سوداوين ١ - تلك العوز التي زحم بها الطريق أفلاطون وأرسططاليس
وبلوتيناس من القدماء ، وكانت وشلنج وهيجل وشوبنهاور وهربارت
ولسج وجيته وشيللر ومقات غيرهم من الألمان ، وبيروفيروتن وليغيك
وسواهم من الفرنسيين ، وهتشسون وشفتسبرى وريدورسكى وهوم وبيرك
واليزون وبين وسينسر من الإنجليز ، وأن نحاول أن نقاس في ذلك اليم
الطامى كل هاتيك اخيتان القطيعة ! لا يا سيدى القارئ عفوك ! فإنى كابن
الرومى لو ألقيت فى هذا البحر وصخرة ، لو أقيمت منه القعر أول راسب ! .
ولم أعلم قط من ذى سباحة

سوى الغوص ، والمضغوف غير مغالب

وكما كان أيسر إشفاقه من الماء أن يمر به فى الكوز مر المجانب «
كذلك أيسر إشفاقي من مباحث أصحابنا هؤلاء أن لا أقرب الرف الذى
فيه كتبهم ! وإذا كتب الله لى أن أفتنها أغمضت عيني ! ولقد كنت فى
بعض ما سلف من عمرى جريئاً ، وكنت لا أتهيب كل التهيب أن أفتح
واحداً من هذه الكتب ، ولكنى كنت لا أكاد أعبر بضع صفحات حتى
أحس كائى مظل من زحلوقة على هاوية سحيقة ، فتفرج شفتاى عن
صوت كهذا بوررر ! فأرفع رأسى فرعاً ، وأمسك بجوانب الكرسي
حتى تطمش نفسى ويذهب عنى الروح وأحمد الله على السلامة !

إدع فما العمل ؟ وكيف تم - على أى وجه - ما بدأنه من الكلام
عن ابن الرومى ؟ الحق أقول لك ، أبها القارئ ، إنى لا أدري ! وقد بدأت
أشعر لابن الرومى بعبط واضطغان لدفعه إياى إلى هذه المآزق المرعبة .
ولقد حدثنى نفسى أن أثير الكلام مكتئباً بما سبق ، وأن أحمل الختام
هجاء له ! - لكنى ذكرت قوله :

رقاذك ! لا تسهر لى الليل ضلة
أبى وأبوك الشيخ آدم ، تلتقى
فلاتهجنى أحسى من الخزى أنى
ولا تتحشم فى حوك القصائد
مناسبا فى ملتقى مسه واحد
وإيساك ضمنى ولادة واسد

فعضضت شفتى وعدلت ! وبدأ لى أن أضرب صفحا عن شواهد
على قدر الامكان ، لأنها آلاف مبعثرة لا يتسع لقلها مقام . ولأى
ما يدل عليه شعره ، أى أن أقدم للقارئ صورة عامة محممة عن ابن
الرومى وأن أدع له رسم الخطوط التصيلية إذا شاء . وماذا لا يتبع
القارئ قليلاً ؟ ما الذى يوجب على الكاتب أن يتكلف كل صروب عذ
حتى لا يحوجه حتى ولا إلى « هضم » الفكرة ؟ ماذا يصنع القارئ برأيه
هذا الذى فوق كتفيه ؟ أليس أجدى عليه أن يحتاج إلى التفكير لنفسه
ولنفسه حتى لا يعتاد الكسل ، وحتى لا يعود رأسه حملاً على كتفيه « هـ
أصلح ولا شك ! فإن كان لا يعجبه هذا ، ولا ترصيه طريقة جديدة .
فما عليه إلا أن يقف عند هذا الحد ولا يمضى فى قرينة نفس ! ولأن
فلتبدأ :

من أول ما يلفت النظر فى شعر ابن الرومى نوع إحساسه بضعفة
فهو لا يحسها ولا يتأملها إلا إحساساً شعرياً ، ومعنى بذلك أن حياته
ينشط ، وأنه حين يتلبر قواتها ومباهجها وحالاتها المتشوعة . يفيض من
حياته عليها ، ويعبرها من إحساسه وحالته حتى تعود فى نظره حية
نلضة مثله ، لها حس وروح وذاكرة ، بل إرادة . نعم إرادة ! وحسك
أن تقرأ له هذا البيت من حميمته التى يثرى بها نبي الحسب العلوى .

لمن تستجد الأرض بعدك زينة فتصع فى أثولها تثيرج ؟
فإنك على أى عمل حملته ، وكيفما أولت صدر البيت ، لا تستطيع
أن تهرب من الشعور بأن هذه الأرض - التى تسمى الأرض أحياناً -

ليست مادة خالية من الحياة ولا صورة ميتة . على أن الطبيعة عنده مسخرة للحياة ، فهي دونها وبعضها ، ووسيلة إلى تحقيق غاياتها ، وليست نوعاً من الحياة قائماً بذاته مستقلاً عن حياة الإنسان . وهذه نظرية واضحة العلة ، لأنه يعد أن يريق عليها من فيض حياته هو ، لا يسعه إلا أن يشتمل عليها أو يجعل الحياة نفسها مشتملة على الطبيعة معه .

وقد تراء ، أحياناً ، حين يصف منظرًا ، لا يكفى بأن يعزو إليه الحياة والحس ، بل يكاد بخياله يمتزج في خلال هذا المنظر ويغيب في أثنائه ، لا من الوجهة المادية بل من حيث الاحساس . ونظن أن هذا الكلام يحتاج إلى مثله يضرب ويستعين به القارئ على فهم المراد فنقول : هبك تتدبر هيكلًا من أياكل المصرية القديمة مثلاً فإنك إذا كنت قوى الخيال أو شبيهه ، وأرقت على هذا الهيكل بعض حياتك أمكنك أن تتصور أن هذه العمدة ليست حجارة مربعة يستوى فوقها سطح ويتزن ، بل هي مثلاً حركة ساعدة مسمرة . أو قوى حية تعالج أن تقاوم الضغط الواقع عليها لئلا يرد أن يهبط بها . ولست تستطيع أن تتصور ذلك دون أن يخالجك إلى حد كبير نفس الاحساسات التي تفيضها على هذه العمدة وما فوقها - وابن الرومي حين يصف الطبيعة يعبرها بروحه ، ويضع نفسه موضعها ، ويقضى إليك بإحساسه معزواً إلى الموصوف . ولكنه مع هذا لا يفقد شعوره بنفسه وبالعدم ، ولا يكون كالمسحور ، بل يظل متفطناً إلى حقائق الدنيا اليمومية ، فكأن شعوره مزدوج : يقبل تصوير خياله للحقيقة ، ويتعلق به . ويكسحه عن العلو والاستعراق المفرط الاقرار الباطل للحقيقة الملموسة وراء ذلك . وليس يحصى أن الأمر في هذين يتوقف على عنصر النشاط الحيوي الذي يختلف باختلاف الناس ، وعلى مقدار الاختلاف في التحوار السابقة ، وعلى طبيعة المراح وغير ذلك مما يدفع إنساناً إلى إبتاء المراتب .

وآخر إلى التعلق بالأصوات ، وهكذا . مما يجعل مجال الخيال وعمله فيما يتناوله الحس ، مختلفاً باختلاف الناس .

رواضح من شعر ابن الرومي أن إحساسه بالجمال في الطبيعة وفي الإنسان لم يكن من طريق النظر والسمع وحدهما ، بل كان غوياً لأبصر ، ولا سيما اللمس والشم ، حظاً وافر من القدرة على إدراك الأشياء بالجمال . فكان إذا نظر مثلاً إلى زهرة يكاد يلمسها ، عذائتها من وصفه لها ، ويشمك أريجها ويشعرك كأنه يمسحها بكمه في فم . ويدنيه من أنفه في سكر . وكان حظ الشم عنده عظيماً ليس غير أن أوفر الحظوظ للسمع والعين ومن حقهما ذلك ولا سيما عند من هو على « يكاد » يدور كل إحساس له بالجمال في الطبيعة وفي الناس على « الغريزة النوعية » وذلك لأن النظر والسمع ، لكونهما يستبعدان تناول المثلث والمسموع عن بُعد ، يسمحان بأن يشترك في الشعور المسموع ، خلق كثير - وذلك أيضاً ما تستطيع حساسة شم من حد كبير . ومن هنا كانت حاسة النظر والسمع ، ثم حاسة اللمس ، حواس اجتماعية ، أي أن بها - ولا سيما بالأولين - يمكن أكثر من فرد واحد من الاشتراك في التأثر بالجمال ، ولذلك كانا هما الحاستان الرئيسيتان لأنهما وسيلة مشتركة للإحساس بالجمال ، ولصاعقة هذا الإحساس وتقويته بتأثير التعاطف . وإذا شئت دليلاً محسوساً على ذلك من عصر الحاضر فالتمسسه في نحاح المسارح التمثيلية ودور العناء والرفض والتصور المتحركة وما إليها . أصب إلى ذلك أن الاحساس من طريقهم أصمى وأسمى ، إذ كانا أبعد أخواتهما عن وظائف الحياة الضرورية وحاجتها الملحة ومطالبها المقلقة . وهما يحضرا إلى الأنباء الحسية في أقل حالاتها برعاً . لأن الأشكال والألوان والأصوات ، إذا قيس بما يلمس ويتصل

من طريق اللبس بأجسامنا ، أشبه بصور الأشياء المادية أو رموز بعيدة لها ،
ومن أجل ذلك كانت هاتان الحاستان أصلح من غيرها لأن يكونا أداة إلى
الاستمتاع الفنى بالجمال .

وقد كان لبن الرومى كما أسلفنا يرى الطبيعة مسخرة للحياة ومعوناتا
على حياة الفرد وحياة النوع أيضاً ، فهو القائل :

إذا شئتُ حيتنى رياحين جنة	على سوقها فى كل حين تنفس
وإن شئتُ ألطأتُ سماعُ بمثله	حمام تغنى فى غصون توسوس
تلاعبها أيدى الرياح إذا جرت	فسمو وتحنو بارة فتكس
إذا ما أعارتها الصبا حركاتها	أفادت «بها أنس الحياة» فتؤنس
تواضع فيها كلما تسمع الضحى	كواكب يذكو نورها حين تشمس

والقائل فى وصف روضة :

ورياض تخايل الأرض فيها خيلاء الفتاة فى الأبراد

وتأمل إلى جانب هذا البيت قوله فى نسوة .

ومبس فى حلل الأفواف عاطرة فخلتن لبس الروض أفوافا
فالروضة كأنها الفتاة تلبس فى برد مغوف ، والفتاة كأنها الروضة فى
وشبها المطرف ؛ وكما أن المرأة تتجمل وتزين وتنظر وتتدهن لتملك قلب
الرجل وتستولى على هواه حين تبرز له . كذلك الطبيعة فى الربيع :

أصبحت الدنيا تروق من نظر	يمنظر فيه جلاء للبصر
أنت على الله بالاء المطر	بالأرض فى روض كأفواف الحبر
نيرة النوار زهراء الزهر	نيرجت بعد حياى وخفر

نيرج الأنثى نصدت للذكر

والمرأة إنما تتجمل وتتحدى للرجل ، لا حباً فى الحرية ولا طمناً بمنحدر
من حيث هو وباعتباره غرضاً فى ذاته . وإنما تفعل هذا لأنه بعض سلاحها
الذى تقنص به الرجل لتؤدى وظيفتها التى خلقت لها ، وهى المحافظة على
النوع . وكذلك الحياء ، عنده ، سلاح جنسى ، لا تتكلفه المرأة
ولا تصنعه ، ولكنه من الصفات التى تضيف إلى جمالها . تجمعه أقداب
وأسحر للقلب . والمرأة حين تفوز بإرضاء عاطفتها الحسية لا تبتغى بالتجمل
ولا تفرص على زينتها أو حياؤها أو دلالها ، أو غير ذلك من أدوات قنصها ؛
إذ لم يبق لها من عمل أو عمل . وله فى ذلك آليات ليس تفتنى من
ولا أصدق ، وإن كان فيها فحش كثير ، ومنها :

تتجمل الحسنة كل تتجمل حتى إذا ما شرب مفتوح
نسيت هناك حياؤها ودلالها شفا ، وعند ما يحسى شح

وليس الجمال عنده شكلاً فحسب ، بل هو أيضاً تعبير . وهو فوق
هذا يأبى أن يكون له حدودٌ ينحصر فيها ويقتصر عليها ويسهل تعديده .
ثم هو ، إلى هذا ، صفة يتعذر التفريق الدقيق بينها وبين ما هو يربط من
الصفات . وما عليك إلا أن تقرأ له دليته فى وحيد المغنية ، وكان مشغولاً
بها . وفيها يقول :

وغير يحسنها قال صفها	قلت أمران : بين ، وشديد
يسهل القول أنها أحسن الأشياء	طراً ، ويصعب التحديد
تغنى كأنها لا تسمى	من سكون الأوصال ، وهى تجيد
لا تراها هناك تجحظ عين	لك منها ، ولا يدرك ويريد
من هدوه وليس فيه انقطاع ،	وسجور وما به تبليد

وفي صوتها يقول :

مد في شأو صوتها نفسٌ كما
وارقٌ الدلال والفتح منه
فتراه يموت طوراً وبخيا
فيه «وشى» وفيه «حلى» من النغم
ثم يقول مستغرباً مجيباً :

ليت شعري إذا أدام إليها
أهمي شيء لا تسأم العين منه ؟
بل هي «العيش» لا يزال متى استعمر
منظر ، مسمع ، معان من اللهو

وبهذا البيت الأخير يظن إلى ما فطن إليه شيللر الشاعر الألماني ،
وتلعبه عليه سينسر الإنجليزي ، من العلاقة بين الاحساس الفني بالجمال
وبين اللهو الذي هو نتيجة الفائض من النشاط العضوي .

وقل من بين شعراء العرب أو غيرهم من يقارب ابن الرومي في دقة
احساسه بالجمال في جميع مظاهره وأشكاله ، ولقد فقد شبابه وبكاه في
عدة فصائد ، فكان أكثر ما بكى منه أن فقدته القدرة على التمتع بالجمال .
اقرأ له قصيدته التي مطلعها :

لئن ضلوعى جمره تنوقد على ما مضى أم حسرة تتجدد
وقابل قوله فيها :

وفقد الشباب الموت يوجد طعمه صراخاً وطعم الموت بالموت يفقد

فماذا تراه في ظنك بكى بهذا البيت ؟ الموت في حياة ؟ وماذا يكون
هذا إلا ما ذكرنا ؟ ثم قوله بعده :

سليت سواد العارضين ، وقبله
وبدلت من ذاك البياض وحسنه
لشتان ما بين البياضين : معجب
وكنت جلاءً للعين من القذى
هي العين النجل التي كنت تشككي
فما لك تأسى الآن لما رأيها
يبيضا دميلاً لا يزال أسود
أبيض ، ومشوباً إلى العزى لحد
فقد جعلت تقذى نسي وترمد
مواقعها في القس ، وأأس أسود
وقد جعلت مرمى سوك تعمد

إلى أن يقول في انصراف بل العائيات عنه :
إذا عدلت عنا وجدا عدولها
ثم صرخته :

آياهم لموى هل مراضيك عود وهل لشباب صل - لأمس مشد

خاتمة

أخطأ حسلي وحساب الناشر ، فجاوز الكتاب ما كنا نتوقع له ، وما كان العزم أن نقصره عليه ، فمعدرة إذا كنا قد أسأنا بالامطالة ، وضاعفتا بها بواعث الملالة !

والكتاب ، كما هو الآن في يد القارئ ، يمثل مترج الناشر أكثر مما يمثل نفس الكاتب . فقد أبى إلا أن يخليه من نقد المعاصرين ليربح نفسه من حماقات المعتاتين ! وحسنًا فعل ، أو شرًا فعل ، كما تريد ! ومن الذي يستطيع الراحة ولا يستريح ؟ غير أن الكتاب بهذه الصورة يعرض منى جانبًا ويظوى جانبًا ، ويصور للقراء لين ملمسى ويستر أظافرى ، ويبدى مفتراً الثغر متزوع الثيوب مقلوع الضروس ! - ولست أباي كيف أبدو للقارئ ! وما كنت لأعنى بجمع هذه أو تلك من مقالاتي ونشرها ، بعد أن طويت مع الصحف التي ظهرت فيها ، لولا أنني فرجت بذلك أزمة كانت مستحكمة ! وما أراني أنقذتها أو أحييتها ، بل بعثتها من قبورها لتلقى حسليها ! ولعله كان خيرًا لها أن تظل ملفوفة في أكفانها !

وأحسنى بعد أن صارحت القارئ بهذا الذي لم يكن يعلمه ، لا أحتاج أن أقول إني لا أكتب للأجيال المقبلة ، ولا أطمع في خلود الذكر . وهل ترى ستكون هذه الأجيال المقبلة محتاجة - كجيلنا - إلى هذه البدائة ؟ أليس أحق بأن يكتب لها نفرٌ منها ؟ أمين العدل أم من الغين أن نكلف الكتابة لجيلنا ولما بعده أيضًا ؟ تالله ما أحق هذه الأجيال المقبلة بالمرئية إذا كانت مستشعر بالحاجة إلى ما أكتب !! ليتهمها غيرى بالمعقم إذا شاء !

ويرى القارئ في كتابي هذا مقالاً كان في الأصل مقدمة لكتاب جمعت فيه ما نقدت به شعر حافظ منذ أكثر من عشر سنين . وللقارئ الحق أن يستغرب أن أنقل مقدمة كتاب مطبوع وأن أدسها هنا . ولهذا سبب لا أرى بأساً من إيضاحه : جمعت فيما مضى نقدي لشعر حافظ وطبعته ونشرته ، وبعث منه عددًا ليس بالقليل ، ثم أخذ الشراء يطلون عليّ ، فضقت ذرعاً بما بقي من نسخه ، فحملتها إلى بقال رومى اشتراها منى بالإقاة ! وعزيت نفسى عن ذلك بقولى لنفسى إن جبن الرومى وزيتونه أحق بهذا النقد ! ؟ ثم مضت عشرة أعوام وبعض عام وشرعنا نطبع « حصاد المشيم » هذا ، وأنا لماضون فى ذلك إذ جاءنى صديق يعودنى ، وكنت مريضاً ، وأطلعنى على صحيفة ينشر فيها بعضهم نقدًا لشعر حافظ ، وأكثره مسروق من قديم نقدي !! وسألنى الصديق « آتت الكاتب ؟ » قلت « كلا ! » .

قال « إذن فهمى سرقة بحسن التنبيه إليها » .

وألح علىّ فى ذلك ، فقلت له « اسمع ! زعموا أن لصاً تسلل إلى بيت قائله أفرغ من فؤاد أم موسى ! وعزّ عليه أن ينقلب صقر الديدن ، أو كما يقول العربُ رحمهم الله ، أو ما شاء فليصنع بهم ، خالى الوفاض بادئ الأنفاض ، فواصل البحث وهو مغيظ محق ، فما راعه إلا رجل فى بعض الغرف محتبى فى ركن ، ووجهه إلى الحائط . فلما ثبت إليه نفسه بعد الدهشة ، قال لعله لص مثلى وضحك ! ودنا منه فلم يتحرك ، فوضع يده على كتفه فى رفق وسأله « من أنت يا هذا ؟ وماذا تصنع هنا ؟ » .

فاستدار الرجل وقال ، ووجهه إلى الأرض « أنا صاحب البيت !! وقد شعرت بدخولك وأدركت عرضك فتواريت منك خجلاً !! » .

وأنا يا صديقى كصاحب هذا البيت العارى ! أستحيى أن أتبه إلى سطر صاحبتنا المتأصّل على نقدي ، مخافة أن يتنبّه الناس إلى ما أرجو مخلصاً أن يكونوا قد نسوه من أنى أنا كاتب ذلك الهراء القديم ! ومن أجل ذلك أحب لبصاً ما عدا عليه ويزنى إياه ، وما أسهل أن يهب المرء غير شيء !!

فضحك صاحبي وانصرف ! وخطر لى بعد أن وهبت النقد لسارقته أن أستنقل المقدمة .

ولم يبق مما أريد أن أقوله فى هذه الخاتمة سوى كلمة واحدة : هى أنى مستغن عن رضى النقاد المتحذلقين عن كتابي هذا ، وقانع باستحسان أمثالى من الأوساط المتواضعين وهم بحمد الله كثيرون فى هذا البلد الأمى ! بل أكثر مما يلزم لى !

٢٨ يناير سنة ١٩٢٥

إبراهيم عبد القادر المازنى

فهرس

الموضوع

صفحة

مقدمة	٣
على تخوم العالمين :	
١ - الصحراء	٥
٢ - صفحة سوداء من مذكراتي	٨
النجاح	٢١
شكسیر فی اللغة العربية :	
١ - تاجر البندقية	٢٥
٢ - تاجر البندقية	٢٩
المدينة الفاضلة	٣٧
ديوان العقاد	٤١
الأدب ينهض في عصور المشادة	٤٧
ماكس نورداو :	
١ - رأيه في مستقبل الأدب والفنون	٥٣
٢ - القوة الدافعة ومقاومة الجماهير	٥٩
التصوف في الأدب :	
١ - عمر الخيام	٦٧
٢ - كروبوتهكين	٨٩
الجمال في نظر المرأة	٩٥

الرجل والمرأة في الهيئة الاجتماعية (حول عادة الكاميليا) . . ١٠٣
الأدب والفنون :

الآثار في مصر ١١٣

في معرض الفنون ١١٤

صور الوجوه ١١٨

الحدود الطبيعية ١٢٢

في معرض الفنون ١٢٩

التصوير والشعر الوصفى :

١ - الحركة والسكون ، وصف المناظر ١٣٧

٢ - الدمامة ، الاحساسات المركبة .. إلخ ١٤٤

أبو الطيب المتنبي :

١ - سيورته ، قوته .. إلخ ١٥٣

٢ - شخصيته وموقفه من كافور ١٥٩

٣ - المتنبي ومظاهر الرقة ١٦٦

٤ - سخافة وحكمة ، مقتضيات الخلود ١٧٣

٥ - حكايات بخله ١٨٠

تقليد القدماء ١٨٧

الحقيقة والمجاز في اللغة :

١ - رأى لوك ، نشأة المجاز ، الترادف ١٩٣

٢ - هل اللغة ألفاظ مصطلح عليها ؟ إلخ ١٩٨

الواجب ٢٠٥

الكتب والخلود ٢١١

الطبيعة عند القدماء والمحدثين ٢١٧

القدماء والمحدثون ٢٢٣

جيفة وذهب ٢٣١

كلمة في الخيال ٢٣٧

كلمة عن ابن الرومي وحياته ٢٤٣

ديوان ابن الرومي :

١ - كلمة عامة تمهيدية ٢٧٩

٢ - أصله ٢٨٦

٣ - شخصيته : أ ٢٩١

شخصيته : ب ٢٩٦

شخصيته : ج ٣٠٣

٤ - السخر : أ ٣٠٩

السخر : ب ٣١٥

٥ - فلسفته : أ ٣٢٣

فلسفته : ب ٣٣١

خاتمة ٣٤١